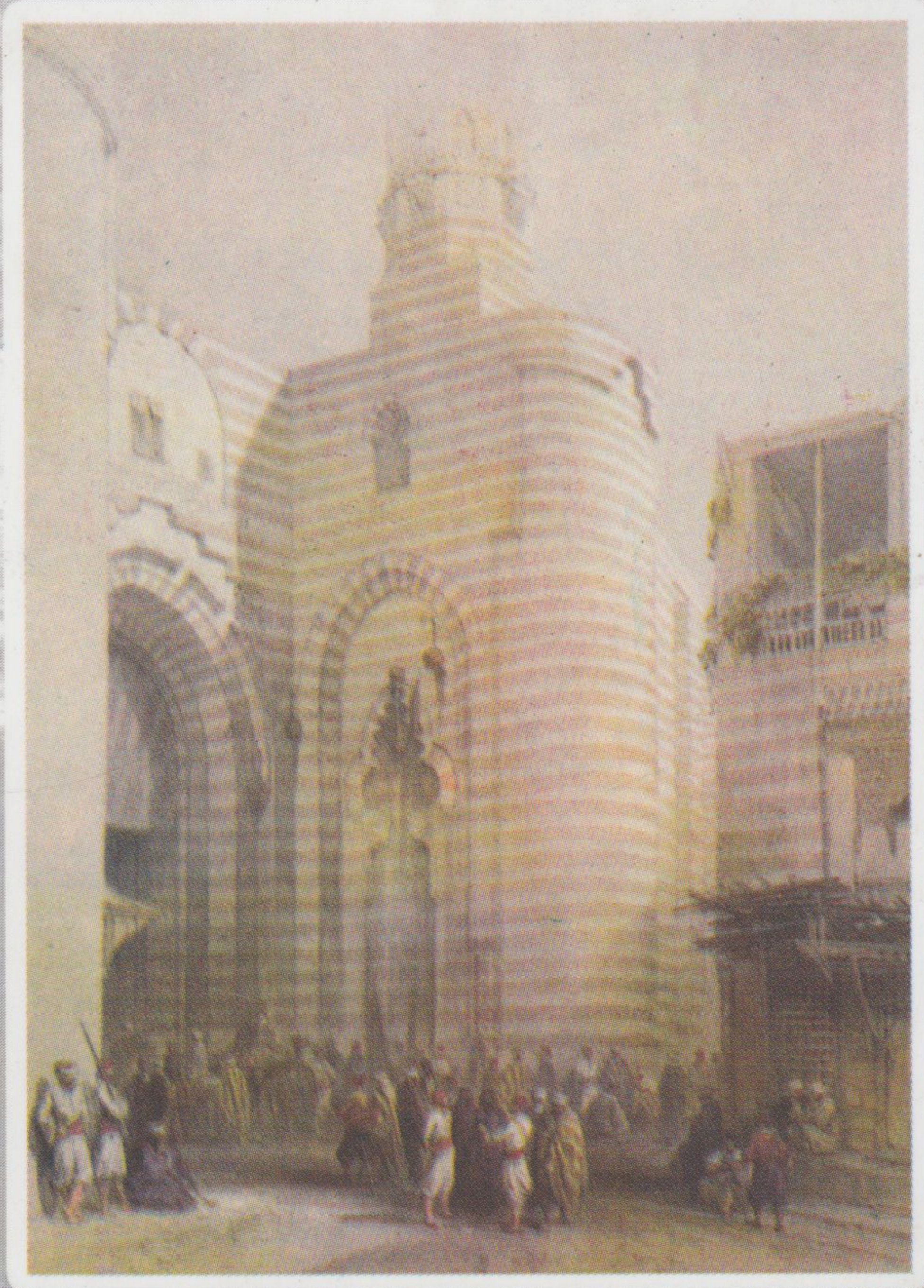


دكتور صلاح أحمد هريدي



دراسات في

# تاريخ مصر الحديث والمعاصر





# دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر

٩٢٣ - ١٢١٣ هـ / ١٥١٧ - ١٧٩٨ م

« الجزء الأول »

تأليف

دكتور صلاح أحمد هريدي على

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب - فرع دمنهور

جامعة الأسكندرية

طبعة ٢٠٠٥



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية  
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

### المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقي عبد القوى حبيب

د . قاسم عبده قاسم

المدير التنفيذي :

شريف قاسم

تصميم الغلاف : محمد أبوطالب

حقوق النشر محفوظة ©

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

ه شارع ترعة المربوطية - الهرم - ج.م.ع . تليفون وفاكس ٢٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

E-mail : dar\_Ein@hotmail.com

## إهداء

إلى أستاذى العالم الإنسان ..  
الدكتور عمر عبد العزيز عمر .. تحية ووفاء ..

صلاح أحمد هريدى



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد رسول الله ﷺ وبعد ... أقدم هذه الدراسات عن تاريخ مصر العثمانية ، ويتحدث الفصل الأول من هذا الكتاب عن الفتح العثماني لمصر ونتائجه . وتعرضت للعلاقات المملوكية العثمانية ، حيث كانت حسنة وتدهورت بعد ذلك . ولذلك فقد كانت العلاقات حسنة في أول الأمر ، ووضع ذلك عندما كان يحقق أى طرف نصراً على القوى المعادية ، فيقوم الطرف الآخر بإرسال التهاني وإقامة البشائر . وظهر ذلك واضحاً في عهد السلاطين المماليك والسلاطين العثمانيين وتبادلتهما رسائل الود والصداقة لتأكيد التحالف بينهما . وتأزمت العلاقات بين السلطنة المملوكية والإمبراطورية العثمانية بسبب متاخمة أراضيها وسبب صراعها على النفوذ ، خاصة وأن السلطنة المملوكية كانت في حالة الانحطاط ، بينما كانت الإمبراطورية العثمانية في طريقها إلى الأوج وتطمع بزعامة العالم الإسلامي ، بشأن الدول الإسلامية الكبرى ، وقد وجدت عدة مناسبات للاحتكاك ، ثم الاصطدام بين المماليك والعثمانيين ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، ومطلع القرن السادس عشر .

وتمثل ذلك في الصراع على النفوذ في منطقة ألبستان ولجوء بعض الأمراء العثمانيين إلى المماليك ، مثل لجوء الأمير سليمان العثماني وأخته فاطمة شهرزادة إلى السلطان برسباي ، وأدى ذلك إلى تدهور العلاقات بين الطرفين ، وثورة الأمير جم ابن السلطان محمد الثاني والتجائه إلى السلطان قايتباي ، وأدى ذلك إلى تأزم العلاقات المملوكية العثمانية . وظل الحال إلى أن تولى سليم وهروب أبناء أخيه أحدهم إلى فارس ، وسليمان وعلاء الدين وقاسم ، إلى مصر وإن كان الغوري قد استقبلهم على مضض . وقد مات سليمان وعلاء الدين بالطاعون فأرسل سليم يطالب من الغوري تسليم قاسم . وكان أصغرهم ، لايتعدى الثلاث عشر سنة . فرفض الغوري طلبه بسبب أن الغوري كان يرى أن سليماً الذي اجتراً على ارتكاب كل هذه الجرائم ، لايتورع عن التحرش به خاصة وأن الأمور قد تأزمت بين الدولتين بسبب الحدود ، أما سليم فقد وجد أن الغوري يتدخل في شئون أسرته . بالإضافة إلى قيام الإمارات التركمانية وأثر ذلك في العلاقات بين المماليك والعثمانيين .

أما الفتح العثماني للشام ومصر فقد تم بعد أن تدهورت العلاقات المملوكية العثمانية ، وخاصة بعد قيام الصراع بين الصفويين والعثمانيين وانتهت بانتصار العثمانيين في موقعه تشالديران عام ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م ، بدأت بعد ذلك الاستعدادات من جانب كل من الغوري وسليم ، ودخل المماليك المعركة ولم يستعدوا لها الاستعداد الكافي ، والنزاع بين المماليك الذين اصطحبوا السلطان الغوري إلى الشام ، بالإضافة إلى الخيانة التي دبت في صفوف المماليك وانتهت بموقعة مرج دابق ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م بهزيمة المماليك ، واتخاذ السلطان سليم بعض الإجراءات في الشام .

وبالنسبة للموقف في مصر فقد تم اختيار السلطان طومان بعد موت السلطان قانصوه الغوري ، ورفض العرض المقدم من السلطان سليم بالتبعية ، وحدثت عدة معارك في غزة ، ومساعدة بدو سيناء للعثمانيين ، والمتاعب التي ظهرت من جانب المماليك أنفسهم ، ووصل العثمانيين إلى الريدانية وحدثت موقعة مهولة ، حيث قتل في هذه الموقعة سنان باشا الصدر الأعظم ، حيث ظن طومان باي أنه السلطان سليم . وانتقم العثمانيون لذلك أشد الانتقام من المصريين والمماليك ودخل سليم القاهرة . ولجأ طومان باي إلى الصعيد والوجه البحري ، ودارت عدة معارك ، وبدأت الخيانة تدب في صفوف المماليك مرة أخرى ، وانفض عرب هواة الأشداء بالصعيد عن التأييد بعد أن أدركوا أن قضية طومان باي خاسرة ، ورفض عرب المغاربة الاشتراك معه لكونه مسلماً يحارب مسلماً .

وتم التعرض لموقف القبائل العربية الأخرى بالوجه البحري وخاصة أولاد مربعي بالبحيرة وانتهى الأمر بتسليم طومان باي إلى السلطان سليم ، وتم اعدامه على باب زويلة ، واتخذ السلطان سليم عدة إجراءات إدارية في مصر ، وعيّن جانم السيفي كاشفاً على البهنسا والفيوم ، كما عين اينال السيفي على الجيزة والغربية ، واعترف بقضاء المذاهب الأربعة إلى غير ذلك من الإجراءات . وانتهى هذا الفصل بشرح الأسباب التي أدت إلى هزيمة المماليك .

أما التنظيم الإداري في مصر العثمانية ، فكان عنوان الفصل الثاني ، حيث تعرضت للتنظيم الإداري الذي كان موجوداً قبل ذلك ومجهودات العثمانيين بعد الفتح ، والصراعات التي كانت تدور حول التسابق للحصول على منصب حاكم ولاية من الولايات الكبرى كالشرقية ، والغربية ، والمنوفية ، والبحيرة وجرجا . والكاشفيات التي كانت موجودة مثل الكاشفيات الكبرى والكاشفيات الصغرى التي كانت تتبع بعض الولايات ، وتدهور هذا النظام وخط ما بين كلمة كاشفية وولاية ، وإدارة الأقاليم كانت تتم عن طريق صنايق يحملون لقب بك ، وكان منصب الصنجقية من المناصب الهامة ولها الكثير من الامتيازات مثل

حصولهم على نصيب عيني من القوافل الواردة من دار فور وسنار . وعلى هذا الأساس حرص الأمراء المماليك على جعل هذا المنصب قاصراً على أولادهم وأتباعهم .

فقد اشترك في حكم مصر الباشا ومعاونوه يمثلون السلطان العثماني ويحكمون الولاية ويشرفون على إدارتها ، وهيئة أمراء المماليك ورجال الحامية العسكرية يشتركون في الحكم والإدارة أيضاً إلى جانب مهمتها الحربية .

فقد كان الباشا على قمة الجهاز الإداري ، وألقابه ، ومقره ، ومدة حكمه ، واختصاصات الباشا المدنية المحافظة على النظام العام ، وتفقد أحوال الرعايا وأحوال الأموال السلطانية وحفظ وحراسة الولاية ورعايا الأمن ، وله حق الإشراف على جميع الشئون الإدارية في مصر عن طريق رئاسته لجلسات الديوان العالي وبحضره قادة الأوجاقات وينفذ أوامر السلطان لإدارة مصر ، وهو المسئول عن تطبيق قواعد الحكم العثماني فيها . ورعاية المبادئ الخلقية في ذلك العصر ، وإبطال المنكرات والخمائم ومواقف الخواطيء والبوظ . وإقامة الاحتفالات عند علمه بانتصار الجيوش العثمانية ، ورئاسة الاحتفالات بوفاء النيل ، والاحتفال بالعيدين ، وحفل خروج المحمل والكسوة في طريقها إلى الحجاز .

وتم التعرُّض لاختصاصات الباشا المالية ، حيث اعتبر المسئول الأول عن مالية مصر ، والجهاز الذي يساعده في ذلك مثل الدفتردار والروزنامجي ، وهو المسئول عن إدارة خزانة مصر وموازنة إدارتها ومصروفاتها . وإرسال الخزانة الإرسالية إلى استانبول بالإضافة إلى الضريبة النوعية وتشمل مواد غذائية ترسل أيضاً . ودفع مرتبات الموظفين من مرتبات نقدية وعينية .

وعرفت أوامره الإدارية باسم البيورلدى وموارد الباشا ومصروفاته . وطريقة عزل الباشا وأسبابها ومحاسبته .

أما الديوان ، فكان يعرف باسم " ديوان محروسة مصر " و " دِيَوَان حضرت ولي النعم والى مصر " ويرأسه الباشا أو الكتخدا . ويضم الديوان خلاصة العناصر التي تشترك في إدارة مصر ، مثل الدفتردار ، والمهردار ، حامل الأختام والدويدار حامل الدواة ، وقاضى عسكر أفندى ، والمفتون على المذاهب الأربعة ، وكبار رجال الدين ، والأمراء الصناجقة وأغاوات واختيارية الأوجاقات السبع . ولهم مهمة ثابتة في ذلك . كذلك وجد في مصر الديوان الصغير وكان يجتمع في كل الأيام في قصر الباشا .

والحامية العثمانية والأوجاقات السبعة ، وهي هيئة حربية مهمتها الدفاع عن مصر والاشتراك في حروب السلطان ، وكذلك لها اختصاصات أخرى غير حربية فهي تساعد الباشا

والصناجق فى توطيد الحكم العثمانى فى مصر ، وفى الوقت نفسه تراقب الباشا والصناجق وتوازن سلطتهم . وتم التعرض للأوجاقات السبعة مثل جماعات السباهية ( الفرسان ) ومنهم جماعة الكوكليان ومهمتهم وتفنكجيان سوارى ، الجراكسة ، ومستحفطان وعزيان وجاوشان متفرقة وأهم أعمالهم .

ويأتى بعد ذلك القضاء كعنصر من عناصر الإدارة واختصاصاتهم الإدارية مثل الإشراف على الأوقاف والمرتببات الخيرية المخصصة للعلماء أو المجاورين بالأزهر . أو لأهل الحرمين الشريفين ... إلخ ومدتهم واختصاصاتهم القضائية وخاصة لقضاة الأقاليم . ويساعدهم المفتون وإيراداتهم ومدة خدمتهم بالإضافة إلى الشخصيات الدينية الأخرى مثل نقيب الأشراف . أما الإدارة المالية ، فقد تم التعرض لأقسام الخزينة السلطانية إلى قسمين :

١ - ديوان الدفتردار أو الديوان الدفترى .

٢ - ديوان الروزنامة .

ومن عمد النظام الأوجاقات العسكرية ، لذا فقد تعرضت لأهم الأعمال التى تقوم بها ومشاركتها فى إدارة الريف ، واستغلالها للفرص باستيلائها على أجود الأراضى الزراعية ، مما جعلهم مصدر قلق وازعاج للسلطات الحاكمة فى القاهرة ، وقد ازداد نفوذهم وقوتهم حيث قاموا بعزل بعض حكام جرجا عام ١١٢٠هـ / ١٧٠٧م وقاموا بتعيين آخرين مكانهم متجاهلين السلطات الحاكمة .

وبينت التغييرات التى طرأت على منصب القضاة بعد أن أبطل السلطان سليمان المشرع نظام القضاة الأربعة فى مصر وعيّن قاضيا عثمانيا - قاضى عسكر أفندى - على أن يتصرف حسب المذاهب الأربعة ، وطريقة تعيينه وتعيين نوابه ، والاهمال الذى تطرق الى هذا النظام ، كما تعرضت للمدة التى قضاها هؤلاء القضاة فى عملهم والمساعدين لهم ، وهم المفتون الذين كانوا موجودين بجانب القضاة .

أما الفصل الثالث عن بعض جمارك مصر فى القرن الثامن عشر الميلادى وهى جمارك الإسكندرية ورشيد ودمياط والبرلس ، وقد ركزت هذه الدراسة على هذه الجمارك لأنها كانت تعد المنافذ الرئيسية لمصر فى البحر المتوسط وأهميته كحلقة إتصال بين الشرق والغرب .

وقد تم التعرض لأهمية موقع مصر الجغرافى ، وطرق المواصلات العالمية ودراسة هذه الموانئ ، ودور كل منها فى حركة التجارة الخارجية لمصر خلال هذه الفترة ، والإدارة لكل منها والعناصر المشتركة فى إدارتها .

فقدمت هذه الدراسة ميناء الإسكندرية وأهميته ، وجمركه ونظام الادارة فيه ، والعناصر المشتركة فى إدارته . ثم تعرضت بعد ذلك لميناء رشيد وجمركها وانضمامه إلى جمرِك الإسكندرية فى القرن العاشر الهجرى / منتصف القرن السادس عشر الميلادى . ثم أهمية جمرِك رشيد فى القرن الثامن عشر الميلادى .

وميناء دمياط وأهميته الإقتصادية فى البحر المتوسط ، وإدارته وجمركه والعناصر المشتركة فى إدارته أيضا ، والبرلس حيث كانت أهميتها تأتى من كونها مركزاً للقوافل الواردة من شمال أفريقيا وفزان ، والخسائر التى لحقت به ، مما ترتب عليه إنضمامه إلى جمرِك دمياط فى أواخر القرن الثامن عشر .

وبالنسبة لإدارة الجمارك فقد تم التعرض لها من حيث نظام التفتيش الدقيق للسفن الواردة والإجراءات التى كانت تتبع ، والرسوم التى كانت تفرض سواء على الأشخاص أو البضائع ، والمعاهدات التى عقدها الدولة العثمانية مع الدول الأوربية بهذا الخصوص . والمشاكل التى نجمت عن ذلك . والهيئات الأخرى التى كانت تشارك فى إدارة هذه الجمارك مثل القناصل وغيرهم .

وطبقت الدولة العثمانية نظام الإلتزام فى جماركها ، وسرى ذلك على مصر ، حيث أصبحت هذه الجمارك تمثل العنصر الثانى للإيراد فى الدخل بعد الأرض وعملية نقل المزداد فى الجمارك إلى الملتزمين .

وتميز القرن السابع عشر بأن جمارك مصر المهمة أعطيت كإلتزام للباشا ومقاطعاته المهمة ، وظل كذلك بالنسبة لجمرك الإسكندرية حتى نهاية القرن السابع عشر ، ثم سيطرت بعد ذلك الإنكشارية وتبع ذلك رشيد ودمياط والبرلس ومصر القديمة وبولاق . وأصبحوا يدفعون للباشا عوائدها وبالتالى إستولوا على إيراداتها .

أما فى القرن الثامن عشر . فقد تم تأجير مقاطعات جمارك إسكندرية ورشيد ودمياط وبولاق ومصر القديمة إلى إختيارية المستحفظان وظل ذلك حتى عهد على بك الكبير ، وحاولت الدولة العثمانية أن تعيد الإلتزام هذه الجمارك للباشا ولكنها لم تفلح . بل إننا قد لاحظنا إزدیاد قوة الإنكشارية وتمادت حتى أنها ضغطت على الباشا وجعلته يدفع والعوائد المقررة عليها .

وبالنسبة للمصاريف التى كانت تنفق من حصيلة الجمارك فقد أوردتها الدراسة بالتفصيل . وختمت الدراسة بنهاية القرن الثامن عشر وكيف استولى كل من مراد وإبراهيم بك على جمارك مصر واقتسماها . وظل ذلك الوضع إلى نهاية هذا القرن والسياسة التى اتبعها نحو

الأوروبيين ، وخاصة عندما فرضا رسوما اضافيا ، مما أدى ذلك لتدخل بعض الدول الأوروبية لحماية رعاياهم من مظالم مراد بك وإبراهيم بك ، وانتهى الأمر بعقد إتفاقيات تجارية معهم مثل فرنسا وإنجلترا .

. وقد إعتمدت هذه الدراسة على سجلات الروزنامة بدار الوثائق القومية بالقلعة بالقاهرة ، ودار المحفوظات القومية ، وأرشيف الشهر العقارى بالقاهرة والإسكندرية .

أما الفصل الرابع فقد دار حول التعليم فى مصر فى القرن الثامن عشر الميلادى وهناك جوانب عديدة مازالت فى إجتياج لإلقاء الضوء عليها فى تاريخنا الحديث ، ويمثل التعليم جانبا من تلك الجوانب ، ولذلك نتناوله بالبحث والحديث عنه فى مصر وبخاصة فى القرن الثامن عشر ، لما شهده هذا القرن من الأحداث المهمة والعديدة التى كان لها أكبر الأثر فى نواحي الحياة المتعددة ومن هذه الأحداث ذات الأثر الكبير تجدد الصراع بين البيوتات المملوكة بغرض السيطرة على السلطة ، فقد أثر هذا الصراع على نواح متعددة وما من شك أن التعليم قد تأثر بذلك الصراع فهو ناحية مهمة وحيوية من نواحي المجتمع وأثر عليه ذلك الصراع وبخاصة العلوم العملية منه فقد تدهورت أحواله .

إلا أنه فى أواخر هذا القرن قد شهد التعليم بعض التطورات المهمة للنهوض به وقد جاء ذلك متأخراً . فمصر قد واجهها قدوم الحملة الفرنسية عليها عام ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م ، وكان لقدوم تلك الحملة على مصر أثر فى تلك النهضة العلمية وذلك لما إتخذته من خطوات إبان وجودها فى مصر من الناحية العلمية ، وما إتخذه محمد على من خطوات فى هذا المجال وفى مجالات أخرى .

ولذلك فقد تحدثنا عن الحياة العلمية فى مصر منذ عصر دولة المماليك والنشاط العلمى فى عصرهم ، وخاصة بعد إحيائهم للخلافة العباسية فى القاهرة وتشجيع كل من السلاطين والأمراء المماليك للحياة العلمية ، بل واشتغال بعضهم - أى الأمراء - بالتاريخ والفقه والحديث .. إلخ .

وإنتهى أمر مصر وسقطت فى أيدي الأتراك العثمانيين إعتباراً من عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م . وتدخل مصر مرحلة جديدة نلاحظ منها وضع التعليم فيها وما أصابه . وقد كان للسلطان سليم الأول موقف من ذلك كله وخاصة عندما أصدر قراره بترحيل بعض علماء الأزهر إلى استانبول ، ومعهم بعض الحرفيين وآخر خلفاء العباسيين وبعض الأعيان والتجار وترتب على ذلك إتخاذ البعض هذا القرار للتشهير بالدولة العثمانية . علما بأن السلطان سليمان القانونى

أصدر قراره بعودة هؤلاء بعد وفاة والده السلطان سليم عام ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م وتبع ذلك عدة قرارات وتباطئ البعض فى العودة .

وأصدر السلطان سليم عند وجوده فى مصر قرارا بعدم التعرّض للأوقاف التى كانت مخصصة للصرف على أوجه الخير ومنها التعليم . ومجهودات بعض باشوات مصر العثمانيين فى هذا المجال وخاصة فى العلوم الدينية . وهذا يرجع إلى طبيعة ذلك العصر الذى كان قائما على قانون العرض والطلب ، حيث تركت مهنة الطب والجراحة فى أيدي الحلاقين والمشايخ ، وإنحطت علوم الصيدلة وبعض العلوم الأخرى مثل الفلاحة والمساحة .. إلخ . بالإضافة إلى الإهتمام بدراسة اللغة التركية واللغة الفارسية ، وأهملت اللغات الأجنبية ولم يهتم بها إلا فى عهد محمد على .

أما عن مراحل التعليم المختلفه ، فكانت تتمثل فى الكتاب والمدرسة وبعض المؤسسات التعليمية الأخرى التى ساهمت بشكل واضح فى مجال التعليم وإن اختلفت وسائله ومناهجه مثل الروابط والزوايا والخانقاوات ، وأهل الذمة والأوروبيين ، وإن لم يتضح ذلك بالنسبة لهم - الأوروبيين - إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

فتناولت الحديث عن الكتاب سواء كان للمسلمين أو المسيحيين أو اليهود ، والتعرّض إلى النظام الذى كان متبعاً فى كل منهم ، والمواد التى تدرس ونظام العمل فيه ، وطريقة الثواب والعقاب ، وتتبعنا ذلك كله بدءاً من دخول التلاميذ فى هذه المرحلة حتى إتمامها . والإجراءات التى كانت تتبع فى مثل هذه الحالات كما كانت هناك المكاتب العامة حيث كانت مهمتها تعليم أبناء الأيتام والفقراء مجاناً ، ويتم الانفاق عليها من الأوقاف والمكاتب الخاصة التى يتم التعليم فيها الأجر ، بالإضافة إلى جهود العثمانيين فى ذلك .

أما كتاتيب المسيحيين فقد اكتسبت شهرة خاصة ، مما ترتب عليه إرسال بعض أبناء المسلمين إليها ، وقد حدث العكس أيضاً بالنسبة لكتاتيب المسلمين . أما اليهود فلم يكن لهم نظام ثابت بسبب وجودهم فى الشتات . إلى أنهم كانوا يعيشون فى أحياء خاصة بهم . وبالرغم من ذلك فقد كان لهم نظامهم فى التعليم الخاص بهم .

أما المدارس وتطورها . والمواد التى تدرس بها ، وأسباب إنشائها ومجهودات كل من المماليك والعثمانيين والأهالى فى هذا المجال ، ودورها فى المجالات الأخرى ، والمبانى التى ألحقت بها مثل مساكن الطلبة والمدرسين ، وخضوعها لنظام التفتيش من جانب السلطات المختصة . ومدارس الأقباط فانها لم يتم إنشاؤها إلا فى القرن التاسع عشر ، كذلك كان هناك

المدارس اليهودية التى إلتحق بها بعض الطلبة المسلمين ، كما تعرضت للمناهج الدراسية والمدة التى يقضيها الطالب .

وكان هناك أيضا المؤسسات التعليمية الأخرى مثل المساجد والربط والترب والزوايا والتكايا ، والمعاهد الخاصة بكل مذهب ، فقد كان للمسجد عدة وظائف أخرى غير التعليمية والصلاة ، فهو يمثل مركزا للإعلام ومركزا للإشعاع الفكرى والثقافى والسياسى ، ثم تكلمنا عن جهود كل من المماليك والعثمانيين فى هذا المجال ، والربط والزوايا والتكايا والمواد التى تدرس بها والغرض الذى من أجله انشئت . وأيضا جهود المسيحيين واليهود والأوربيين وهدفهم من إنشاء هذه المؤسسات التعليمية .

وتعليم المماليك ونظام تعليمهم والمواد التى كانوا يدرسونها ، وظهور بعض أمرائهم فى مجال التعليم وبخاصة فى بعض التخصصات . وتطور نظام تعليمهم بعد ذلك فى عهد محمد على ، والتعليم العسكرى والبدو ونظامهم ومجهوداتهم فى المناطق التى عاشوا فيها ، والصرف على التعليم وإنشائهم لبعض المدارس وغير ذلك ، وتم التعرض بعد ذلك لتعليم البنات المسلمات والمسيحيات واليهوديات وطريقة تعليمهن وغير ذلك .

أما عن الأزهر فقد كان يمثل مرحلة التعليم العالى ومعه بعض المعاهد الأخرى المنتشرة فى البلاد ، وكان للمسلمين والأتراك العثمانيين والأمراء المماليك جهود تذكر وتناولنا الحديث عن المواد التى كانت تدرس به ، وحفلة التخرج بالنسبة لطلبته والأجازات التى تمنح للطلبة ونوعها .

وإتصالا بالتعليم فقد أنشئت المكتبات التى وجدت فى الجوامع والمدارس والروابط والخوانق ، والمكتبات الخاصة لدى الأهالى ، وتكلمنا عن ذلك وعن نظام الإستعارة ومدتها والموظفين العاملين فيها مثل خازن الكتب وإختصاصاته ، والمترجم ، والنساخ ، والمجلد ، والمناول ، والخادمون ، والفراشون .

أما الإدارة فى التعليم ، فكانت تنقسم إلى قسمين ، القسم الفنى ويشمل أعضاء هيئة التدريس فى الكتاب وهم المعلم أو الفقيه أو المؤدب والعريف والشروط التى يجب توافرها فى كل منهم . وفى المدرسة يكون المدرس والمعيد . وفى الأزهر كان يوجد الاساتذة المخصصون والالقباب العلمية ، التى كانوا يحملونها ، أما القسم الثانى من الإدارة ، فهو الناظر ، والمباشر والصراف ، والشادية وكاتب الغيبة ، والمعمار ، والمرخم ، والسباك ، والنجار ، بالإضافة إلى وظائف الخدمات مثل الطباخ والعاملين بالساقية والمزملة والبواب والفراش وإختصاص كل منهم .

أما الإنفاق على التعليم ، فكان من أموال الأوقاف الموقوفة للصرف على التعليم ولأغراض أخرى . وتسابق كل من العثمانيين والامراء المماليك والأهالي للصرف على هذه الأماكن وعلى طلبتها والعاملين فيها . وذلك بعكس أوروبا التي كانت الحكومة هي التي تتولى الصرف على التعليم . وكان تعليم المسيحيين هو الآخر يعتمد على الإعانات التي تأتيهم من الأديرة.

وتم التعرض بعد ذلك للركود والجمود الذي أصاب التعليم ، والأمثلة على هذا التدهور في بعض العلوم المختلفة وأثر ذلك كله على التعليم .  
أما الخاتمة فكانت للجهود المبذولة لحركة إحياء الثقافة في جميع الدراسات الرياضية والفلكية والأدبية ، وجهود علماء الحملة الفرنسية وما ترتب على ذلك .

أما الفصل الخامس عن الأوبئة والأزمات الاقتصادية في مصر العثمانية ، (٩٢٣هـ/ ١٢١٣هـ/ ١٥١٧-١٧٩٨م) ، فقد تعرض للأوبئة التي وقعت في مصر العثمانية ، وقد نتجت هذه الأوبئة عن سوء الأحوال الصحية ودور الدولة العثمانية في ذلك وقد تم التعرض إلى انتشار الطاعون وما ترتب عليه وجهود الباشوات العثمانيين إزاء ذلك . ومن الملاحظ في فترات انتشار هذا الوباء كان بعض الولاة أشد فتكا من الطاعون فمنهم من استغل الموقف وارتكب الكثير من المظالم ، خاصة ضد التجار وأصحاب الأموال . بالإضافة إلى أن الطاعون لم يكن واحداً ، فهناك الطاعون الأصفر ، وطاعون الحريق ، وطاعون عجيب انتشر في الشتاء.

وكانت الكوارث الطبيعية التي حاقت بمصر العثمانية مثل احتراق سوق البارود ، وتعرض البلاد للزلازل ، والأمطار الغزيرة التي كانت حبيباتها في حجم بيض النعام وتدميرها لبعض القرى .

أما الازمات الاقتصادية فكانت كثيرة ومتنوعة وكان لها آثارها السلبية في الحياة الاجتماعية ، وأسبابها كثيرة منها ثورات جند السباهية ، والصراع بين البيوتات المملوكية ، وأثر ذلك على ارتفاع أسعار المواد الغذائية وموقف السلطات الحاكمة من ذلك والأهالي أيضا. بالإضافة إلى تزيف العملة وغشها في عهد بعض الولاة وتحديد أسعار العملة ودور اليهود في حدوث تلك الازمات الاقتصادية والاختلاسات والعربان وانخفاض وزيادة منسوب النيل .

وختمت الدراسة بشهود مصر الرخاء وقد عبر النساء عن فرحهم بالزغاريد واستبشر الناس بذلك واحتفلوا بختان ابنائهم وأقيمت الأفراح .

أما الفصل لسادس : فيدور حول الحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م . حيث تتعرض مشروع الحملة والاستعداد ، والسياسة الأوروبية في تلك الفترة ، وحالة الإمبراطورية العثمانية ، وسياسة فرنسا تجاه الشرق والمفهوم الجديد للحضارة ، وظهور نابليون بونابرت والثورة والشرق . ثم الاعداد للحملة وموقف إنجلترا والدولة العثمانية ، ووصول الحملة إلى الإسكندرية واحتلالها واحتلال القاهرة والمقاومة المصرية والإجراءات التي اتخذها نابليون في مصر ، ثم رحيل الحملة ونتائج الحملة الفرنسية على مصر .

أما الفصل السابع فهو عبارة عن بعض الجوانب من تاريخ مصر الاجتماعي في العصر العثماني يمثل مجتمع الجوازي في مصر العثمانية ، الأندلسيون وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية في مصر العثمانية .

وأخيراً أرجو أن يسهم هذا الجهد المتواضع الذي أقدمه في هذه الدراسات في حركة إعادة كتابة تاريخ مصر الحديث .

اسبورتنج في أغسطس سنة ١٩٩٩ .

صلاح أحمد هريدي

## مقدمة الطبعة الثانية

تصدر الطبعة الثانية من هذا الكتاب «دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر» ٩٢٣-١٢١٣هـ / ١٥١٧-١٧٩٨م الجزء الأول بعد أن مر على طبعته الأولى ما يقرب من أربع سنوات كاملة، وهى فترة وإن كانت طويلة نسبياً ، إلا أنها سمحت بتوفير الجهد المطلوب لمراجعته وإعادة تقييمه فى ضوء ما أسفرت التجربة.

وقد سعدنا تماماً بالاستجابة المشجعة وبالتقدير الذى حظى به هذا الكتاب مما أتيح لهم أن يصل أيديهم من أساتذة وباحثين وطلاب على السواء، وهو ما كان له أكبر الأثر فى حفزنا على إعادة إصداره فى صورة أوفى وأقدر على تحقيق الغرض منه .

ومرة أخرى نتقدم بأجزل الشكر وأعظمه لدار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية على نشر هذا الكتاب فى طبعته الجديدة المعدلة .

وبالله التوفيق،

صلاح أحمد هريدى

الاسكندرية فى ١٠ / ١٠ / ٢٠٠٤م



## الفصل الأول

### الفتح العثماني لمصر ونتائجه

#### أولاً : العلاقات الملوكية العثمانية :

فى أول الأمر ، فإن المماليك لم ينظروا إلى العثمانيين بمنظار العداوة ، أو حتى المنافسين لهم فى السيطرة أو النفوذ فى العالم الإسلامى ، على أساس أنهم لم يعادوهم بعد ، لأنهم فى نظرهم لا يرقون إلى مرتبتهم ، حتى وإن كانوا قد أحرزوا انتصارات هائلة على القوى الصليبية فى آسيا الصغرى وأوربا ، إلا أنهم فى رأيهم لا يقيمون مثلهم فى قلب العالم الإسلامى والعربى ، وإنما فى آسيا الصغرى وأوربا ، موئل شعوب غير إسلامية ، فهم اتخذوا القسطنطينية عاصمة الروم السابقة عاصمة لهم ، وإن سموها استانبول بكل ما كانت تمثل من عداً شديداً للإسلام طوال قرون عديدة ، لذلك فهم مسلمون مجاهدون فقط (١) .

وعلى العكس ، فإن المماليك بسبب وجود دولتهم فى الشرق الإسلامى ، اعتبروا أنفسهم حماة الإسلام وعلى الخصوص بسبب اتخاذهم مصر قلب العروبة والإسلام ، مركز الثقل فيها ، قاعدة أصيلة لدولتهم الإسلامية المترامية الأطراف ، وخاصة أن سياستهم هى نفسها سياسة الفاطميين والأيوبيين من قبل ، باتخاذ مصر قاعدة للنضال فى سبيل الإسلام . ثم أن المماليك كان رصيدهم السابق بالنسبة للإسلام كبيراً جداً ، فهم الذين قطعوا دابر الصليبيين من الشرق ، وإنهم هم الذين أوقفوا الخطر المغولى ، الذى لم يكن يقل تهديداً للبلاد الإسلامية عن الخطر الصليبي ، كما استطاعوا أن يعيدوا الخلافة التى قضى عليها المغول فى بغداد ، وبذلك أعادوا للإسلام ركناً هاماً فى شرعية وجوده ، بحيث أصبحت القاهرة مركز خلافة العباسيين . وبعد أن قاموا بهذه المهام الكبرى لصالح الإسلام العام ، فإنهم لم يستكينوا فى الجهاد ضد القوى المسيحية ، فهاهو برسباى يذكى روح الجهاد ويهاجم قبرص ثلاث حملات أخضعها له ، وانتصر على ملكهم جانوس الثانى لوزينان ، وأحضره معه أسيراً للقاهرة (٢) .

---

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر ، دراسة تحليلية للازدهار والانحيار ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٢٤ (٣) ٣٢٥ .

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٥ .

ولذلك ، فإن الماليك لم يكونوا يخلطون أنفسهم بالعثمانيين أبداً على الرغم من أن كليهما من الترك ، وإن سعى كل منهما إلى إيجاد أصل عربى ، على أساس أن العروبة هى مادة الإسلام ، فالجراكسة اعتبروا أنفسهم من أصل عربى ، فهم يربطون نسبهم بقريش . وحتى العثمانيين كانوا يرون أن جدهم عثمان هو عربى من سكان نواحي المدينة ، وإن اتصل بالسلاجقة فى آسية الصغرى وتكلم لغتهم . ويظهر عدم خلط أنفسهم بالعثمانيين فى أنهم كانوا يطلقون على دولتهم إسم العثمانية ، نسبة إلى عثمان جدهم أو الروم أو مملكة الروم<sup>(١)</sup> ، أما سلاطينهم فيطلق عليهم ملوك الروم من بنى عثمان<sup>(٢)</sup> ربما كان بسبب استقرارهم مكان الروم فى آسية الصغرى ، يطلق عليهم سلاجقة الروم ، لمجاورتهم لهؤلاء أو حتى لأنهم بعد ذلك أصبحوا مثل الروم يهاجمون فى بلاد الإسلام ، وهى على كل حال تسمية مقبولة من العثمانيين أنفسهم ، فقد كان سلطان العثمانيين - كما يظهر من مفاتيح الكعبة الشريفة - يسمى نفسه سلطان الروم<sup>(٣)</sup> .

وفى أول الأمر ، فإن الماليك مثل بقية المسلمين ، كان ثلج قلوبهم انتصارات العثمانيين على الروم ، وقضائهم نهائياً عليهم . وفتحهم فى بلاد أوروبا ، بل يرون أنهم أفضل من سلاجقة الروم ، الذين عاصروا نشأة دولتهم ، ولو أن هؤلاء جاهدوا الروم والصليبيين من قبل ، إلا أنه بسبب ضعفهم بعد ذلك ، نتيجة لاتقسامهم فإنهم أصبحوا ضعافاً متداعيين . فكان مظهر التقدير للعثمانيين المجاهدين : هو أن الخليفة الذى يستظل بحماية الماليك فى مصر ، كان يرسل إلى سلاطين آل عثمان إذا وصل خبر انتصار للعثمانيين على الروم إلى مصر ، كانت تزين البلاد<sup>(٤)</sup> .

ومن ناحية العثمانيين ، فإنهم كانوا على وئام مع الماليك فى أول الأمر ، يظهر ذلك من الرسائل التى تبادلوها مع سلاطين الماليك ومعظمها بالعربية ، فيها تفخيم لهم باعتبارهم

(١) محمد بن أياس الحنفى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق ، محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٢ ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ .

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٥ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ .

(٤) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٦ .

قادة العرب ، وحماة الحرمين الشريفين ، أو أن السلطان المملوكى هو خادم المساجد الثلاثة ، أى المسجد الأقصى مضافاً للحرمين الشريفين . وأحياناً تتبادل عبارات الحب والوله . وإن كان ذلك من قبل سلاطين المماليك أيضاً <sup>(١)</sup> .

ويظهر ذلك عندما تولى برقوق ( ٧٨٤ - ٨٠١ هـ / ١٣٨٣ - ١٣٩٩ م ) عرش السلطنة فى مصر أرسل إليه السلطان العثمان مراد الأول ( ٧٦١ - ٧٩٢ هـ / ١٣٥٩ - ١٣٨٨ م ) سفارة للتهنئة عام ١٣٨٨/٧٩٢ م ومعها الهدايا وتحذره من تحركات تيمورلنك ، من تبريز نحو الغرب مما يهدد الدولتين المماليكية والعثمانية <sup>(٢)</sup> وإن لم يغفل برقوق نفسه عن هذا الخطر، إلا أنه كان يخاف أكثر من أطماع العثمانيين <sup>(٣)</sup> وخطورتهم على مستقبل دولته . فقال " أنى لا أخاف منه ( تيمورلنك ) فإن كان أحد يساعدنى عليه وإنما أخاف من ابن عثمان <sup>(٤)</sup> .

وصدقت مخاوف برقوق ، فقد هاجم السلطان العثمانى بايزيد الأول ( ٧٩٣ - ٨٠٥ هـ / ١٣٨٩ - ١٤٠٢ م ) قيصريه عام ٧٩٤ هـ / ١٣٩١ م ، وقبض على أميرها الذى كان مشمولاً بحماية المماليك . ولكن بايزيد الأول سرعان ما أحس بحرج موقفه وخطأه مما أقدم ، عندما شعر بالخطر المغولى يقترب من بلاده ، ولاتصير له فى المنطقة سوى المماليك . فاعتذر لبرقوق عما أقدم عليه ، وأرسل له هدية ثمينة مع أحد رسله ، وطلب منه أن يبعث إليه أحد أطبائه المهرة لكى يشرف على علاجه ، فلبى برقوق طلب السلطان العثمانى ، وأرسل إليه الطبيب شمس الدين محمد بن الصغير ومعه الأدوية والعقاقير <sup>(٥)</sup> .

وقد تبادل السلطانان رسائل الود والصداقة لتأكيد التحالف بينهما فقد أرسل برقوق رسالة إلى بايزيد الأول مع قاصده سعد الدين سعد الله البريدى ذكر له فيها " أن المملكتين كروحين

(١) أحمد فؤاد متولى ، الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع المصادر التركية والعربية المعاصرة له ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٥ - ٩ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٧٦ ، الطبعة الثانية ، ص ٢٦٦ ، إبراهيم بك حليم ، تاريخ الدولة العثمانية العلوية ، المعروف بكتاب التحفة الخليمية فى تاريخ الدولة العلوية ، ص ٤٩ .

(٣) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٥ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .

(٥) نفسه ، ص ٢٦٧ .

فى جسد وساعدين فى عضد " وشكا له من سوء معاملة الجنوبيين وكفار كفه - مدينة فى شبه جزيرة القرم - تطل على البحر الأسود لتجار المسلمين وابن قابونى ، فرد عليه بايزيد الأول برسالة فى ٦ شوال عام ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م ، أوضح له فيها أنه أرسل قاصده إلى أمير جنوة وإلى مشركى كفة ، لتنبيههم إلى عدم التعرض لتجار المسلمين وأموالهم وإطلاق سراح السجناء منهم ، وابن قابونى وتسليم أموالهم إليهم كاملة ، وأكد على أواصر الصداقة بينهما ، وطلب منه الاستمرار فى المراسلة (١) .

ورد برقوق على بايزيد الأول برسالة عبر فيها عن فرحته بما ورد فى رسالته ، وبما قام به نحو حماية تجار المسلمين من اعتداء الجنوبيين عليهم . وذكر له أن تاجرين عثمانيين أحدهما يدعى الحاج تنكر ورمش من ممالك التاجر خوجة قاسم ، قد اتجر فى مصر بأموال مولاها فى تجارة الفلفل على خلاف القوانين المصرية ، ثم طلب منه أن يعفو عنهما لكى يعودا بما معهما إلى صاحبهما (٢) .

دأب السلطان بايزيد الأول على تأكيد صداقته واحترامه لسلطين الممالك ، فأرسل عام ٧٩٧ هـ / ١٣٩٤ م ، تحفاً وهدايا إلى الخليفة العباسى فى مصر هو المتوكل على الله فى ذلك الوقت ، طالباً منه تشريفاً وتقليداً باعتماده سلطاناً ، فبعث له المتوكل بهذا التقليد ، وهذا دليل واضح على مدى مركز السلطنة المملوكية وسيادتها الإسلامية العليا ، فى المجال الدولى والعالمى (٣) . ومن ناحية أخرى فإن السلطان بايزيد الأول حرص على إرسال سفارة إلى مصر ليبشر المسلمين بانتصاره على التحالف الصليبي فى نيقوبوليس ٧٩٧ هـ / ١٣٩٦ م ، كما أرسل إلى السلطان برقوق هدية من أسرى الفرنج بلغ عددهم مائتى أسير (٤) .

وفى عهد فرج بن برقوق ( ٨٠١ - ٨١٥ هـ / ١٤٠٢ - ١٤١٢ م ) أغار بايزيد الأول على أطراف دولة الممالك واستولى عام ٨٠١ هـ / ١٤٠٠ م على ملطية وداندره . ولاشك فى أن

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٤ - ٥ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٧ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٧ .

(٣) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ، منير بعلبكي ، بيروت الطبعة العاشرة ، بيروت ، لبنان ١٩٨٥ ، ص ٤٢٠ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٧ ، ص ٢٦٩ ؛ عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، العلاقات المصرية العثمانية ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٤٢ .

ذلك العدوان كان كافياً لحد ذاته لتحذير سلطنة المماليك من نوايا بنى عثمان ، هذا وإن كان خطر تيمورلنك ظل يدفع العثمانيين دفعاً إلى الاحتفاظ بوجد المماليك ، بدليل أن بايزيد عاد بعد قليل يطلب محالفة السلطان فرج لإقامة جبهة متحدة ضد الخطر المغولى المقرب من بلادهما ، فرفض فرج ذلك التحالف بعد مشاورة امرائه<sup>(١)</sup> . وأرسلوا يذكرونه بعدوانه على ملطية<sup>(٢)</sup> ، وبهذا تمكن تيمورلنك من مداومة كلا القوتين على انفراد فهاجم أراضى المملوكية ، وتمكن من إنزال الهزيمة بالمماليك عام ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠م بالقرب من دمشق ، كما استطاع أن يهزم بايزيد الأول ويأسره فى موقعة " جوبوق أووه " القريبة من أنقرة فى عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠٢م<sup>(٣)</sup> .

وبعد أن أنهت آثار هزائم تيمورلنك عند كلا الجانبين عادت العلاقات الودية بين الدولتين من جديد ، ولكنهما اقتصرت على تبادل التهانى والهدايا عندما يتحقق النصر لأحدهما ضد عدوها .

وفى عهد المؤيد شيخ ( ٨١٥ - ٨٣٤ هـ / ١٤١٢ - ١٤٢١م ) الذى تولى عرش السلطنة ، وتأخر سلطان العثمانيين الجديد محمد الأول فى تهنئته باعتلاء العرش وفى أواسط شهر ذى الحجة عام ٨١٧ هـ / ١٤١٤م أرسل السلطان محمد الأول كتاباً إلى السلطان المملوكى شيخ المحمودى على يد قاصده قوام الملك والدين قاض « ابنه كول » من أعمال بروسة يعتذر فيه عن تأخره فى المراسلة بسبب ما وقع بينه وبين إخوته من نزاع على العرش بعد موت أبيهم سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢م ومساعدة تكفور<sup>(٤)</sup> من القسطنطينية عمانويل لهم وتحريضهم إياهم ضده ، ويهنته باعتلاء العرش ، ويطلب منه تجديد أواصر الصداقة القديمة .

وقد أرسل محمد الأول هدية مع رسوله إلى السلطان المملوكى ، وقد رد السلطان المؤيد شيخ على رسالة السلطان محمد الأول ، يبين فيه سروره بما تحقق للسلطان محمد من نصر على تكفور القسطنطينية وأرسل هو الآخر هدية له . واستمرت العلاقات الطيبة بين الدولة

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٤٢١ .

(٢) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٩ .

(٣) نفسه ، ص ١٠ .

(٤) عبد الرزاق الطنطاوى القرموط ، المرجع السابق ، ص ٤٣ .

المملوكية والعثمانية ، وتبادل الطرفان الرسائل من آن لآخر تأكيداً لأواصر الصداقة وتبادل ما يستجد من أخبار<sup>(١)</sup>.

وتجددت العلاقات الودية بين السلطنة العثمانية والسلطنة المملوكية ، فأرسل السلطان العثماني مراد الثاني ( ٨٢٤ - ٨٥٤ هـ / ١٤٢١ - ١٤٥١ م ) سفارة عام ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ لتهنئة السلطان الأشرف برسبای ( ٨٢٥ - ٨٤١ هـ / ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م ) بالرسالة ومعها هدية ، وقد رد السلطان على الهدية ، ولكن قدر لهذه الهدية أن تقع فى أيدي قراصنة البحر المتوسط من القبارصة ، ومع ذلك فإن هذا لم يمنع السلطان مراد الثانى من إرسال سفارة عثمانية أخرى إلى برسبای عام ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦ م ، وقد أقامت هذه السفارة فى القاهرة لحين مجيء ثالث حملات السلطان برسبای على قبرص عام ٨٣١ هـ / ١٤٢٧ م ، وهى الحملة التى نجحت فى غزو الجزيرة وأسر ملكها جانوس لوزجنان ، وهنته مراد الثانى بالفتح القبرصى ، الذى يسامى الفتح القدسى من قبل<sup>(٢)</sup> ويبدو أن أخبار هذا النصر الذى احرزته سلطنة المماليك أثار غيرة السلطان مراد الثانى العثمانى ، فبادر فى العام التالى ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ م ، بإرسال خمسين أسيراً أوروبياً للسلطان برسبای<sup>(٣)</sup> الذى رد على ذلك معبراً عن فرحته الشديدة بنصر الإسلام وجنود المسلمين .

وعندما استولى العثمانيون على قلعة سلاتيك فى ٥ رجب عام ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ م أرسل السلطان العثماني قاصده بدر الدين محمود بك برسالة إلى السلطان المملوكى يزف إليه بشائر النصر ويخبره أيضاً بانتصاره على حاكم المملكة الأرناؤطية المسمى إيوان بعد تظايره بعدم القدرة على دفع الجزية ، كما أرسل مراد الثانى رسوله هذا ليقدم مراسم التعزية فى وفاة شيخ المحمودى والتبشير بنصر العثمانيين وقد جهز معه بعض الهدايا<sup>(٤)</sup> .

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ١٢ - ١٣ ، عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٩٨ (٢) ٣٢٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣١٨ .

(٣) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

(٤) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

وفى عهد السلطان الظاهر جقمق ( ٨٤٢ - ٨٥٧ هـ / ١٤٢٨ - ١٤٥٣ م ) زادت مظاهر الصداقة والود بين الطرفين ، وتوطدت العلاقة بينهما ، فتبادل مراد الثانى وجقمق الهدايا والرسل فى المناسبات المختلفة ، فبعد أن اعتلى جقمق سلطنة عرش مصر ، أرسل إلى مراد الثانى رسالة فى نفس العام مصحوبة ببعض الهدايا والتحف ، مع قاصده استدمر الخاصكى<sup>(١)</sup> . ليخبر مراداً بأخبار مصر . ولكى يظهر نواياه، الطيبة مع العثمانيين أمر نواب السلطان العثمانى أحمد بك ، الذى كان حاكماً على سيواس وتوقات وآماسيا وغيرها ، ثم طلب من مراد الثانى فى نهاية رسالته أن يسهل عودة التاجر المملوكى خواجا زين الدين بكيسان بما عسى أن يكون صحبته من المالك الأجلاب<sup>(٢)</sup> .

وقد رد مراد الثانى بكتاب مصحوب ببعض الهدايا والتحف مع قاصده ولد بك لتهنئة جقمق بالجلوس على العرش ، ولتبشيره بفتح قلعة سمندرة ، وتخريب بلغراد وكوهين وطمشواز، وانتصاره على اليونانيين وقد امتلأت رسالة مراد الثانى بعبارات كلها تبجيل وإجلال مما يدل على مدى توثق عرى الصداقة والمحبة بينهما .

---

(١) الخاصكى : الخاصكية هم الذين يلزمون السلطان فى خلواته ، ويسرقون المحمل الشريف ، ويتعبنون بكوامل الكفال ، ويجهزون فى المهمات الشريفة ، ويتعبنون للإمرة ، والمقربون فى المملكة ، كان عددهم فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكياً ، ثم ازدادوا على ذلك حتى صاروا فى أيام الأشرف برسباى نحو ألف خاصكى ، ومنهم من هو صاحب وظيفة ، ومنهم من ليس له وظيفة .  
وأما فى الدولة العثمانية فإن كلمة خاصكى تطلق على هذه الطوائف الثلاث :

(١) الخاصكية من النساء .

(٢) والخاصكية طائفة من موظفى القصر تابعة لجماعة البستانجية كانوا يرسلون فى المهمات السرية إلى الولاة وغيرهم من كبار رجال الدولة وكانوا أيضاً حملة البريد من القصر ، ومنهم من يعرف باسم تبديل خاصكى ، يتجسسون مبدلين قياقتهم ، ويصاحبون السلطان إذا خرج للعس ، ومنهم ستون رجال يحافظون على السلطان إذا خرج فى موكبه للسفر .

(٣) كانت فى الجيش الاتكشارى أربع كتائب تعرف بالخاصكية وهى الكتائب الآتية الرابعة عشر والتاسعة والأربعون والسادسة والستون والسابعة والستون وكان من هؤلاء الخاصكية متخصصون فى تربية كلاب الصيد ، وكان أربعة منهم يصاحبون السلطان إذا خرج للصيد . ( انظر : أحمد السعيد سليمان ، تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرنى من الدخيل ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٨٤ - ٨٥ ) .

(٢) عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، المرجع السابق ، ص ٥٤ - ٥٥ .

ولما وقعت معركة فارنا ببلغاريا الحالية عام ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤ م ، إثر حصار هنيادي نائب رئيس ترانسلفانيا لبلغاريا ، وانضم إليه لادسلاس Ladislas ملك المجر لحصار فارنا ، وقد انتصر مراد الثاني على هذا التحالف ولقى لادسلاس ملك المجر مصرعه . وأسر الكثير من الصليبيين فأوفد مراد الثاني إلى جقمق بعض الأسرى ومنهم بعض الأمراء . واستمرت المراسلات وتبادل القصاد بين الطرفين <sup>(١)</sup>.

وكان لهذه العلاقة الوطيدة بين جقمق ومراد الثاني أثرها في استمرار صفائها في محمد بن مراد ( محمد الفاتح ) ( ٨٥٥ - ٨٨٦ هـ / ١٤٥١ - ١٤٨١ م ) وتأكيداً لهذه العلاقة والمودة ، أنه لما علم جقمق أن السلطان محمد الثاني أرسل جنده لتأديب بعض حكام شرق الأناضول الذين يقطعون طرق التجارة وينهبون الأموال ويستبيحون قتل الأنفس ، أرسل له عام ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ رسالة شكر على ما قام به خدمة للمسلمين <sup>(٢)</sup>.

وفي عهد برسباي ( ٨٢٥ - ٨٤١ هـ / ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م ) ازدادت أواصر الصداقة والمودة بين الأشراف برسباي وبين مراد الثاني ( ٨٢٤ - ٨٥٤ هـ / ١٤٢١ - ١٤٥١ م ) ، وقد أظهر برسباي مع وفد عثمانى قدم إليه في طريق الحج مودة ، وعامل أفرادهم معاملة طيبة . ولما ظهر خطر شاه رخ الخصم العنيد للمماليك والعثمانيين معا ، أعاد إلى الأذهان صورة أسر بايزيد الأول السابقة من تيمورلنك ، لذلك أسرع مراد بإرسال بعثة سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م إلى القاهرة لتهنئة برسباي بالسلطنة ومعها هدية .

واغتبط برسباي بمقدم البعثة وبما أحضره معها من هدايا ثمينة . ثم رد برسباي على هذه الهدية بما يناسب مقام السلطنة العثمانية ، وليؤكد المودة بين الجانبين ، ولكن قدرة لهذه الهدية أن تقع في أيدي قراصنة قبرص في البحر المتوسط . وكان رد الفعل من جانب برسباي إلى أنه أرسل عدة حملات للقضاء على القراصنة القبارصة ، ونجح في ذلك وأسر ملك الجزيرة جانوس لوزجنان وأقام احتفالاً بذلك ، وقد صادف هذا الاحتفال وجود بعثة عثمانية شهد أعضاؤها الاحتفالات المقامة ، ولما عادت البعثة العثمانية ، أعادت ذكر الاحتفال والاستقبال أمام

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ،

ص ٢٧ ، ٢٨ ، يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، استانبول ١٩٨٩ م ، ص ١٢٧ .

(٢) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

سلطانهم الذى أثارتها الغيرة ، ودفعته إلى القيام بحملة ضد إينال ، وزحف على بلاده فاستولى على طرسون وأدرنة وكولك ، وما أن سمع السلطان بهذه الأخبار ، عين على الفور تجريدة إلى ابن قرمان وقد استطاعت هذه القوات إعادة النظام والأمن إلى هذه المنطقة ، واستعادة البلاد التى انتزعها بن قرمان .

أما موقف السلطان محمد الفاتح ، فقد أرسل فى جمادى الأولى عام ٨٦٠ هـ / ١٤٥٦ م سفارة عثمانية ثانية برسالة تنبئ بانتصار قواته على الصرب فى وقعة نوفو بردا وغيرها من الوقعات الدامية ببلاد يوغسلافيا الحالية . وأرسل هدية للتأكيد على علاقات المودة بينهما<sup>(١)</sup>.

ولما تولى السلطان قانصوه الغورى بعد قايتباى سعى إلى أن يصلح الأمور أكثر مع بايزيد الثانى ، فأعلن فى رسالة أن سلفه قايتباى " انعوج على المصادقة إلا أنه على عكسه يسعى إليها ، ويعترف بمواقف بايزيد فى الجهاد ، ويصفه بالسلطان الغازى . وتبدو حيلة الغورى فى أنه رفض مجيء ابن بايزيد الثانى قرقورد ، إلى مصر فى طريقه إلى الحج ، إلا إذا أذن له والده بذلك ، الذى كان قد وصل إلى القاهرة برسالة<sup>(٢)</sup> أو التماس إلى أبيه يستأذنه فى ذلك ، مع بعض علماء الأزهر الشريف ، بحيث أن بايزيد الثانى أرسل رسالة للغورى شكره على ذلك ، ويلقبه فيها بالأخ ، مما يدل على أن العلاقات الودية قد عادت بين المماليك والعثمانيين بعد التوتر السابق<sup>(٣)</sup> .

من الطبيعى أن تتأزم العلاقات بين السلطنة المملوكية والإمبراطورية العثمانية ، بسبب متاخمة أراضيها ، وسبب صراعهما على النفوذ ، خاصة وأن السلطنة المملوكية كانت فى مرحلة الانحطاط ، بينما كانت الإمبراطورية العثمانية فى طريقها إلى الأوج ، وتطمع بزعامة العالم ، بشأن الدول الإسلامية الكبرى ، وقد وجدت عدة مناسبات للاحتكاك ، ثم الاصطدام بين المماليك والعثمانيين ، فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، ومطلع القرن السادس عشر.

(١) عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٢) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٧-٣٣١ .

(٣) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٣٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣١ .

## (١) الصراع على النفوذ فى منطقة ألبستان :

تركز الصراع على النفوذ بين المماليك والعثمانيين فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر فى منطقة ألبستان Albistan على الفرات الأعلى بين مرعش وملطية ، وسميت المنطقة بذلك نسبة لمدينة تحمل الاسم نفسه . وقد احتلها الصليبيون ثم الدانشمائد المتمركزون فى سيواس ، ثم سلاجقة الروم المتمركزون فى قونية بين ٧٣٨ - ٧٤٠ هـ / ١٣٣٧ - ١٣٣٩ م ، أصبحت البستان عاصمة إمارة ذى القدر ، وهى سلالة تركمانية حكمت حتى عام ٩٢٨ هـ / ١٥٢٢ م . وقد استولى تيمورلنك على هذه الإمارة فى عام ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م . كما أن السلطان محمد لأول تزوج من ابنة أميرها (١) .

وفى عهد حاكم ألبستان ، ملك أرسلان ( ٨٥٨ - ٨٧٧ هـ / ١٤٥٤ - ١٤٦٥ م ) تهددت هذه الإمارة من قبل أوزون حسن ( حسن الطويل ) حاكم إمارة الشاه الأبيض . وفى سنة ٨٧٠ هـ / ١٤٦٥ م اغتيل ملك أرسلان بتأمر أخيه شاه بداق ، الذى كان يؤيده السلطان المملوكى خشقدم ، والذى احتل مكانه ، بمساعدة السلطان العثمانى محمد الثانى ، وحين قوى شاه سوار رفض حماية العثمانيين له ، مما مكن المماليك من مهاجمته وقتله فى عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ وأعيد شاه بداق إلى الحكم . ولكن العثمانيين أيدوا أخًا آخر لشاه بداق يدعى علاء الدولة ، الذى تزوجت ابنته من السلطان العثمانى بايزيد الثانى ، وانجبت له سليماً الذى أصبح فيما بعد السلطان سليم الأول ، وفى عام ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م . استطاع علاء الدولة أن يطرد شاه من الحكم (٢) .

ووضع ذلك من أعمال هؤلاء الأخوة الحاكمين ، الواحد تلو الآخر ، النزعة القبلية التركمانية التى سادت هذه الإمارة والتى وجدت مشجعاً لها ، فى موقع الإمارة الاستراتيجية ، بين المماليك والعثمانيين ، الذى تمثل صراعهم على النفوذ فى المنطقة فى دعم أمير ضد آخر . ونتج عن ذلك ليس تأزم العلاقات بين أفراد الأسرة الحاكمة فى ألبستان فحسب ، بل اضطراب العلاقات بين المماليك والعثمانيين . كما أن توتر الوضع بين هاتين القوتين ، لأسباب أخرى ، كثيراً ما انعكس على العلاقات بين الأخوة فى الأسرة الحاكمة فى هذه الإمارة (٣) .

(١) عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت على مصر ، دمشق ، ١٩٦٨ ، ص ٤٥ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٣) نفسه ، ص ٤٥ .

وقد بدأوا أول صدام مسلح بين المماليك والعثمانيين باعتداء قام به علاء الدولة أمير ذو القادر ، ومعه بعض الفرق من جنود العثمانيين عام ٨٨٩ هـ / ١٤٨٣ م على الحدود المملوكية ، فتصدى له قمرآز الشمسى للمعتدين واستطاع أن ينزل هزيمة فادحة ، وأسر جنداً من قوات العثمانيين وعلى الرغم من انتصار المماليك ، فقد أثر قايتباى حقن الدماء وأرسل قاصده أمير آخور<sup>(١)</sup> الثانى جانى بك حبيب عام ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م ليعقد الصلح مع العثمانيين ، ويقدم للسلطان العثمانى تقليد الخليفة العباسى ، بأن يكون بايزيد سلطاناً على بلاد الدولة العثمانية وما سيفتحه من البلاد الكفرية .

التقى القاصد بعد أن عبر الحدود المملوكية العثمانية بعلاء الدولة أمير ذو القادر . فاستوقفه الأمير المذكور ، وأرسل ما معه من رسائل وأخبار إلى الصدر الأعظم مع مصلح الدين بك لكى يعرضها على السلطان ، وحمله رسالة شخصية إلى الصدر الأعظم قال فيها :

" وعندما قدم إلينا عبدكم مصلح الدين ، جاءنا شخص من الشام يدعى خاير بك . وجاء قاصد الخليفة العباسى فى مصر حاملاً معه رسالة . أخذ عبدكم المشار إليه الرسائل وحمل الأخبار وتوجه إلى خدمتكم ليعرضها عليكم " (٢) .

---

(١) آخور : من الفارسية بمد الألف بمعنى المعلق أو المذود . ثم أطلقت على الأسطبل . وقد عرف صاحب هذه الوظيفة عند سلاجقة الروم ، باسمين أمير آخور وكنداصطبل .

وأمير الآخور عند المماليك هو الناظر فى أمور الاسطبلات والمناخات السلطانية ورئيس العاملين بها جميعاً ، وأهم هؤلاء العاملين هو المسئول عن الأعلاف والمسمى بالسلاخور .

وكان يعاون أمير الآخور موظف إدارى من المتعممين : أي من غير الجند ، يمسك بالسجلات ، وعدد من أمراء الآخور أدنى من أمير الآخور المبير درجة ، ولكل واحد منهم النظر فى أمر نوع من أنواع الحيوان : فأمير آخور للمهارى وأمير آخور للدشار ينظر فى أمور الإبل ، وأمير آخور للبقر كان يسمى أحياناً بأمير آخور السواقى ، ويرأس أمير الآخور طوائف أخرى من العاملين بالاسطبلات كالبيطرة والأوجاقية « أوجاق : من التركية " أوجاق بضم الهمزة ضمة مبسوطة مفخمة ومعناه الأول فى التركيبة الموقد والمدخنة ، ثم أطلق على كل ما تنفخ فيه نار فأطلق على البيت من وبر أو مدر ، ثم على أهله ثم على الجماعة تتلاقى فى مكان واحد ثم أطلق على الطائفة من طوائف أرباب الحرف ، وعلى الصنف من أصناف الجند ( انظر ، أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ١٩٤ » والفلمان والسواس والسقائين . وكان للبريد أمير آخور البريد يعنى بدواب حمل البريد . ( انظر ، أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ١١ ) .

(٢) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .

ويذكر أحمد فؤاد متولى<sup>(١)</sup> ويقول من المحتمل أن تكون الخيوط الأولى لخيانة خاير بك المشهورة فى تاريخ الممالك ، قد بدأت منذ ذلك الوقت الذى عبر فيه الحدود المملوكية العثمانية ، دون علم قايتباى ورغم وجود عداوة شديدة بين الدولتين ، واستمرت من بعد على شكل اتصالات مستمرة بين خاير بك وبين بايزيد الثانى وابنه سليم من بعده<sup>(٢)</sup> ونميل إلى الأخذ بهذا الاحتمال ، لأن الأحداث اللاحقة تؤيد ذلك .

ولم يذكر أحد المعارضين للفترة من مؤرخى العرب والعثمانيين شيئاً عن توجه خاير بك إلى العثمانيين فى هذه الفترة . وليس هناك مجال للشك فى أن هذه أول مرة يعبر فيها خاير بك الحدود المشتركة لكى يلاقى العثمانيين<sup>(٣)</sup> .

لم يستجب بايزيد الثانى لنداء الصلح ، وقام بالاعتداء على حدود الممالك المجاورة ، فإن قايتباى أرسل قائده أزيك بن طخطخ نحوهم ، وأوقف تقدمهم واسترد المدن المستولى عليها ، وتكريماً لهذا القائد ، أنشأ قايتباى مسجد عرف بمسجد الأزيكية ، حيث بقيت تسمية الأزيكية إلى وقتنا هذا ، على الرغم من زوال المسجد ، ولكن العثمانيين استمروا فى موقفهم العدائى ، وأرسلوا جيشاً كبيراً بقيادة على باشا ، الذى توغل مرة أخرى فى أطناء وطرشوس مما دعا قايتباى إلى أن يرسل أزيك من جديد ، الذى تمكن أن يهزم على باشا هزيمة منكرة<sup>(٤)</sup> .

ولما لم يكن قايتباى حينذاك فى وئام تام مع أمراءه الممالك ، فإنه أقام السلام مع العثمانيين بقصد وقف العداء بينه وبينهم حقناً لدماء المسلمين ، وقد استعان على ذلك بوساطة باى تونس المسمى عثمان الذى أرسل زين الدين أحد فقهاء المشهورين للتوسط بين بايزيد وقايتباى ، ومع لباقة الفقيه التونسى ، فإن الوساطة لم تنجح ، مما جعل قايتباى يتنازل للعثمانيين على أطناء وطرشوس ، وكان هذا أول وهن للممالك أمام العثمانيين<sup>(٥)</sup> .

## (٢) لجوء بعض الأمراء العثمانيين إلى الممالك :

فى عام ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م لجأ إلى القاهرة الأمير سليمان العثمانى واخته فاطمة شهر زادة فراراً من السلطان مراد الثانى ، فأنزلهما السلطان برسباى القصور السلطانية برسباى القصور

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(٢) نفسه ، ص ٣٥ .

(٣) نفسه ، ص ٣٦ .

(٤) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٠ .

(٥) نفسه ص ٣٣٠ .

السلطانية وأحسن وفادتهما ، ورفض طلب السلطان مراد الثانى إعادتهما إليه ، وذلك خشية أن يقتل الأمير سليمان خوفاً على عرشه ، على جارى عادة السلاطين العثمانيين فى قتل إخوانهم وأقاربهم ، فساءت العلاقات بين الطرفين . وقد التحق سليمان بحاشية يوسف بن برسباى ، وانضمت فاطمة إلى حريم القصر . وفى عام ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م تزوج برسباى فاطمة شهر زادة <sup>(١)</sup> . ولما فشل مراد فى استردادها من برسباى دبر محاولة لإغراء العبد الذى هرب بهما إلى القاهرة لكى يحضرهما إلى استانبول ، ولكن المحاولة باءت بالفشل . لذلك ساءت العلاقة بين الطرفين مؤقتاً <sup>(٢)</sup> .

أما الحدث الثانى فهو الحادثة المعروفة بثورة الأمير جم وهو ابن السلطان العثمانى محمد الثانى ( ٨٥٥ - ٨٨٦هـ / ١٤٥١ - ١٤٨١م ) وقد عيّن حاكماً على صنجق <sup>(٣)</sup> قسطنطينى (فى شمال الأناضول ) ثم ذهب إلى أدرنة لحمايتها ، حين كان السلطان محمد الثانى منهمكاً فى القتال ضد أوزون حسن . وحين انقطعت لفترة ، أخبار محمد الثانى عن جم أقنعه مستشاروه فى عام ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م بالبيعة له مكان أبيه ، وعندما عاد محمد الثانى قتل مستشارى جم . ويدل هذا الحادث على أن جم كانت تحبته نفسه بالسلطنة ، متجاوزاً بذلك أسبقية أخيه الأكبر بيازيد الثانى ، ويبدو وبالفعل استمر جم يعمل فى هذا الاتجاه . وقد عين فى عام ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م حاكماً على ولاية كرمان . وكان قرمانى محمد باشا الصدر الأعظم ( ٨٨١ - ٨٨٦هـ / ١٤٧٦ - ١٤٨١م ) مقرباً إلى جم ، فى حين أن بيازيد الثانى كان يعارض سياسة قرمانى ، وخاصة إجراءاته المالية <sup>(٤)</sup> .

(١) عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ص ٣٣٠ .

(٢) سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

(٣) صنجق : من التركية سنجاق وهى العلم والقسم من ولاية كبيرة ، والحاكم على قسم من ولاية ، وقد تكون الصنجقية أيضاً مجرد رتبة ، وصنجق طبل خانة يجمع بين مصطلحين ، مصطلح عثمانى ، ومصطلح مملوكى . فبعض الأمراء فى دولة المماليك ، كانوا أمراء طبلخانة ، أى يكسبهم مقامهم أن تدق لهم الطبول وغيرها من الآلات الموسيقية ، التى تتكون منها طبلخانة السلطان ، ولم يكن عدد الصناجق دائماً أربعة وعشرين ، وقد احتفظت حكومة الدولة لنفسها بتعيين صناجق الثغور الثلاثة المهمة الأسكندرية ودمياط والسويس وكذلك كتحذاء الوزير أو الباشا .

أما التعيين للصنجقيات الباقية ، فكان يحدث فى مصر نفسها لقوة المتنافسين عليها . فكان الرجل ذو النفوذ يسعى لأن يجعل الصناجق أو مماليكه وهكذا ( انظر ، محمد شفيق غريال ، مصر عند مفترق الطرق ، رسالة حسين أفندى الروزنامجى ، ص ١٤ ) .

(٤) يليماز أوزتونا ، المرجع السابق ، ص ١٨٥ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٧ .

وعندما توفي السلطان محمد الثانى عام ٨٨٦هـ / ١٤٨١م ، تجمع أعداء الصدر الأعظم ، قرمانى محمد باشا فقتلوه ، وجعلوا بيازيد الثانى سلطاناً فى استانبول . ولكن جم توجه إلى بروسه ، وأعلنت له الخطبة فيها ، وضربت النقود بأسمه كسلطان . وقد رفض بيازيد اقتراح جم باقتسام السلطنة وهزم جم فى موقعة ينى شهر فى عام ٨٨٦هـ / ١٤٨١م ، وهرب جم إلى قونية ومنها إلى طرسوس التى كانت تحت نفوذ المماليك . والتجأ جم فى السنة نفسها إلى حلب فدمشق التى دخلها فى ٢٢ جمادى الأول عام ٨٨٦هـ / ١٩ يوليو ١٤٨١م ثم سافر فى ٣ رجب / ٢٨ أغسطس متوجهاً إلى مصر حيث رحب به السلطان المملوكى قايتباى ، وقد حج جم فى تلك السنة ليعرف المسلمين ، كما يبدو يعمل لقضيته<sup>(١)</sup> وقد أخطأ قايتباى بموافقة أمراء المماليك فى مصر فى تشجيع العنصر الضعيف وهو جم ضد بيازيد الذى نجح فى تولى السلطنة بفضل الانكشارية<sup>(٢)</sup> وكبار رجال الدولة العثمانية على أساس تقدير قايتباى أن يد يد المعونة إلى جم فى مصلحة دولة المماليك<sup>(٣)</sup>.

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٤٤٣ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٧ ؛ ابراهيم بك حليم ، تاريخ الدولة العثمانية المعروف بكتاب التحفة الخليمية فى تاريخ الدولة العلية ، ص ٧١ ؛ يليماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٨٦ .

(٢) انكشارى : تركية من الكلمتين - يكى yeni بالنون الخيوشمية جديد (٢) جرى cery بالجيم المشوبة بمعنى العسكر ، يكيجرى = العسكر الجديد ، ترد فى الجبرتى بصيغة الينكجربة .

جيش من المشاة ، أنشئ فى عهد أورخان (٧٢٦هـ / ١٣٢٥م) كانت نواته من أهل الفتوة فى الأناضول ، ثم اعتمد على أبناء نصارى البلقان بعد تتركهم وتنشئتهم على الإسلام ، كان جنوده عزابا ، ثم سمح لهم فى عهد السلطان الأول بالزواج بشرط كبر السن ، ثم أطلق حق الزواج ، جرى هذا الجيش على سنة أرباب الحرف فى اختيار شيخ patron لكل طائفة ، وكان شيخه هو الصوفى التركى الجاج بكتاش ولى .

كان لهم عدا المشاركة فى الحروب وظائف داخلية منها حراسة الديوان الهمايونى فى أثناء الاجتماعات ، والمحافظة على الأمن فى استانبول .

خسر معظم المعارك التى خاضها طوال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، واستعصى مع ذلك كل محاولات الإصلاح ، ورفض التدريب على فنون القتال الحديثة ، وقد استطاع السلطان محمود الثانى أن يدمره هو والطريقة البكتاشية ( فى الواقعة الخيرية سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٨م ) ( انظر ، أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٣) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٩ .

ترك الأمير جم مصر أمه ووالده ، وسار باتجاه بلاد الشام ، بعد أن ساعده السلطان قايتباى بالعتاد ضد بيازيد الثانى ، وفى ٧ ربيع الأول عام ٨٨٧ هـ / ٢٦ أبريل ١٤٨٢م خرج الأمير جم من دمشق متجهًا نحو حلب . ثم تابع سيره باتجاه الأناضول وانضم إليه أنصاره ، حيث هزم مرة أخرى ضد بيازيد فى موقعة بنى شهر فى ٢٣ جمادى الأولى / ٢ يوليوس<sup>(١)</sup> ، وكان دعم السلطان قايتباى للأمير جم سببًا هامًا فى تأزم العلاقات المملوكية العثمانية ، التى انتهت بعد توتر دام ثلاث سنوات زال فى نهايتها خطر الأمير ، باصطدامات مسلحة بين الطرفين .

طلب بيازيد الثانى من أخيه جم الاستقرار فى القدس ، بعد تقديم ما يحتاجه من مال ، إلا أن جم عقد اتفاقًا مع رئيس فرسان الاستبارية القديس يوحنا فى رودس ، ليساعده فى العبور إلى روميلية لمتابعة الثورة من هناك ضد بيازيد ، وقد اتصل رئيس الفرسان بالبابا إسكندر السادس طالبًا مساعدته لتأييد جم ، وذلك لإضعاف الدولة العثمانية . ولكن عقد السلطان بيازيد اتفاقًا مع رئيس الفرسان ، تنازل بيازيد بموجبه عن بعض الامتيازات لقاء احتجازهم فى رودس . وبالفعل خدع رئيس الفرسان جم بأن أعلنه بأنه سينقله بطريق فرنسا إلى هنغاريا لمتابعة الثورة منها ، ولكنه احتجزه مدة سبع سنوات بدءًا من عام ٨٧٧ هـ / ١٤٨٢م . وقد توسط السلطان قايتباى وملك هنغاريا لانتقاذ جم دون جدوى . ونقل جم فى عام ٨٩٤ هـ / ١٤٨٩م إلى روما ، وأرسل بيازيد وفدًا إلى البابا لاحترام الاتفاق الذى عقده مع رئيس الفرسان . وقد حاول أيضًا ملك فرنسا نقل جم إليه ، ليساوم عليه ، ولكن جم توفى فى نابلى فى عام ٩٠٠ هـ / ٢٥ فبراير ١٤٩٥م<sup>(٢)</sup> ويزعم أن دس له البابا السم خوفًا من أن يهاجم بيازيد الثانى فى إيطاليا<sup>(٣)</sup> فاحضر السلطان جنازته إلى بورصة ودفن فيها .

وهكذا نرى كيف أن المساعدة التى قدمها المماليك للأمير جم قد أفسدت العلاقة بينهم وبين العثمانيين<sup>(٤)</sup> . عندئذ قرر بيازيد الثانى الانتقام من قايتباى بالتحرش ببقايا الدولة

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٢٩ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ؛ إبراهيم بك حليم ، المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٣) كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٤٤٣ ؛ يليماز أوزتونا ، المرجع السابق ص ١٨٦ .

(٤) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .

التيمورية فى إيران ، التى كان قايتباى قد حالفها ، ربما استشعاراً لطموح العثمانيين حيث كانت الدولة التيمورية على عداوة لهؤلاء منذ غزو تيمورلنك (١).

وبعد موت بايزيد الثانى ، تجدد النزاع بين العثمانيين والمماليك ، وحدثت حوادث متشابهة بالتجاء أحد أمراء آل عثمان إلى مصر ، بسبب النزاع على الحكم ، فقد قام بيازيد الثانى ، قبل موته بأن وزع مملكته بين أولاده ، مما أغضب ابنه سليماً ، فتآمر سليم ضد والده معتمداً على الانكشارية ، على الخصوص وأجبره على التنازل عن السلطنة ، ودخل استنابول ، مما جعل والده يتركها إلى الكوفة بالعراق الذى توفى فيها عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م . ثم حارب سليم أخاه الأكبر أحمد الذى لحق بأبيه خوفاً منه ، ولم يسمع بأحمد بعد ذلك إذ يبدو أن سليماً قد قتل بيده معظم إخوته بما فيهم قرقورد ، وربما دس لأبيه السم ، كما يعتقد جمهور المؤرخين وهو ظن صائب بلاشك ، حتى عرف باسم ياووز Yuvuz أى الصارم أو الجبار البطاش (٢) .

ومع ذلك فقد تمكن أبناء أحمد لمقتول من الهروب ، فقد هرب مراد إلى فارس ، أما الذين هربوا إلى مصر وهم على التوالي : سليمان وعلاء الدين ، وقاسم ، وإن كان الغورى قد استقبلهم على مضض . وقد مات سليمان وعلاء الدين بالطاعون . فأرسل سليم يطلب من الغورى تسليم قاسم ، وكان أصغرهم ، لايتعدى الثلاث عشر سنة . فرفض الغورى طلبه ، بسبب أن الغورى كان يرى أن سليماً الذى أجتراً على ارتكاب كل هذه الجرائم ، لايتورع عن التحرش به ، خاصة وأن الأمور قد تأزمت بين الدولتين ، بسبب مدن الحدود ، أما سليم فقد وجد أن الغورى يتدخل فى شئون أسرته ، وعزم على حربه حرباً شاملة (٣) .

ومع ذلك فقد تأخر حرب سليم للمماليك ، بسبب حربه فى إيران ، التى اختصت بمذهب الإمامية الشيعى ، الذى يدعو إلى سلالة موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، من سلالة على بن

(١) كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٤٤٥ - ٤٤٦ ؛ أحمد بن زنبيل الرمال ، آخر المماليك ، واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى ، تحقيق : عبد المنعم عامر ، ص ١٨ - ١٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٩ .

(٢) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣١ .

(٣) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٣٢ .

أبى طالب ، فعرفت بالجعفرية أيضاً ، نسبة إلى جعفر الصادق وبخاصة الإثنى عشرية ، بسبب استكمال الأئمة إلى إثنى عشر حيث آخرهم هو محمد بن الحسن المعروف بصاحب السرداب ، بسبب أنه غاب فى سرداب مسجد سامراء فى أيام المعتصم العباسى وهو الذى أصبح مهديهم المنتظر<sup>(١)</sup> بالإضافة إلى ذلك أدت سوء العلاقات ، قد أضيف إليه عنصر ثالث ألا وهو الصراع فى إمارة البستان بصورة غير مباشرة إلى ازدياد تآزم العلاقات بين المماليك والعثمانيين<sup>(٢)</sup>.

### ٣ - قيام الإمارات التركمانية وأثر ذلك فى العلاقات بين المماليك والعثمانيين :

شهدت منطقة جنوب - شرق الأناضول - منذ معركة منزكرت فى عام ٤٦٩هـ / ١٠٧١م تجمع قبائل تركمانية تمكن بعضها أحياناً من تشكيل إمارات فيها ، مثل إمارة البستان ، أو دعم إمارات غازية ، مثل إمارة الدانشمند . وكان هذا الوضع ، بالإضافة إلى طبيعة المنطقة الهضبية المتوسطة ، الموقع بين سهول آسية وغربى الأناضول ، وروميلية ، البعيدة نسبياً من سيطرة مراكز المدن الكبرى ، ومشجعاً للتركمان على اللجوء إليها<sup>(٣)</sup> .

وفى منتصف القرن الرابع عشر ، شكلت القبائل التركمانية المتجمعة فى ديار بكر ، والمناطق المجاورة لها إمارتين ، عرفت إحداهما باسم آق قيونلو أى الشاه الأبيض ، التى نشأت أساساً فى آذربيجان أو منطقة الجبال ، موطن الإيرانيين الأوائل<sup>(٤)</sup> وكانت مناطق نفوذها ديار بكر ، وعرفت الأخرى باسم القراقيونلية أو الشاه الأسود ، وكانت مناطق نفوذها شمالى بحيرة وان Van وربما كانت التسمية نسبة لتربية الشاهين أو نسبة لتوئم خاص بهذه القبائل . وكانت هاتان الإماراتان عى نزاع مع بعضهما ، وزاد فى حدة ذلك أن إمارة الشاه الأبيض ، كانت سنية ، بينما كانت إمارة الشاه الأسود شيعية<sup>(٥)</sup> .

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٢ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٤) عبد المنعم ماجد ، طومان باى آخر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ١١٣ .

(٥) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

كان مؤسس إمارة الشاه الأبيض قرة بولاق حسن ، وقد تغلب على أمير إمارة الشاه الأسود قرة محمد خوالى عام ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م ، كما تغلب على برهان الدين حاكم سيواس العثماني خوالى عام ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م . وبمجيء تيمورلنك فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى ، وقف إلى جواره قرة بولاق عثمان ، واشترك معه فى معركة أنقرة عام ٨١٥هـ / ١٤٠٢م ، فكافأه تيمورلنك بإعطائه حكم منطقة ديار بكر . ولكن قره بولاق عثمان لم يستطع بعد موت تيمورلنك ، إثبات نفوذه ، فى وجه منافسيه ، أمراء الشاه الأسود ، وظل الأمر كذلك حتى وفاته فى عام ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م ، ثم تلت ذلك فترة من الصراع بين أبناء قرة بولاق عثمان إلى أن ظهر أوزن حسن ( ٨٧١ - ٨٨٢هـ / ١٤٦٦ - ١٤٧٨م ) ورفع من شأن إمارة الشاه الأبيض<sup>(١)</sup> .

انتصر أوزون حسن فى عام ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م على شاه جيهان ، آخر حكام الشاه الأسود ، وضم إمارته إليه ، فازدادت بذلك سلطته كثيراً وامتدت نفوذه على أرمينية الكبرى ، وشمالى العراق ، وجزء من فارس ، مما أوقعه فى نزاع مع العثمانيين ، وكان هؤلاء يحاولون آنذاك ، بعد أن توطدت فتوحاتهم فى البلقان ، الاستيلاء على مابقى من الإمارات المسلمة فى الأناضول ، مما اضطر أمراء كرمان المهددين أن يتفقوا مع جارهم فى الشرق أوزون حسن . وقد أخذ العثمانيون يخشون أوزون حسن ، لأنه كأمر تركمانى سنى باستطاعته تهديد سلطاتهم المدنية والدينية فى منطقة حدودهم الجنوبية الشرقية حيث يسكن كثير من التركمان ، كما خشوا احتمال اتفاهه مع المماليك ضدهم<sup>(٢)</sup> .

حدثت عدة اصطدامات بين جيش السلطان العثمانى محمد الثانى وجيش أوزون حسن فى عامى ٨٧٧ ، ٨٧٨هـ / ١٤٧٢ ، ١٤٧٣م ، وقد هزم العثمانيون فى موقعة قرب الفرات جيش أوزون حسن عام ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م . وكانت البنادق التى استخدمها الجيش العثمانى حاسمة فى القتال ضد فرسان أوزون حسن ، وفى هذا درس بليغ للمماليك . ولم يتابع السلطان العثمانى هجومه على إمارة أوزون حسن ، فسلمت ولكن هزيمة أوزون حسن كانت ضربة معنوية له ، جعلته يطلب النجدة من الدول الأوروبية وخاصة البندقية ، التى كانت تحاول

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٢) نفسه ، ص ٥٠ .

الإبقاء على نفوذها في شرقي البحر المتوسط . ولكن السؤال لماذا يطلب النجدة من هذه الدول وليس من المماليك ؟ كان أوزون حسن بالنظر إلى موقع إمارته وإلى توسع سلطته ، يعتبر خطر بالنسبة للمماليك والعثمانيين ، على حد سواء ، وقد حاول أوزون حسن في البدء كسب مودة المماليك ، ليتمكن من استخدام أراضيهم للوصول إلى ساحل البحر المتوسط والحصول على المعونة من الأوروبيين . ولم يكن المماليك آنذاك بحاجة إلى التحالف مع هذا الأمير الطموح لأنهم لم يكونوا واثقين من قدرته على البقاء في الحكم ، ولأن ذلك سيدخلهم في نزاع مع العثمانيين ، الذين كانت علاقاتهم بالمماليك طيبة آنذاك ، قبل أن تسوء بثورة جم . وفي محاولته الوصول إلى ساحل البحر المتوسط ، احتل أوزون حسن في عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧١ م ، حصن جرجر على الفرات ، جنوبي شرقي ملطية من أيدي الأمراء الأكراد ، الخاضعين للمماليك ، فرد هؤلاء باحتلال مدينة البيرة منه . وقد حاول المندوب العثماني لدى المماليك أثارته ضد أوزون حسن ، ولكن المماليك لم يشنوا عليه حرباً كبيرة ، ربما ليبقوه شوكة في جنب العثمانيين<sup>(١)</sup>.

نشبت صراع داخلي في أسرة أوزون حسن ، إثر هزيمة في عام ٨٧٨ هـ / أغسطس ١٤٧٣ م . ولم تشجع هذه الهزيمة الدول الأوروبية وخاصة البندقية على مساعدته ، فعقدت هذه الأخيرة الصلح مع الدولة العثمانية في عام ٨٨٣ هـ / ١٤٧٨ م ، وقد توفي أوزون حسن في تبريز في رمضان عام ٨٨٢ هـ / يناير ١٤٧٨ م . فخلفه ابنه يعقوب الذي حكم حتى عام ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠ م ، دون حدوث أزمات كبرى في عهده . وقد حاول التقرب من المماليك ، ولم يهدد ممتلكات العثمانيين الذين شغلوا في عهده بثورة جم ، وبالصراع مع المماليك على النفوذ في إمارة ألبستان<sup>(٢)</sup> .

وبدأ الصراع يدب بين أبناء يعقوب ، بعد وفاته ، واستغل ذلك الصفويون الذين بدأوا بتقويض حكم إمارة الشاه الأبيض السنية ، بواسطة دعاياتهم الشيعية بين قبائل التركمان وفي عام ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م تغلب الشاه إسماعيل الصفوي على إمارة الشاه الأبيض في معركة شرور ، فانتقل مركز حكم الإمارة إلى ماردين ، وساعدت فيما بعد العثمانيين ضد الصفويين ، وقتل آخر أمرائها في حوالي ٩٠٩ هـ / ١٥٠٣ م<sup>(٣)</sup>.

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٢) نفسه ، ص ٥١ .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

إن قيام إمارتى الشاه الأبيض والشاه الأسود فى جنوبى شرقى الأناضول ، جذب إلى هذه المنطقة كثيراً من القبائل التركمانية التى قد انتقلت فى العهد السلجوقى إلى غربى الأناضول. وزاد فى اتجاه هذه القبائل من غربى الأناضول نحو الشرق استتباب الحكم العثمانى فى الغرب بالتدريج وكره القبائل ، تبعاً لذلك ، ازدياد وطأة السلطة المركزية . وهكذا إن الفترة التى شهدت انهيار سلطة الشاه الأبيض ، شهدت أيضاً تكاثر التركمان فى شرقى الأناضول . وقد التقت غالبية هذه القبائل بالإضافة إلى القبائل المنشقة من إمارة الشاه الأبيض ، حول قوة جديدة بدأت تظهر فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، فى المنطقة الممتدة بين شرقى الأناضول وشمالى فارس ، وهى قوة الصفويين التى ملأت بالتدريج الفراغ السياسى الذى بدأ يشمل هذه المنطقة<sup>(١)</sup> .

وينتسب الصفويون إلى الشيخ صفى الدين اسحق ( ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤م ) الذى أسس طريقة صوفية فى أردبيل فى أذربيجان فى أواخر القرن الثالث عشر . وحين مر تيمورلنك بأردبيل ، إثر عودته من الأناضول طلب منه الشيخ على حفيد صفى الدين أن يطلق أسرى الروم ( العثمانيين ) ففعل وألحقهم بخدمته . كما أغدق تيمور على الصفويين الامتيازات والنعم .

وفى الفترة بين ٨٥٢ و ٨٦١ هـ / ١٤٤٨ ، ١٤٥٦ م طرد الشيخ جنيد ، حفيد على من أردبيل ، فاتصل بأوزون حسن ، وأقام عنده ثلاث سنوات ( ٨٦١ - ٨٦٣ هـ / ١٤٥٦ - ١٤٥٩م ) وتزوج من أخته . كما أن الشيخ جنيد أقام مع السلطان العثمانى . وفى عهد الشيخ حيدر ، ابن الشيخ جنيد ، ازدادت أتباعهما وبسبب ازدياد قوتها عسكرياً ، فظلوا لما التف من حولها من تركمان ، وقد اتصل الشيخ حيدر ، كما فعل والده من قبله ، بأوزون حسن ، وتزوج ابنته ، ولكنه قتل ، كما قتل والده من قبله ، فى حربه مع حاكم شروان ، شمالى أذربيجان فى عام ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨م . وبعد أن تنبه الصفويون إلى إمكانية التوسع فى غربى أردبيل ، أى فى شرقى الأناضول وشمالى فارس ، أتاح لهم ضعف إمارة الشاه الأبيض إثر وفاة أوزون حسن الفرصة لتأسيس دولتهم فى هذه المنطقة<sup>(٢)</sup> .

يعتبر الشاه إسماعيل بن حيدر ، وهو سادس شخص ينحدر من صفى الدين ، المؤسس الفعلى للدولة الصفوية . وقد توصل إلى زعامة الصفويين فى عام ٩٠٧ هـ / ١٥٠١م متخذاً

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٢ - ٥٣ .

تبريز عاصمة لهم ، كما ضم أجزاء من الأناضول المجاورة للدولة العثمانية ، وحتى أجزاء من بقايا الدولة التيمورية ، التي قامت في بلاد ماوراء النهر ، وهزم قبائل السنية التي استقرت مكانها . وأكثر من ذلك أن الشاه إسماعيل الصفوى ضم أجزاء كثيرة من بلاد العرب مثل بلاد الجزيرة والعراق حتى أصبح يعرف بملك العراقين<sup>(١)</sup> إثر صراع على السلطة مع أخوته وسجل في العام التالي نصراً عسكرياً على إمارة الشاه الأبيض ، مما أخاف الماليك ، فأخذوا يستعدون لقتاله . ويذكر أن إسماعيل الصفوى قد اعتمد على سبع قبائل تركمانية أسس منها جيشاً بلغ عدد أفرادها سبعة آلاف دعوا بالقزلباش<sup>(٢)</sup> . وفي عام ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢م احتل إسماعيل شروان وأذربيجان ، وقسمًا كبيراً من العراق ، واتخذ لقب شاه أى ملك وبذلك أصبح الحاكم الصفوى يتمتع بسلطة سياسية بالإضافة إلى السلطة الدينية فهو كحاكم سياسى كان يلقب شاها ، وكزعيم روحى فى النظام الصوفى الشيعى كان يلقب بالمرشد الأكبر<sup>(٣)</sup> .

(١) عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١١٤ .

(٢) القزلباش : اسم أطلقه العثمانيون على تسع قبائل من التركمان كانت تلبس قلاتس حمراء على الرؤوس . وهى روما ووشاما وواستاجلوا وبه لو وذو القادر وأفشار وقاجار وورساق وصوفية قرا باغ . والكلمة عبارة عن لفظين تركين الأول قزل ( ومعناه أحمر اللون والثانى (باش) ومعناه رأس ومعنى الاصطلاح (أصحاب الرؤوس الحمراء) .

استطاع الشيخ صفى الدين الأربيلى وأولاده من بعده - بزعامتهم لجماعة المتصوفة والدرائش - جذب الكثير من المريدين ليس فى إيران فحسب بل فى الولايات العثمانية من آسيا الصغرى والشام والعراق العربى بتأثير دعاياتهم القوية . وكان التصوف قد بدأ يشق طريقه إلى المجتمع الإيرانى فى ذلك الوقت .

وقد تحولت فرقة الدرايش التى يتزعمها الشيخ صفى الدين إلى مركز مذهبى لبث الدعوة الشيعية . وكان لممارسة شيوخ الأسرة الصفوية للناحيتين الدينية والعسكرية معاً الأثر الكبير فى إبراز قدرتهم ونفوذهم . وقد مهد لشيخ صفى الدين وأبناء جنيد المناخ لخليفته إسماعيل الصفوى الذى أعلن قيام الدولة مستفيداً من مركزه الروحى والمعنوى ومستخدماً أفراد القزلباش الذين لا يهدفون إلى شىء سوى التضحية فى سبيل نصرته شيخهم ومرشدهم الكامل . ولا يستطيع دارس للعصر الصفوى أن يتجاهل دور هذه القبائل فى إيجاد الكيان الصفوى .

وتطلق الوثائق العثمانية والعربية التى كتبها العثمانيون والماليك فى القرن العاشر الهجرى ( السادس عشر الميلادى ) على إسماعيل الصفوى لقب الصوفى وعلى القزلباش لقب الصفوية ، وتصفهم بصفات مختلفة ، منها ( الصفوية الملاحدة ) ( القزلباش ) والطائفة المخذولة الأويش و ( الأويش القزلباش الملاحين ) و ( طائفة الملاحدة الملاحين ) دمرها الله . ( انظر : أحمد فزاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٤٣ ) .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ٥٣ ، يليماز أوزتونا ، المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

قاد الشاه إسماعيل الصفوى الأول فى عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م حملة كبيرة ضد علاء الدولة حاكم ألبستان وتغلب عليه . وبذلك وصل الصفويون إلى جانب المماليك والعثمانيين ، ميدان الصراع على النفوذ فى منطقة ألبستان ، وحلوا فى هذا المكان مكان إمارة الشاه الأبيض . وعلى غرار أوزون حسن ، حاكم هذه الإمارة السابق ، حاول الشاه الاتصال بالفرنجة فى محاولة لإيجاد حلفاء . وقد توسعت ممتلكات الشاه إسماعيل فى عام ٩١٤هـ / ١٥٠٨م ، فأصبحت تمتد من هراة فى الشرق إلى بغداد وديار بكر فى الغرب ، وجعل مركز حكمه مدينة تبريز ، كما جعل المذهب الشيعى مذهب الدولة الرسمى ، وأخذ ينشره خارج حدوده ، مما أثار جيرانه السنيين . خانات بخارى والسلاطين العثمانيين . أما المماليك وهم سنيون أيضاً ، فكانوا بسبب ضعفهم ، ومنافسة العثمانيين لهم ، يحاولون التفاهم مع الصفويين<sup>(١)</sup> .

تغلب الشاه إسماعيل على شيبانى حاكم تركستان فى معركة قرب مرو فى عام ٩١٦هـ / ١٥١٠م ، وأمن بذلك لفترة ، حدود فى الشرق ، ولكن نزاعه مع العثمانيين لم يكن يمثل تلك السهولة فالصفويين كقوة ناشئة ، كانوا يعتبرون بالنسبة للعثمانيين ، خطراً جديداً بتهديدهم وزاد فى الأمر أن الصفويين ، كشبيعة متحمسين أثاروا نقمة العثمانيين<sup>(٢)</sup> . فقد كان يسكن مقاطعات الأناضول الشرقية ، الواقعة ضمن الدولة العثمانية كثير من القبائل تتجاوب مع دعوة الشاه الشيعية ، لأنها اعتبرته تركمانياً مثلها ، وقامت فى عام ٩١٦هـ / ١٥١٠ - ١٥١١م حركة بين تركمان الأناضول بقيادة رجل يدعى شيطان قولى ( وتعنى عبد الشيطان ، وربما سمى بذلك من قبل أعدائه لشبهه ) الذى أعلن ولاءه للشاه إسماعيل ، والتفت من حوله جموع من التركمان ، مما اضطر العثمانيين إلى إرسال قوة قضت على حركته . وكانت هذه الحركة إنذاراً للعثمانيين بالخطر الذى يمثله الشاه إسماعيل بالنسبة لسكان الإمبراطورية العثمانية بالذات<sup>(٣)</sup> .

أدت العوامل السابقة إلى تأزم العلاقات بين الصفويين والعثمانيين ، وزاد فى ذلك وصول السلطان سليم الأول العثمانى إلى الحكم فى عام ٩١٨هـ / ١٥١٢م . فقد تعرض السلطان سليم فى أول عهده إلى ثورة عليه من قبل إخوته الطامعين فى الحكم ، والتجأ ابن أخيه أحمد

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٢) مرعى بن يوسف الحنبلى ، نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، ص ٥٤ .

(٣) كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٤٤٦ .

الثائر إلى الشاه إسماعيل الذى استغل وجوده لتأليب المعارضة على السلطان سليم . وبعد أن وطد سليم سلطته فى الحكم عام ٩١٩ هـ / ١٥١٣م التفت إلى مقارعة الشاه إسماعيل الذى بدأ بدوره يستعد للدفاع . وكان السلطان سليم قد عقد ، أو ربما اتفاق مع الدول الأوروبية ، لإقامة السلم على حدوده فى الغرب ، وذلك ليتفرغ لقتال الصفويين ، ونتج عن استعدادات العثمانيين والصفويين أن اشتبكت جيوشهما فى القتال فى موقعة جالديران قرب تبريز فى عام ٩٢٠ هـ / ٢٣ أغسطس عام ١٥١٤م وانتصرت قوات السلطان سليم على قوات الشاه إسماعيل . وقد أظهرت هذه الموقعة فعالية بنادق الرصاص والمدفعية التى استخدمها الانكشارية المشاة العثمانيون ، على نطاق واسع ضد قوى الصفويين المؤلفة بغالبيتها من التركمان الفرسان ، وتمكن العثمانيون من احتلال تبريز ، عاصمة الصفويين ، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء نهائياً على الصفويين أو على الشاه إسماعيل لأسباب كثيرة ، أهمها طبيعة بلاد فارس الجبلية ، وصعوبة المواصلات فيها ، وقصد الانكشارية فى جيش السلطان سليم ، وكثرة الغلاء والقحط فى المنطقة بسبب سياسة الأرض المحروقة التى اتبعها الشاه إسماعيل بعد انسحابه ، إذ أتلف كل ما يمكن أن يفيد منه العدو<sup>(١)</sup> وأيضاً بسبب ما ذكر من تعرض الممالك لقوافل المؤن العثمانية<sup>(٢)</sup> وقد احتل العثمانيون نتيجة معركة جالديران ، منطقة الموصل ، ولكن منطقتى بغداد والبصرة بقيتا فى هذه الأثناء فى أيدي الصفويين إلى أن ضمها السلطان سليمان القانونى فى الربع الثانى من القرن السادس عشر ، وقد حاول الشاه إسماعيل أثر هزيمته فى جالديران التحالف مع الدول الأوروبية ضد العثمانيين ، ولكن بعد المسافة ، وعدم وجود حدود مشتركة لم تجعل ذلك ممكناً<sup>(٣)</sup> .

أظهرت هزيمة جالديران ، بالنسبة للصفويين ، ضعف الأسس التى كان يقوم عليها جيشهم . فالشاه إسماعيل الصفوى كان يعتبر فى النظام الصوفى المرشد الكامل ، والمظهر الحى المتوارث للإله ، ودعى أتباعه من القزلباش المريدين . ولكن انكسار الشاه إسماعيل فى جالديران ، وهو أول انكسار له حطم أسطورة عدم غلبته . ورغم أن القزلباش ظلوا يعترفون ظاهرياً بهذه الأسطورة إلا أنهم لم يعودوا يقدمون عملياً طاعة عمياء للحاكم . ويتحطم

(١) مرعى الحنبلى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٥ - ٥٦ .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٥ - ٥٦ .

الرابطه الدينية بين إسماعيل وأتباعه ، تشجع هؤلاء على التمرد عليه . واحتاج الشاه بعد ذلك إلى مقدرة كبيرة لإخضاع جنوده لأوامره ، وعوضاً عن أن يأمر فيقطاع ، أصبح يبتهل إلى مشاعر أتباعه وولائهم بمخاطبتهم بتعبير شاهی سيفان أي الذين يحبون الشاه . وأخذ ولاء القزلباش يتحول من الشاه نحو القبيلة وزعيمها . وينعكس أثر هذا التبديل في الولاء وفي العلاقة بين الصوفيين ومرشدهم ، في انحطاط تعبير ( صوفى ) إذا ما قورن بتعبير ( قزلباش ) فتعبير صوفى فقد كثيراً من قيمته على مر الزمن ، حتى أنه أطلق في عام ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م على الكناسين خارج القصر الملكي<sup>(١)</sup> .

وبعد أن ضعف ولاء القبائل التركمانية ، نحو الشاه أخذ يحاول توطيد سلطته في وجه معارضتهم . وبدأت عملية التوطيد هذه بعد وفاة الشاه إسماعيل في عام ٩٣١هـ / ١٥٢٤م ، في عهد ابنه طهماسب الذى طرد أفراد القبائل المتمردة من الجيش . وبلغت هذه العملية أوجها في عهد الشاه إسماعيل عباس الأول ( ٩٩٦ - ١٠٣٩هـ / ١٥٨٧ - ١٦٢٩م ) الذى أنقص عدد جنود القبائل ، وأوجد إلى جانبهم جنوداً من نوع آخر مزودين بالأسلحة النارية ويدنون بالولاء للحكومة المركزية مثل الجنود الإنكشارية في الدولة العثمانية . وكان يؤتى بالقسم الأكبر من هؤلاء الجنود الجدد من جورجيا والقفقاس ويدربون في مدارس خاصة . واستعادت بذلك الدولة الصفوية كثيراً من هيبتها العسكرية ، وتوالت اصطدامها مع الدولة العثمانية<sup>(٢)</sup> .

### ثانياً : الفتح العثماني للشام ومصر :

وكان موقف المماليك من هذا الصراع بين العثمانيين والصفويين ، موقف المترقب الذى ينتظر دوره ، إذ تيقن المماليك من طموح العثمانيين إلى الفتح في الشرق الإسلامى أيضاً ، ولو لجأوا إلى محاربة المسلمين ، مثلما يحاربون الفرنجة ، خصوصاً وأن سليماً كان قد أرسل إلى السلطان قانصوه الغورى يتهدده أن تدخل في النزاع بينه وبين الشاه إسماعيل الصفوى<sup>(٣)</sup> .

(١) مرعى الحنبلى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٣) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٦ .

وعلى كل حال أدرك الغورى أن قصد سليم من تحركه إلى الشرق لم يكن محاربة الصفويين، بقدر محاربتهم هو، بدليل أن السلطان سليم لم يسر فى هزيمة الصفويين لنهايتها، وربما أيضاً بسبب أن بلاد الصفوى واسعة وجبلية أو حتى خوفاً من أن يهاجمه المماليك فى الوقت نفسه<sup>(١)</sup> ومع ذلك كان سليم فى وقت محاربتهم للصفوى يتحرش بالغورى، بحجة أنه ينحاز إلى جانب الشيعة ضده<sup>(٢)</sup> واعتبر ذلك تحدياً له. وفى الوقت نفسه الذى أرسل فيه سليم إلى الغورى رسالة يصفه فيه بالوالد<sup>(٣)</sup> وذلك على حسب التقليد الذى جرى عليه سلاطين العثمانيين فى مكاتباتهم لسلاطين مصر، ويطلب فيها سكرًا وحلوى<sup>(٤)</sup> حيث أسرع الغورى بإرسال مائة قنطار<sup>(٥)</sup> منها فى علب كبار، فإنه أخذ يهاجم الإمارات التركمانية الحليفة للغورى على الحدود، التى تقع بين العثمانيين والصفويين والمماليك، وتعتبر لهؤلاء منافذ للتجارة القادمة من الشرق<sup>(٦)</sup> وبعد انتصار سليم على الصفويين قضى على إمارة ذى القادر<sup>(٧)</sup> التى تقع فى وديان طوروس، حليفة الغورى، كما استولى على بعض مدن الحدود المصرية مثل مرعش التى كان نائب الغورى عليها، وهو علاء الدين الذى ساعد الشاه إسماعيل من قبل ضد سليم، وأصبحت حدود سليم ملاصقة لحدود مصر<sup>(٨)</sup>.

ويبدو أن إرادة قتال العثمانيين المماليك أصبحت أمراً مسلماً به لديهم، بسبب أن المماليك كانوا يسيطرون على الحرمين الشريفين، وأن العقليّة الإسلامية وقتذاك لا تقبل أن يكون صاحب سيادة وشرعية على المسلمين، إلا من كان يسيطر على الحرمين الشريفين. ولما كان

---

(١) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤٧١؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى، ص ٣٣٧؛ إبراهيم بك حليم، المرجع السابق، ص ٨٣.

(٢) أحمد بن زنبيل الرمال، المرجع السابق، ص ٨٣.

(٣) محمد بن إياس الحنفى، المرجع السابق، ج ٤، ص ٤٣٤.

(٤) نفسه، ج ٤، ص ٤٣٥.

(٥) قنطار: وحدة من وحدات الوزن، وكان حجمه يختلف تبعاً للزمان، كذلك المكان الذى يستخدم فيه عملية الوزن، وفى أواخر العصر المملوكى كان يتراوح وزن القنطار ما بين ٤٥، ٩٦ كيلو جرام، وفى سنة ١٦٦٥م وصل وزنه إلى ١٢٠ كيلو جرام. (انظر: سميرة فهمى، إمارة الحج فى مصر العثمانية، ص ١٢٠).

(٦) إبراهيم طرخان، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ١٧٧.

(٧) أحمد فؤاد متولى، المرجع السابق، ٣٤٢ - ٣٤٥.

٨ - عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى، ص ٣٣٨.

العثمانيون يريدون أن تكون لهم زعامة المسلمين دون الماليك : فإنهم لم يتهيبوا لهم هذه الزعامة إلا بالاستيلاء على أملاك الماليك في الحرمين الشريفين ، ومن قبل فإن سليماً قد أرسل إلى شريف مكة بركات هدايا منها مفتاح وطبلة للكعبة ، وذلك دون استئذان الغوري الذي غضب على شريف مكة<sup>(١)</sup> .

ويؤيد الطموح العثماني تلك الأقوال التي نقلت عن سليم ومن حوله<sup>(٢)</sup> قبل فتح مصر ، فقد وجه الصدر الأعظم العثماني ، هرسك زاده أحمد باشا ، أخبره بقوة الماليك عندما أسر . وحذره من ذلك كذلك وزد على لسان آخر في حاشية سليم قوله " ... إن ولاية الحرمين وقيام الخلافة ، سيؤولان إلى أسرة العثمانيين ، وحتى شيخ الإسلام زنبلي على أفندي<sup>(٣)</sup> قد إفتى بشرعية التحرك إلى مصر وشن حرب عليها ، فقال " الحرب ولقتال مع أهلها غزو وجهاد ... والمقتول على أيديهم شهيد ومجاهد " <sup>(٤)</sup> .

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ١٢٤ - ١٢٥ : عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي ، ص ٣٣٩ .

(٢) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٣) أفندي : من الكلمة اليونانية ( أفنديس ) المأخوذة من الكلمة اليونانية Avbents دخلت اللغة العثمانية الأناضولية في وقت مبكر . واستعملها العثمانيون في القرن الثالث عشر الميلادي ، في الحديث عن ملكة خاتون بنت جلال الدين الرومي بقول الأفلاكي ( أفندك يرمك قيرى ) أى بنت أفندينا أى سيدنا ، وكثير استعمالها بعد ذلك في العهد العثماني ، وقد استعمالها محمد الفاتح في فرمانه الموجه لأهل غلطة ، حيث قال جملة بمعنى أنا السيد العظيم ، واستعملها العثمانيون لقباً للرجل الذي يقرأ ويكتب ولقباً لبعض كبار الموظفين ، فقد كان يقال لرئيس الكتاب « رئيس أفندي » ولقاضي استانبول « استانبول أفنديسى » أى أفندي استانبول . وكانت لقباً للأمراء أولاد السلاطين ، وأطلقت على مشايخ الإسلام ، وكثيراً ما تقول ( العلا أبو السعود أفندي ، وكان العثمانيون يطلقونها على روساء الديانات الأخرى ، وكان الجيش العثماني يلقب الضباط بلقب أفندي حتى رتبة البكباشى ، فأما الملازمون والبوزباشية ( والأكية العلالية ) أى المتخرجون في الإلاى ، وهم الذين يقال لهم في مصر من تحت السلاح ، فقد كانوا لأميتهم يلقبون أغا لا بلقب أفندي وكانت المرأة تلقب بلقب أفندي . فيقال ( خانم أفندي ) وكان يقال لزوجة السلطان ( قادين أفندي ) وربما الحقت كلمة أفندي بكلمة بك . وكانت كلمة أفندي تطلق في العربية على الكاتب الموظف في الدولة ، وكان الروزنامجى في مصر هو رئيس الأفندية ( انظر ، أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ص ٢٠ ) .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٤٤ : أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ،

ص ٢٢ : عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٣٩ .

غادر قانصوه الغورى مصر ، باتجاه الشام ، فى ١٥ ربيع الثانى عام ٩٢٢ هـ / ١٨ مايو ١٥١٦م على رأس جيش كبير ضم حوالى خمسة آلاف من القرانصة<sup>(١)</sup> والأجلاّب وأولاد الناس ، عدا عن السيفية ، وعين طومان باى نائباً عنه<sup>(٢)</sup> واصطحب معه الخليفة العباسى المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن المستمسك بالله الذى كان مقيماً فى مصر يتحكم به سلاطينها ويستخدمون نفوذه الدينى لأغراضهم ، وأهل العلم جميعاً فى مصر وقضاة القضاة والمتصوفة وغيرهم<sup>(٣)</sup> وكان هدف الغورى استعادة مرعش من العثمانيين وتخليص ألبستان من نفوذهم<sup>(٤)</sup> ودخل الغورى دمشق فى ١٨ جمادى الأول عام ٩٢٢ هـ / ١٩ يونيو ١٥١٦م . واستقبل فى دمشق استقبالا رسمياً حافلاً ، برز فيه كبار الإداريين المماليك والقضاء والعلماء الفرنجة المستأمنون فى دمشق . ونثر صدقة اليهودى الدراهم<sup>(٥)</sup> على الأهالى بهذه المناسبة للتعبير عن ولائهم ولكسب رضى السلطان ، وربما لاستشارة الشعب للترحيب به وفى يوم

---

(١) القرانصة : هم مماليك السلاطين السابقين فهم مماليك تابعين لسلطان حاكم ، وكانوا قبلاً أجلاّب السلاطين السابقين وسموا قرانص أو قرانصة وتألف هؤلاء من طوائف مختلفة . وكانت كل منها تتبع سلطاناً . ونظراً لكثرة عدد السلاطين بسبب قصر مدد حكمهم ، خاصة فى عهد المماليك الجراكسة ، ازداد عدد هذه الوظائف ، وازدادت بالتالى المنافسة بينهم . وكان هذا عامل إضعاف لهم أجلاّب السلطان الحاكم المؤلفين من طبقة متراصة متجانسة واستغل السلطان الحاكم المؤلفين من طبقة متراصة متجانسة . واستغل الحاكم كثرة طوائف القرانصة لضرب طائفة بالأخرى . والرابطة الوحيدة التى كانت تجمع بين القرانصة هى كرههم للأجلاّب الذين هم عادة أصغر منهم سناً وأقل خبرة ويحاولون مع ذلك أن يطفروا بنفوذهم عليهم ( انظر ، عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٦ ) .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٤٤ : أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٢ : عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٩ .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ص ٤٧ .

(٥) الدرهم : وحدة من وحدات السكة الإسلامية الفضية ، وهو مشتق من اسم الدراخمة اليونانية ، وقد استعاره العرب فى المعاملات من الفرس إذ كانت الأقاليم الشرقية من العالم الإسلامى تتعامل بالدرهم الفضية عند الفتح العربى لها . ويزن الدرهم ١٥ قيراطاً . والقيراط أربع حبات والحبة واحدة . الحب وتعنى بذور الشعير ، ويبلغ وزن الشرعة سبعة أعشار الدينار أى ٢,٩٧ جراماً . ولا زالت بعض البلاد العربية تستعمل الدراهم كعملة أساسية إلى اليوم ، وإن كانت غير فضية . ( انظر ، سميرة فهمى ، المرجع السابق ، ص ٨٢ ) .

الأربعاء ٢٤ جمادى الأولى ٩٢٢ هـ / ٢٥ يوليو ١٥١٦م غادر الغورى دمشق متجهاً نحو حلب ، وانضم إليه فى القطفة نائب حلب خاير بك ، ونائب حماة جان بردى الغزالى <sup>(١)</sup>.

ولم يستمع الغورى لنصيحة نائبه فى الشام سيباى <sup>(٢)</sup> الذى كان يتمتع باحترام وتقدير أهل الشام ، بأن لا يأتى لمحاربة سليم بنفسه ، وإنما يمدّه بالعسكر <sup>(٣)</sup> واستحلفه ألا يحارب فى هذا العام لوجود قحط فى البلاد <sup>(٤)</sup> وعلى العكس فإن الغورى كان يتخوف من سيباى ، ويظن بأنه يسعى أن يحل محله ، ويسأل رجال الطالع ، فيقولون له أن من يتولى السلطنة من بعده يبدأ اسمه بحرف سين <sup>(٥)</sup> فيظن له أن هو سيباى فى الشام ، وربما قد أتى هذا الخوف من سيباى ، من أن نواب الشام كثيراً ما كانوا يثورون ضد سلاطينهم وأحياناً يتولون السلطنة من دونهم <sup>(٦)</sup>.

كذلك كان المماليك الذين اصطحبوه إلى الشام فى نزاع فيما بينهم بممالك الجلبان <sup>(٧)</sup> أى الذين اشتراهم السلطان لنفسه ، وجلبهم من خارج مصر وبلغ عددهم فى عهد السلطان الغورى ١٣ ألفاً <sup>(٨)</sup> أصبحوا يعادون ممالك السلاطين السابقين قبله ، والذين عرفوا بالممالك السلطانية أو القرائص أو القرائصة أو القرانيص ، ولعل أساس النزاع بين الفريقين قد أتى من تقرب الغورى لممالك الجلبان على حساب الآخرين <sup>(٩)</sup> فكان يترتب على تنازعهم حدوث فوضى وفتن فى البلاد ، حتى قيل أنه قبل سيره إلى الشام ، وكان قد قتل أحد جلبانه ، فاتهم به القرائصة <sup>(١٠)</sup> وربما كان تحت تحريض الجلبان من ممالكه ، فإنه ترك كثيراً من القرائصة فى مصر <sup>(١١)</sup>.

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٢) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٠ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٥٢ .

(٤) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٥) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥١ .

(٦) نفسه ، ص ٣٥١ .

(٧) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥١ .

(٨) نفسه ، ص ٣٥١ .

(٩) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٦ .

(١٠) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٥٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ،

ص ٣٤١ .

(١١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٣ .

ومما يؤكد أن الغورى قد أخذ حرب سليم بخفة ، من أن خروجه إلى الشام سعى فقط تجريدة<sup>(١)</sup> وليس حملة وأنه خرج فى موكب تتقدمه الأقبال تفوح منها رائحة البخور ، وحتى صحبتته المغانى<sup>(٢)</sup> كما أخذ معه آلات السلاح الفاخر ، المستعملة فى المواكب الرسمية من ذخائر السلاطين السابقين ، مثل السيوف والسروج المذهبة والمزينة بالجواهر ، وحملت على خمسين جملاً<sup>(٣)</sup> .

وظن الغورى أن مجرد ظهوره على الحدود الشمالية من سلطنة سيخيف سليم فيتنازل له عما يريد . وكان الغورى فى الوقت ذاته يفاوض الشاه إسماعيل الصفوى ليتحالف معه ضد العثمانيين . ولكن وقوع مراسلات الغورى مع الشاه إسماعيل فى أيدي العثمانيين ، جعل سليماً يتعجل الأمر للقضاء على جيش الماليك . ولهذا استولى سليم عنتاب واستعد للمسير نحو حلب للقاء الغورى ، فقد قصد فعلاً من مجيئه إلى بلاد الشام مجرد إخافة العثمانيين ودفعهم للتنازل له عما يطلب ، فيكون ، إزاء ما حدث قد أساء التقدير ، لأنه بعمله هذا استثار العثمانيين ودفعهم إلى القتال<sup>(٤)</sup> .

وقد أسرع الغورى فور وصوله إلى حلب بإرساله الأمير مغلباى إلى سليم ، ومعه نص الصلح ، كما أن خطبة إمام جامع حلب كانت كلها عن الصلح ، وحتى الأمراء الماليك ينتظرون الجواب بالصلح ، ويحنون العودة إلى الوطن<sup>(٥)</sup> إلا أن سليماً رفض الصلح وقبض على رسول الغورى<sup>(٦)</sup> ووضعه فى الحديد ، وحلق لحيته<sup>(٧)</sup> وربما أرسل إليه الغورى آخرين ، فقطع سليم رؤوسهم<sup>(٨)</sup> ، مما جعل الغورى يدفع بطوالع جنده إلى مرج دابق<sup>(٩)</sup> من مدن الحدود ،

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٢) نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٢ .

(٣) نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٣ .

(٤) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٥) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٦٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص

٣٤٣ .

(٦) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٦٣ .

(٧) نفسه ، ج ٥ ، ص ٦٣ .

(٨) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٩) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٦٣ .

قرب حلب ، وقال إنها إرادة الله . وخوفاً من غدر أمرائه فإنه جمعهم وجعلهم يقسمون على المصحف الشريف أن لا يخونوه ولا يغدروا ، فأقسم كلهم على ذلك ، أما غير الأمراء من الجند ، فإنهم مروا تحت سيفين على هيئة قنطرة ، عنوان القسم على الولاء <sup>(١)</sup> .

ولقد قسم الغورى عسكره ، بإزاء عسكر سليم ، فوضع فى المقدمة سيباى نائب الشام ، وميمنة على رأسها جان بردى الغزالى نائب حماة ، وميسرة على رأسها خاير بك نائب حلب ، أما هو فقد أقام لنفسه فى الوسط سرادقاً كبيراً ، وقد أحاط به الخليفة وقضاة القضاة ، وأعلام رجال الصوفية ، وقاسم بك ابن أخ سليم وغيرهم ، وحولهم أربعون مصحفاً منها مصحف الصحابى الخليفة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، الذى قتل وهو يقرأ القرآن . وقد طلب الغورى من القراء قراءة الختمة <sup>(٢)</sup> وقرأها معهم ، كما أكثر من الصلاة ، وعلى الرغم من أن سيباى قد شك أن خاير بك يتراسل مع سليم وأراد قتله ، إلا أن الغورى لم يستمع له ، خوفاً من أن يقتتل المماليك فيما بينهم <sup>(٣)</sup> .

واصطدم الجيشان المملوكى والعثمانى فى ٢٥ رجب عام ٩٢٢هـ / ٢٤ أغسطس ١٥١٦م ، فى موضع يعرف بتل القار فى مرج دابق ، وإن أحاطت بها الخيانة منذ بدايتها . فقد سرت إشاعة مفرضة بأن الغورى يريد أن يتخلص من القرائصة ، وأنه طلب من الجلبان وهم مماليكه ألا يقاتلوا ، مما جعل لقرائصة الذين كانوا فى المقدمة يتوقفون عن القتال <sup>(٤)</sup> ، مما ترتب عليه الهزيمة الكاملة وفرار المماليك بجميع فئاتهم ، وكان خاير بك أول من هرب من الأمراء <sup>(٥)</sup> وتبعه جان بردى الغزالى فلعلهما كانا متفقين فى الباطن مع سليم <sup>(٦)</sup> حيث كان كلاهما يرى فى نفسه أنه أحق بالسلطنة من الغورى ، ومع ذلك لم يكن تصرفهما جديداً على الأمراء

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٦٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٣ .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٦٤ .

(٣) نفسه ، ج ٥ ، ص ٦٤ .

(٤) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٥) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٦٩ ؛ أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ،

ص ٢٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٤ .

(٦) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٦٩ - ٧٠ .

المماليك الذين تعودوا على خيانة سلطانهم<sup>(١)</sup> هذا كان الحال بالنسبة للماليك أما الجيش العثماني بالمقابل ، يتمتع بكثير من التنظيم إذ أن الفساد لم يدب بعد بشكل كبير في صفوف الأنكشارية ، فكانوا عنصراً فعالاً في القتال ، وأحسنوا استخدام الأسلحة النارية . وكانت الدولة العثمانية في أوج قوتها تخرج من نصر إلى آخر . وكان انتصار قواتها قبل فترة وجيزة وفي منطقة قريبة في جالديران عام ٩٢٠هـ / ١٥١٤م ثبطاً لهمة المماليك بقدر ما كان مشجعاً للعثمانيين على القتال<sup>(٢)</sup>.

وقد حاول الغوري أن يوقف فرار المماليك - خاصة من الجلبان - حيث أصبح في نفر قليل ، وكان ينادى بصوته<sup>(٣)</sup> هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة ، إلا أن المماليك استمروا يفرون ، حينئذ طوى حامل راية السلطان الصنجق السلطاني رايته ، وحدث شلل مفاجئ ، للسلطان وفاضت روحه ، بعد أن انقلب عن فرسه ، وأن يبدو أن رأسه قد قطعت ، حتى لا يتعرف عليه العثمانيون فلم تظهر له جثة بين القتلى<sup>(٤)</sup> وكان الأرض ابتلعته في الحال إذ كانت جثث كثيرة ملقاة بلا رؤوس ، فقد قتل كثير من أمراء الشام ومصر فوق الأربعين منهم سيباى نائب الشام<sup>(٥)</sup>.

حينئذ أستولى سليم على خيام الغوري ، وأستولى على ما فيها من أسلحة ، وخاصة سيفه ، ومال وتحف واحتوى على خيام الأمراء ، بحيث لم يقع لأحد من سلاطين العثمانيين مثل ذلك ، كما أنه أخذ الخليفة وعدداً كبيراً من الأسرى<sup>(٦)</sup>.

عاد الغزالي إلى دمشق يوم الثلاثاء في ٥ شعبان عام ٩٢٢هـ / ٣ سبتمبر ١٥١٦م ، ونادى به الأمراء المماليك نائباً عليها ، أما السلطان سليم فتابع سيره إلى حلب ، يرافقه خير بك ،

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي ، ٣٤٤ .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٧٠ - ٧١ ؛ أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع

السابق ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٣) نفسه ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٤) نفسه ، ص ٢٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٤ .

(٥) نفسه ، ص ٢٩ .

(٦) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٧١ ؛ أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ،

ص ٣٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي ، ص ٣٤٥ .

فخلع زى الماليك ، ويرغبهم فى الدخول تحت طاعة سليم ، ويعدهم بأن يبقى كل أمير فى منطقته ويحفظ له رزقه<sup>(١)</sup> بحيث سماه سليم " خاين بك " بدلاً من خاير بك وبذلك أشبه الوزير ابن الغلقمى ، الذى خان خليفته المستعصم آخر خلفاء العباسيين فى العراق وملك بغداد<sup>(٢)</sup> . والخليفة العباسى ودخلها بقبول أهلها الذين طردوا عساكر الماليك الهاريين حين حاولوا اللجوء إليها ، وذلك بسبب ما قاسوا منهم قبل المعركة ، وخطب للسلطان سليم فى جوامع حلب فى يوم الجمعة ٨ شعبان ، ولقب بخادم الحرمين الشريفين ، وقد أستولى على أموال الماليك فيها ، وأحسن إلى العلماء . وبعد أن عين حاكماً عثمانياً عليها ، توجه للاستيلاء على دمشق<sup>(٣)</sup> .

وعين الغزالى الذى ظل يؤيد فى الظاهرة ، السلطنة المملوكية حكاماً من قبله على حماة وحمص ، وتحالف مع ناصر الدين بن الحنش ، الأمير البدوى المسيطر على البقاع ، وعينه حسب طلبه نائباً على حمص ، لقاء تعهده بمقاومة العثمانيين وحماية المنطقة الممتدة بين حماة والبقاع . كما عين صهر ابن الحنش ، ابن جانبى البدوى الملقب بأمر الشام ، على بلاد حوران والمرج . إلا أن أخبار تقدم السلطان العثمانى جعلت حاكمى حماة وحمص يفران إلى دمشق . وأخذ الماليك ومن بينهم الغزالى يخرجون منها باتجاه مصر . وتسلم نائب القلعة المملوكى المحافظة على الأمن فى دمشق . وقد استغل الذعر فى المدينة اضطراب الوضع السياسى ، وقاموا بهجمات الماليك وحصل نزاع بين أهل المزة وداريا الذين استفادوا من الفوضى لتصفية خلاقات قديمة<sup>(٤)</sup> .

أرسل السلطان سليم الرسل إلى دمشق يطلب تسليمها ، فاجتمع العلماء ومشايخ الحارات، وقرروا تسليم البلد . ولكن نائب القلعة المملوكى عارض ذلك واعتصم بالقلعة . وكان هدف العلماء ومشايخ الحارات الذين ألقبت عليهم القبض المسئولية، حماية البلد من النهب، وخاصة وأن حكم الماليك وتعدى الجند على الأهالى، لم يكن فيه ما يجعلهم يدافعون

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٧١ : أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ،

ص ٣٢ : عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٥ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(٣) نفسه ، ص ١٠٠ .

(٤) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .

عنه ، بعد أن فشل الماليك عسكرياً . وساعد على ذلك أن عرب الشام لما تحققوا من موت السلطان الغورى ، وثب بعضهم على بعض ، ونهبوا زروع الشام ، واضطربت أحواله<sup>(١)</sup> وحتى دمشق التى قد بدأت المقاومة على يد ابن الحنش<sup>(٢)</sup> أمير العربان إلا أن أحوال دمشق كانت قد فسدت بعد مقتل سيباى نائب الشام ، بحيث نهبت أسواقها واضطر أهلها إلى الخروج منها ، فقتل العثمانيون لما دخلوها عدداً كبيراً من أمرائها الماليك ، ومن كانوا قد لجأوا إليها غير الرعية<sup>(٣)</sup> . وفى يوم الجمعة ٢٩ شعبان / ٢٧ سبتمبر دخل فريق من العثمانيين إلى دمشق ضم المتسلم ، وخاير بك . وقدم بعد ذلك الوالى العثمانى يونس باشا المعين لدمشق . وقد وفق خاير بك بين الوالى ونائبه فى القلعة ، ريثما يصل السلطان العثمانى . وخطب فى ذلك اليوم فى الجامع الأموى اسم السلطان سليم وأخذ الجنود العثمانيون يتوافدون على دمشق . كما وصل إليها ، القاضى الحنفى زين العابدين بن الغزى الرومى فتعاطى الحسبة<sup>(٤)</sup> فيها ، وعين من قبله قضاة من المذاهب الحنفية والمالكية والشافعية ، وأدخل بعض التنظيمات القضائية<sup>(٥)</sup> .

وصل السلطان سليم فى رمضان عام ٩٢٢ هـ / ٢٩ سبتمبر ١٥١٦م إلى برزة فى ظاهرة دمشق ، فقدم له قضاة المذاهب الأربعة والسيد كمال الدين بن حمزة ومعه جماعة من الأشراف<sup>(٦)</sup> خضوعهم ، وكذلك فعل نائب القلعة المملوكى . وكان مع السلطان سليم الخليفة

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٦٠ .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٧١ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص

٣٤٨ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٧٤ .

(٤) أمين الاحتساب : وصحته أمين الحسبة ، وهو الشخص المسئول عن الإشراف على طوائف الحرف القائمة على صنع المأكولات ، للتأكد من صحتها وخلوها من الغش ، ومراقبة الأوزان والمقاييس والمكاييل ومعرفة الأسعار ، ومعاقبة كل مخالف لها ، والتشهير به . ( انظر : محمد شفيق غريال ، المرجع السابق ، ص ٢٠ ) .

(٥) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ١٠٢ .

(٦) الأشراف : كلمة أشراف تعنى أولئك الذين هم من نسل سيدنا محمد (ﷺ) ، سواء إن كان ذلك

عن طريق إنحدارهم من الأب أو الأم ، ولم يكن هؤلاء بالضرورة رجال دين ، وإنما كان منهم التاجر والصانع والفلاح ، وقد تمتع الأشراف باحترام خاص بين جموع الناس ، وشكلوا جماعة منفصلة ، وكان يطلق على =

العباسي ، وقد هرع ناصر الدين بن الحنش أمير البقاع فقدم الطاعة للسلطان سليم فمُنحه صنجًا وبعض الإقطاعات والتزام ابن الحنش بأن يقدم البدو ولا هم للسلطان العثماني<sup>(١)</sup> .

وأدخل الإداريون العثمانيون في دمشق تنظيمات جديدة فيما يختص بالقضاء والعلماء والشئون المالية . وطلب القاضي الحنفى العثماني من أرباب الوظائف الدينية إحضار مستنداتهم للموافقة عليهما من قبله ومن قبل قاضي العسكر<sup>(٢)</sup> العثماني ، وكانوا يدفعون رسمًا لقاء ذلك . وبدأ الدفتردار<sup>(٣)</sup> العثماني بتسجيل الدخل والمنصرف ، وطلب إحضار المربعات والمناشير التي منحت بموجبها الإقطاعات ، في السابق ، لينظر فيها ، كما أجرى إحصاء للسكان ، والممتلكات في دمشق . حدث كل هذا والسلطان مقيم في برزة ، وقد كان أثناء ذلك في إحدى حمامات دمشق ، كما صلى في الجامع الأموي . وكانت قوته العسكرية

---

= رئيس هذه الجماعة ، اسم تقيب الأشراف أو النقيب ، وتختاره الدولة من أبرز هؤلاء الأشراف ، وكانت وظيفته محترمة ، وكان لنقيب الأشراف في استانبول سلطة على نقباء الأشراف في الولايات وهو الذي كان يعينهم ، وكان له سلطة قضائية عليهم . ( انظر : عبد العزيز محمد الشناوي ، الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٨ م ، ص ٣٢٤ ) .

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٢) قاضي العسكر : أنشأت الدولة العثمانية على رأس النظام القضائي قاضي القضاة أو رئيس القضاة . وكان يطلق على شاغل هذا المنصب اسم قاضي عسكر . وكان مقره العاصمة . ويشرف على أعمال القضاة في سائر أنحاء الدولة . ويقوم بترشيح من يقع اختياره عليهم لشغل وظائف القضاة على اختلاف فئاتهم ، ويراقب أعمالهم ، وبعد حركات تنقلاتهم ، وتعرض عليه التقارير والمذكرات التي يبعث بها إليه قضاة الأقاليم . وكانت تقوم بجانب قاضي عسكر أجهزة فنية وإدارية يعمل فيها موظفون بمشابة مساعدين له ، وأطلقت عليهم شتى المصطلحات ، نذكر منها على سبيل المثال ، المطبعية ، والتطبيقية والمكتوبية وكان يحتفظ بعضهم بسجلات تحوى أسماء القضاة وفئاتهم ، وكان يختص بعضهم بإعداد كشوف مرتبات القضاة ، ومن إليهم ، بينما كان يحتفظ فريق آخر بصور من أختام القضاة للتحقيق من صحة الأختام على المذكرات والتقارير التي ترفع إلى قضاى العسكر ( انظر : عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق ج ١ ، ص ٤٢٤ ) .

٣ - دفتر دار : دخلت كلمة دفتر دار في الفارسية بلفظها ومعنى جماعة الصحف ، وأما ( دار ) ففارسية بحت ، ومعناها صاحب أو القيم ، فالدفتر دار لغويًا هو صاحب الدفتر . وكان الدفتر دار بمثابة وزير للمالية . وينص قانون محمد الفاتح على أن فتح الخزانة الخاصة بالمال وخزانة الدفاتر وإغلاقها إذا لزم الأمر بمحضر من الدفتر دار ( انظر : أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ٩٨ - ٩٩ ؛ وانظر أيضًا : محمد شفيق غريال : المرجع السابق ، ص ١٦ ) .

وخاصة الأسلحة النارية التي جربها في تظاهره قوة ، وهو في برزة ، فظنت أهل دمشق أن السماء انطبقت على الأرض مرهبة للأهالي ، فلم يشوروا على الإجراءات التي قام بها موظفوه. ولكن حصل تعدد من قبل الجنود العثمانيين على الأهالي في دمشق إذ استخدموا منازلهم للسكن ، ولم يوقروا حتى العلماء مما أثار النقمة في النفوس<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن هدف السلطان سليم من إقامته في برزة مراقبة الوضع في دمشق ، وتهيئة الجو لدخوله ورؤية رد فعل الدمشقيين تجاه الإجراءات وجد السلطان سليم الجو مناسباً ليدخل دمشق كمنقذ لأهلها ، فدخلها في ١٣ رمضان / ١٠ أكتوبر ووزع المال على العلماء ، وعزل يونس باشا من نيابة دمشق في محاولة منه<sup>(٢)</sup> ، كما يبدو لإرضاء الدمشقيين ، وعين مكانه شهاب الدين أحمد بن يخشى . كما أنه عين لنيابة القلعة أميراً عثمانياً . وعزم سليم على هدم البيوت والمحلات المبنية حول القلعة وسور المدينة ، ليعزز تحصيناته العسكرية ، كما فعل في حلب . ويدل وجود البيوت والمحلات في هذه الأماكن الاستراتيجية على الإهمال العسكري زمن المماليك ، ويفسر ذلك بعدم تعرض المماليك إلى غزو خارجي منذ غزو تيمورلنك في مطلع القرن الخامس عشر<sup>(٣)</sup>. وقد حاول سليم التعويض على أصحاب الأماكن إلا أن كثرة التعويضات على هذه الأماكن المقدرة جعلته يعدل عن خطة الهدم . ويظهر أيضاً أنه كان يحرص في هذه المرحلة على كسب رضى الأهالي ، ويؤيد ذلك طرده للدفتردار العثماني الذي تشكى عليه أهل القرى بسبب متطلباته المالية . وفي محاولة من سليم لزيد تقربه إلى السكان ، وليكسب عطف العلماء والرأي العام الإسلامي ، وليظهر أنه جدير بلقب خدام الحرمين الشريفين فقد زين ثوب المحمل ، الذي يرافق الحاج إلى الحجاز ، وعين جنداً كثيراً إلى غزة والقدس والمناطق المجاورة للمحافظة على سلامة الحاج ، ويبدو أن إرسال هؤلاء الجنود كان يقصد منه أيضاً رؤية رد الفعل لدى ممالك مصر فيما لو توسع جنوباً وهاجم مصر<sup>(٤)</sup>.

ويبدو أن سليماً لم يكن في هذه الأثناء ، مهتماً جداً بفتح مصر . لقد حطم إمكانية التحالف بين الصفويين والمماليك ، وفتح بلاد الشام ، وفي هذا فوائد عسكرية ودينية كبيرة .

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٢) نفسه ، ص ١٠٢ .

(٣) نفسه ، ص ١٠٣ .

(٤) نفسه ، ص ١٠٣ .

ثم أن حملته على مصر ستعرضه لمخاطر اجتياز منطقة سيناء ، بما فى ذلك خطر هجوم البدو عليه ، وامتداد خطوط مواصلاته<sup>(١)</sup> وأن سهولة فتح بلاد الشام يجب ألا تؤخذ مقياساً فى فتح مصر . والماليك فى بلاد الشام كانوا قلة ، إذا ما قورنوا بأعدادهم فى مصر . كما أن كراهية الشعب فى بلاد الشام للماليك ونقمته على ظلمهم وتعسفهم ، وخاصة منهم الأجلاب ، بسبب اعتدادهم برعاية السلاطين المباشرة لهم ، سهلت الفتح العثمانى الذى لم يلق مقاومة شعبية . ومع ذلك فإن الفتح العثمانى والحق يقال ، لم يلق ترحيباً حاراً ، لأن السكان المحليين إنما كانوا يستبدلون حاكماً ( تركى اللغة بحاكم آخر تركى اللغة ) وكان سليم يتوقع أن تكون المقاومة المملوكية أثر عنفاً فى مصر ، نظراً لتمرکز الماليك فيها ، واعتبارهم مصر آخر معقل لهم . ويضاف إلى هذه الاعتبارات أن توغل العثمانيين فى مصر من شأنه أن يشجع الصفويين على استجماع قوتهم ، وإعادة تهديد المناطق العثمانية ، وهذا ماتم بالفعل ، بعد قليل ، إذ هرع سليم ، إثر فتحه لمصر لرد خطر هجمات الصفويين على بلاده . كما أن فتح العثمانيين لمصر سيجلب عليه التزامات دفاعية جديدة ، ويجعلهم وجهاً لوجه أمام الخطر البرتغالى فى البحر الأحمر . ولهذه الأسباب مجتمعة فاض السلطان سليم وهو فى دمشق ، طومان باى سلطان الماليك الجديد على الخضوع له ، والبقاء حاكماً فى مصر من قبله ، شريطة أن تضرب السكة فى مصر باسم السلطان العثمانى ، وتكون الخطبة باسمه أيضاً<sup>(٢)</sup> .

### ١ - الموقف فى مصر :

فى ذلك الوقت نجد أن أهل القاهرة لما علموا بموت السلطان قانصوه الغورى فى حربه مع العثمانيين ، اختاروا نائب الغيبة طومان باى على أساس أن محمداً ابن الغورى كان صغير السن ، ولأن الغورى نفسه كان قد أوصى جميع أمرائه أنه إذا ما أصابه شىء أن يسلطنوا عليهم طومان باى<sup>(٣)</sup> إلا أن طومان باى امتنع فى أول الأمر غاية الامتناع ، بسبب قلة المال ، والخوف من عدم التفاف الماليك حوله ، وإمكانية الغدر به ، واستمر تمنعه مدة خمسين يوماً ،

(١) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٣١ - ٣٤ .

(٢) محمد ابن أياس الحنفى ، الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٢٢ - ١٢٥ ؛ أحمد بن زنبيل الرمال ،

المرجع السابق ، ص ٢٦ - ٢٧ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٨٥ ؛ أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ،

ص ٤٦ - ٤٧ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٥ .

إلا أنه قبلها بعد ذلك تحت ضغط رجال الدين ، فى مصر وبخاصة عالم وشيخ كبير منهم ، اسمه أبو السعود الجراحى <sup>(١)</sup> . فكانت مبايعة طومان باى بالسلطنة فى مصر فى يوم ١٤ رمضان ٩٢٢هـ / ١١ أكتوبر ١٥١٦م ، ولقب بالملك الصالح ، فكان رجال الدين يأتون بالأمراء المماليك ، ويجبرونهم على وضع أيديهم على المصحف الشريف ويحلفون عليه ، أنهم إذا سلطنوه ألا يتآمروا ولا يغدروا ولا يثيروا شغباً ، وأنهم ينهون عن مظالم المسلمين قاطبة . ولا شك ما قام به زعماء المصريين فى هذا الصدد كان مبدأ خطيراً فى تقاليد مصر الإسلامية <sup>(٢)</sup> وفى اليوم التالى عين طومان باى جان بردى الغزالى نائباً من قبله . وكانت الخطبة فى مصر أعلنت فى الفترة بين وصول أنباء موت السلطان الغورى وسلطنة طومان باى ، باسم الخليفة فقط . وكان الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله محتجزاً آنذاك ، لدى سليم ، ويرافقه فى تنقلاته ، بينما كان والد الخليفة يعقوب وشقيقه هارون موجودين فى مصر ، وكان المماليك يلجأون إليهما لاسباغ الشرعية على أعمالهم ، ولإثارة رأى العام الدينى على العثمانيين ، كما حدث فى مبايعة يعقوب للسلطان طومان باى بطريقة الوكالة عن الخليفة محمد المتوكل على الله <sup>(٣)</sup> .

رفض طومان باى تحت إلحاح أمراء المماليك ، عرض التبعية للسلطان سليم ، وقتل المماليك رسل العثمانيين الذين حملوا العرض إلى مصر . وليس هذا الرفض بالأمر الغريب نظراً لتألم المماليك من انكساراتهم ، ولأن قبولهم العرض العثمانى يعنى مساهمتهم فى القضاء على سلطنتهم . ولكن الغريب حقاً استمرار اعتداد المماليك بفروسياتهم رغم ما قاسوا فى سبيلها من انكسارات وعدم اعترافهم بفاعلية رصاص العثمانيين ، وبالتالى عدم استخدامهم له بصورة فعالة فى صفوفهم ، وإزاء هذا الرفض وإلحاح من خاير بك على السلطان سليم بالتوجه إلى مصر طمعاً بحكمها من قبل العثمانيين وخوفاً على حياته إذا لم يقض على السلطنة المملوكية ، بعد الاستيلاء على مناطق غزة والقدس وانعدام المقاومة الشعبية له ، ( أرسلت قلعة صند مفاتيحها للسلطان سليم وهو فى دمشق ) ، غزو مصر

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٨٦ .

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٥ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٠٢ - ١٠٥ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع

السابق ، ص ١٠٥ .

وبالفعل فإن وجود قوة معادية للسلطان سليم فى مصر من شأنه أن يهدد حكمه فى بلاد الشام<sup>(١)</sup>.

ومع ذلك ، فقد حدثت معركة حقيقية فى غزة ، بحيث اعتبر أنه لم تحدث معركة فى الشام ، بعد مرج دابق ، إلا فيها وخاصة وأن نائب الغورى فيها ، كان قد طلب من طومان باى أن يمدّه بالعسكر<sup>(٢)</sup> وبالفعل شرع طومان باى فى إعداد الجند وجمع منهم عشرة آلاف<sup>(٣)</sup> فأرسل إليه بعض المماليك الذين كانوا فى الطباق - وهى المدارس الحربية المملوكية - ولم يكونوا قد اشتركوا فى القتال بعد<sup>(٤)</sup> ، كما أرسل إليها بعض الذين هربوا من الأمراء ومماليكهم من مدن الشام الأخرى ، وإن كانت سمة هؤلاء التباطؤ والتراخى والتعاس الزايد بسبب أن طومان باى لم يجد المال الكافى لينفق عليهم<sup>(٥)</sup> ، وأظهر بعضهم الجبن وأراد أن يهرب من القاهرة<sup>(٦)</sup> بحيث اضطر طومان باى أن يظهر أنه يذهب بنفسه لقتال سليم<sup>(٧)</sup> ويستحثهم طلب منهم القتال عن أعراضهم وأموالهم . كذلك أرسل بعض رماة البنادق من أهل مصر وسودانها<sup>(٨)</sup> - العبيد - بقيادة الأمير جان بردى الغزالى ، أما العثمانيون بقيادة الوزير سنان باشا<sup>(٩)</sup> فى ١٦ ذى القعدة / ١١ ديسمبر وذلك عند خان يونس ، وأسر جان بردى الغزالى ، وكاد العثمانيون يجزون رأسه لولا غلمانته الذى خلصوه . وقد انتقم العثمانيون من أهل غزة بسبب أنهم ساعدوا المماليك ، فقتلوا منهم ألف إنسان من الرجال والنساء والأطفال<sup>(١٠)</sup> ، أما المماليك الذين نجوا من هذه المعركة - وهم قلة - فإنهم عادوا إلى وهم فى أسوأ حال ، بعضهم جاءها راكباً الحمير ، وقد فقد سلاحه ، وملابسه ، أو حتى حافياً<sup>(١١)</sup>.

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٧٥ .

(٣) نفسه ، ج ٥ ، ص ٧٩ .

(٤) نفسه ، ج ٥ ، ص ٨٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .

(٥) محمد بن أياس الحنفى ، ج ٥ ، ص ٨١ - ٨٤ .

(٦) نفسه ، ج ٥ ، ص ٨١ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٩ .

(٧) نفسه ، ج ٥ ، ص ٨١ .

(٨) نفسه ، ج ٥ ، ص ٨٢ .

(٩) نفسه ، ج ٥ ، ص ٨٢ .

(١٠) نفسه ، ج ٥ ، ص ٨٩ .

(١١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٩١ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ،

وزاد من مشاكل القاهرة ، أنه بعد هزيمة غزة بالذات هاجر إلى القاهرة أهالى الشرقية ولبليس خوفاً من النهب والقتل إذا ما تحرك العثمانيون نحو مصر ، فكانت هجرتهم من الكوارث ، إذ تبع ذلك أن قلت الأقوات وأرتفعت أسعارها ، وقل الدقيق والخبز ، وتعطلت الطواحين مما جعل طومان باى يغير المحتسب (١) .

وقد ساعد بدو سيناء العثمانيين فى معركة خان يونس ، وأرهب هذا الانتصار بدو بنى بقر المسيطرين على إقليم الشرقية فى مصر ، فقدم شيخهم أحمد بن بقر وأولاده عبد الدايم وبيبرس ولأهم للسلطان سليم الذى أبقاهم وغيرهم من مشايخ البدو المؤيدين له على مناطقهم وامتيازاتهم (٢) وكان ولأى البدو عاملاً هاماً ، فى نجاح العثمانيين لأنه لو لم يكن الأمر كذلك لكان بإمكانهم إشغال قسم كبير من الجيش العثمانى فى قتالهم ، فى منطقة هم أدرى بجغرافيتها ، عدا عن تهدهم لقوافل المؤن . ولم تخرج قافلة الحاج المصرى ، فى هذه الأثناء إلى الحجاز ، للاضطرابات فى مصر ، وكان أثر ذلك شديداً لدى الرأى العام الإسلامى (٣) .

وكان من رأى طومان باى أن يهاجم سليماً فى وسط الطريق ، ولا يتركه حتى يأتى إلى القاهرة ، على أساس أن صحراء شرقى مصر وقسوتها ، من الممكن أن تنهك جيشه (٤) ولكن تحت إلحاح أمراء الماليك ، فإنه اضطر أن يطرح استراتيجية للمعركة كما كان يريد ، جانباً وأجبر على انتظار مجىء العثمانيين . ولذلك لم يجد هؤلاء أى مقاومة فى زحفهم على مصر ، إلا من بعض العربان الذين كانوا يميلون بطبعهم إلى النهب والسلب ، فكانوا يقطعون بعض رؤوس العثمانيين ويرسلونها إلى القاهرة ، لقبض الثمن (٥) ومع ذلك فإن طومان باى قد أمر بحرق بعض الشون التى تقع خارج القاهرة (٦) حتى لاتقع فى أيدى العثمانيين (٧) .

(١) عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١٤٨ .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١١٨ - ١٢٨ ؛ أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٤٧ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٢٨ ؛ أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٣٩ - ١٤٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥١ .

(٥) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٤١ .

(٦) نفسه ، ج ٥ ، ص ١٤٢ .

(٧) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٨٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٢ .

وعلى كل ، استعد طومان باى لمقابلة العثمانيين بجوار القاهرة - فى المطرية - فى مكان اسمه الريدانية واستعد ، وأمر طومان باى الأمير مامى الصغير المحتسب بضرورة التنبيه على أرباب البضائع والزياتين أن يتوجهوا بمنتجاتهم إلى الريدانية ، وأصدر أوامره إلى جيشه بأن كل من يحاول الهروب سيكون مصيره الإعدام<sup>(١)</sup> .

إلا أن المتاعب مالبثت أن ظهرت من الممالك أنفسهم ، على الرغم من أن طومان باى ، كان قد أصدر أمره للذين جمعوا فى الريدانية من بقايا المهزومين فى غزة أو المقيمين منهم فى القاهرة أو غيرها ، حتى تجمع لديهم أكثر مما تجمع للغورى من قبل<sup>(٢)</sup> ، بأن يكونوا فى الميدان بكامل اللباس من آلة السلاح ، إلا أن أغلبهم رفضوا المبيت فى المعسكر ، فكانوا يرجعون إلى بيوتهم فى المساء<sup>(٣)</sup> .

وحتى الأسلحة النارية المملوكية ، التى كانت من المنتظر أن تلعب دوراً حاسماً فى المعركة ، لم تقم فيها بأى دور بسبب أن المدافع كانت قليلة ، لم تتعد المائة ، بينما كانت العثمانية زحفت بستمائة مدفع<sup>(٤)</sup> منها المائة والخمسون مدفعاً كبيراً . وبينما كانت هذه سهلة الحركة ، تتحرك على عربات فى أى اتجاه ، فإن المدفعية المملوكية وضعت على قواعد ثابتة وأصبحت غير قابلة للحركة - وزاد الطين بلة - أنها طمرت فى الرمال عمداً ، زيادة فى إخفائها وهى معمرة<sup>(٥)</sup> حيث قيل أن الذى أمر بوضعها هكذا هو الأمير جان بردى الغزالى<sup>(٦)</sup> الذى هزم فى موقعة غزة ، وخان قانصوه الغورى ، وتنبه طومان باى لذلك ، فأراد قتله لولا أن الأمراء منعوه<sup>(٧)</sup> لوصول العثمانية إلى الريدانية فى يوم الخميس ٢٨ ذى الحجة عام ٩٢٣ هـ /

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٤٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٢ .

(٢) - محمد بن زياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٤٤ .

(٣) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٣ .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٤٧ .

(٥) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٣٠ - ٥٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٣ .

(٦) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٧) نفسه ، ص ٥٢ .

٢٢ من يناير ١٥١٧م وتدفقت القوات العثمانية بأعداد هائلة بلغت ٢٠٠ ألف أو أكثر بقصد الالتفاف حول المدافع المملوكية ، بالتواجد وراء فوهاتها ، ولم توجد فرصة لهذه المدافع لمواجهة العثمانيين فلم تنطلق إلا واحدة<sup>(١)</sup> ، مما أربع العثمانيين ، الذين مالبثوا أن أدركوا عجز مدافع الماليك ، مما جعلهم ينهبون بارودها<sup>(٢)</sup> .

حينئذ لم ينتظر طومان باى وتوجه إلى معسكر سليم الذى أقيم فى أول الريدانية ، ف وقعت وقعة مهولة<sup>(٣)</sup> وصفها المؤرخون العثمانيون فى دائرة مخبرات - وهى دفاتر المخابر العثمانية بأنها أعظم من الواقعة فى مرج دابق ، كما وصف البعض<sup>(٤)</sup> القتال فيها بأنه كان قتال الأبطال إذا اقتحمه طومان باى ومن معه بشجاعة نادرة ، وقتل من العثمانيين أعداداً هائلة ، بمن فيهم سنان باشا نفسه ، الصدر الأعظم ، الذى بارزه طومان باى وقتله بيده بأن رفعه إلى أعلى رأسه ثم ألقيه على الأرض بعنف فطبق أضلاعه بين جنبيه ، ثم جز رأسه ، ربما ظناً منه أنه هو السلطان سليم نفسه ، وإن كان سليم لم يكن موجوداً وقتذاك<sup>(٥)</sup> .

وقد حزن سليم على وزيره الكبير حزناً كبيراً ، واعتبر فقداه خسارة كبرى ، وفكر فى الانتقام ، وقال استولينا على مصر ، ولكن فقدنا سنان باشا ، خسارتنا فيه لا يمكن أن تعدها دولة<sup>(٦)</sup> ، فكانت الجند العثمانية تنتهك حرمة المساجد بدخول الخيل فيها<sup>(٧)</sup> وطلعت المآذن وصاروا يطلقون البنادق ، فكان معظم القتلى الماليك من رصاص البنادق<sup>(٨)</sup> وقد قدر عددهم بعشرة آلاف ، وبقي طومان باى فى قليل الماليك والرماة العبيد - السودان - الذين دافعوا عنه ببنادقهم ، فلما تكاثرت العسكر العثمانية عليه انسحب إلى طرا المجاورة من كثرة البنادق<sup>(٩)</sup> .

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ١٨٦ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٣ .

(٢) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٣) محمد ابن أبياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٥٥ .

(٤) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٥) نفسه ، المرجع السابق ، ص ٥٦ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٤ .

(٦) أحمد بن زنبيل ، المرجع السابق ، ص ٥٦ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٤ ؛ محمد

بن أبى السرور البكرى ، اللطائف الربانية على المنح العثمانية فى الدولة العثمانية ، ص ٨٠ - ٩٩ ؛ عمر

عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص ٧٢ .

(٧) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٥ .

(٨) نفسه ، ص ٣٥٦ .

(٩) محمد بن أبى السرور البكرى ، المصدر السابق ، ص ٩٩ .

و بمجرد دخول طلائع العثمانيين القاهرة ، شرعوا فى تعقب المماليك فى كل مكان وحتى فى البيوت والمقابر ، فمن كان يقبض عليه ، تضرب عنقه فوراً ، وساعدهم فى ذلك العربان ، بحيث أنه قتل منهم فى يوم واحد ثلثمائة وثلاثون رأساً<sup>(١)</sup> مما جعل المماليك يتخفون فى زى الفلاحين<sup>(٢)</sup> أو يلبسون ملابس حرافيش القاهرة وهم صعاليكها أو فقراؤها . كذلك عمد العثمانيون إلى قتل الأهالى بوحشية لانظير لها خاصة وأن سليماً وهو فى الشام كان قد هدد إذا ما دخل القاهرة - مصر - أن يحرق بيوتها قاطبة واللعب فى أهلها بالسيف<sup>(٣)</sup> فكانوا يقتلون الأهالى ويربطونهم من رقابهم بالحبال ، لافرق بين أعيانهم وخدامهم<sup>(٤)</sup> ومع أنه أعلن الأمان للناس ، إلا أن سليماً كما يلاحظ ابن أياس لم يكن له أمان<sup>(٥)</sup> ، وفى الوقت ذاته ساد النهب فى القاهرة ، بحجة البحث عن المماليك ، بحيث صار الجند العثمانيون ينهبون مايلوح لهم ، فلم يتركوا خيلاً ولا بغالاً ولا أقمشة ولا قليلاً ولا كثيراً<sup>(٦)</sup> . وقد دخل سليم نفسه القاهرة فى ٣ محرم عام ٩٢٣ هـ / ٢٦ يناير ١٥١٧م<sup>(٧)</sup> وكان قد سبقه إليها الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله ، برفقة العثمانيين ، ونادى بالأمان وهدفه من ذلك أسباغ الشرعية على الحكم العثمانى وتهيئة الجو لدخول سليم إلى القاهرة<sup>(٨)</sup> وقد أثار دخول العثمانيين فزعاً كبيراً بين أهل مصر وشبه دخولهم القاهرة بدخول هولاكو بغداد ، وأن ماجرى فى مصر بسبب ذلك ، لم يحدث مثله منذ أن دخلها البابليون فى الزمن القديم<sup>(٩)</sup> .

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٤٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٧ .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٤٩ .

(٣) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٤٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٦ .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٥٠ .

(٥) نفسه ، ج ٥ ، ص ١٥٠ .

(٦) نفسه ، ج ٥ ، ص ١٥٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٦ .

(٧) نفسه ، ج ٥ ، ص ١٥٥ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٨) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٥٥ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٩) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٧ .

ولكن ما يحس سليم وهو فى القاهرة ، ولم تمض خمسة أيام على انتصار العثمانيين عليه ، إلا طومان باى يطوقها معتمداً فى هذه الحرب على مؤازرة المصريين من أحياء القاهرة وخاصة من حى بولاق ، ومن رماة البندق من العبيد ، ولعل هذه أول مرة يشترك فيها المصريون فى مقاومة العثمانيين إذ أنهم بحسهم الوطنى قدروا أبعاد الكارثة التى وصلت بهم نتيجة لمجىء العثمانيين لمصر ، فلم يكن من الممكن أن يقفوا سلبين على طول الخط من هذا النضال بين المماليك والعثمانيين ، وخاصة أن أهل القاهرة كان لهم دور إيجابى فى اختيار طومان باى سلطاناً عليهم<sup>(١)</sup>.

ففى ليلة الأربعاء الخامس من محرم عام ٩٢٣ هـ / ٢٩ من يناير ١٥١٧ م ، تمكن طومان باى من تسريب أتباعه فى حاراتها حتى وصلوا إلى معسكر سليم ، حينئذ أطلق فيه جمالا محملة بمادة مشتعلة ، مما جعل معسكر سليم يشتعل بالنار ، وظن سليم أنه مأخوذ لامحالة ، فاستمرت مقاومة المماليك ومعهم المصريون أربعة أيام وليالى إلى يوم السبت ظهراً فيها على العثمانيين . وبسبب انتصار طومان باى فإنه خطب له فى الجمعة ، مع أنه فى الجمعة الماضية كان قد دعى لسليم<sup>(٢)</sup>.

ويبدو أن حرب الحارات التى أكره عليها العثمانيون لم تعد تلائمهم ، مما جعلهم يلجأون إلى تكتيكهم السابق فى الحرب بالبارود وحده ، الذين يعتمدون عليه فى حرب ناجية لتفوقهم فطلعت الانكشارية من رماة البندق إلى المآذن والأهالى على وقف المقاومة ، وخاصة وأنهم قد تعبوا من القتال المستمر طيلة هذه الأيام ، دون راحة فانسحب الجميع بما فيهم المماليك ، بحيث لم يبق إلا طومان باى وحوله رماة البندق من المصريين ، وبعض خاصة مماليكه - ممالك سلطانية - واضطر طومان باى هو الآخر أن ينسحب إلى خارج القاهرة<sup>(٣)</sup>.

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٧ .

(٢) نفسه ، ص ٣٥٧ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٥٦ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ،

وقد انتقم العثمانيون من المصريين بحرق بيوتهم ، وقتلوا منهم فوق عشرة آلاف<sup>(١)</sup> أو ستين ألفاً<sup>(٢)</sup> تركوا جثثهم فى الطرقات تنهشها الكلاب ، حتى كاد أن ينفى أهل القاهرة . نتيجة لذلك . كذلك قتل العثمانيون كل من وقع فى أيديهم من المماليك ، الذين تخفوا فى بيوتهم أو فى أماكن أخرى ، بلغ عددهم نحو ثمانمائة<sup>(٣)</sup> من الأمراء والمماليك العاديين ، بما فيهم كربناس والى مصر - الفسطاط - الذى هتف وهو يموت بحياة طومان باى فى نصرة الله<sup>(٤)</sup> .

ولقد اعتبرت هذه المحاولة الفاشلة من قبل طومان باى الكسرة الرابعة للمماليك على أيدي العثمانيين ، بعد مرج دابق ، وغزة ، والريدانية ، مما يبين انتصار العثمانيين فيها ، بالفعل إنه بعد أن إستتبت الأمور للعثمانيين فى القاهرة طلع سليم القلعة لأول مرة فى موكب حافل ، ارتجت له القاهرة وذلك يوم الثلاثاء ١١ محرم ٩٢٣ هـ / ٣ فبراير ١٥١٧ م<sup>(٥)</sup> .

ومما تجدر ملاحظته تضارب الأنباء فى الشام حول تقدم الجيش العثمانى وانعكاس ذلك على الأحداث المحلية . فقد راجت إشاعات تقول بهزيمة العثمانيين ، وحدثت اضطرابات نتيجة لذلك ، ففى صفد ثارت فتنة ضد العثمانيين وفى دمشق تحرك بعض الذعر فى ٢٢ محرم ٩٢٣ هـ / ١٤ فبراير ١٥١٧ م ، ضد أعوان العوانية من المماليك ، وضد العثمانيين فلجأ هؤلاء إلى القلعة وفى ٢٧ محرم / ١٩ فبراير استعراض وإلى دمشق ، ونائب القلعة والقاضى الرومى القوات العثمانية تحت القلعة وفى الميدان لطمأنة الأهالى<sup>(٦)</sup> .

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٦٦ ؛ محمد بن أبى السرور البكرى ، المصدر السابق ، ص ١٠٩ - ١١٠ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ١٨٩ ؛ عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٥٤ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٥٦ ؛ محمد البكرى ، تحفة الظرفاء فى ذكر الملوك والخلفاء ، ص ١١٢ .

(٤) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٨٩ .

(٥) عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٩ .

(٦) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

وردت إلى دمشق في ٣ صفر عام ٩٢٣ هـ / ٢٥ فبراير ١٥١٧م أنباء عن انتصار العثمانيين في الريدانية ، وفي ٦ صفر وردت إليها بلاغات عثمانية حول انتصار العثمانيين هذا واستيلائهم على القاهرة . وتذكر البلاغات قتل العثمانيين لكثير من العوام في القاهرة بسبب مساعدتهم للمماليك . وتشيد أيضاً بمساعدة خاير بك للسلطان سليم في الالتفاف حول خطوط دفاع المماليك ودحرهم ، وفي هذا تذكير لعوام دمشق بوجوب الخضوع للعثمانيين ، وتشجيع الموالين على غرار خاير بك ، وقد زينت دمشق لهذه الأنباء ، وأخذ العثمانيون ، إثر ذلك يوطدون نفوذهم فيها ، فبدأ بإبطال العملة القديمة ، وإصدار عملة عثمانية جديدة ، كما حضر الوالى العثماني زعماء الحارات ، وجعلهم مسؤولين عن سلوك العوام في حاراتهم<sup>(١)</sup>.

## ٢ - لجوء طومان باى إلى الصعيد والوجه البحرى :

وقد لجأ طومان باى هذه المرة إلى الصعيد في البهنسا<sup>(٢)</sup> فأقام فيها فيها متخذاً من النيل كخط دفاعى له ، بأمل أن يعاود الهجوم في الوقت المناسب . وفي الوقت نفسه لجأ سليم إلى الحيلة مع طومان باى فأرسل له أماناً مع القاضى عبد السلام البكرى مع مندوب الخليفة<sup>(٣)</sup> يعينه فيه على بلاده مدى الحياة ويرضى أن تكون له الخطبة والسكة ، وحمل الخراج إليه ، إلا أن المماليك المتطرفين قتلوا الوفد ، ويبدو أن العثمانيين الذين استولوا على القاهرة ، وأثبتوا قدرتهم العسكرية كانوا يحاولون كسب الوقت للإيقاع بطومان باى الذى سيبقى شوكة في جنبهم إذا لم يقض عليه ، وربما كانوا مضطرين لتسوية الأمور بسرعة في مصر ، نظراً لورود أنباء عن تحرك الشاه إسماعيل الصفوى في منطقة آمد والرها وطرده الحكام العثمانيين منها<sup>(٤)</sup>.

(١) عبد الكريم رافق ، ص ١٠٨ .

(٢) البهنسا : يعتبر هذا الإقليم من الأقسام الإدارية القديمة العهد ، وسمى في عهد الفراعنة باسم واهو ، وقاعدته مدينة برميت ( البهنسا ) وسمى باسم أوكسير نسيث في عهد البطالسة والرومان ، وسمى باسم كور البهنسا في عهد العرب ، وسمى بعول البهنسا في عهد المماليك الجراكسة وباسم ولاية البهنسا في عهد الدولة العثمانية . ( انظر : محمد رمزي ، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، ج ٣ ، ص ٦ ) .

(٣) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٥٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٩ .

(٤) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥٧ - ٥٨ ؛ جلال يحيى ، مصر الحديثة ، الإسكندرية بدون تاريخ ، ص ١٠٨ - ١٠٠ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ - ١١٠ .

وفى تلك الأثناء ، كان طومان باى قد قوى بكثرة من أتاه من العسكر ، حيث جند أهل الصعيد والأسكندرية والعربان وزحف بهم من جديد إلى الجيزة<sup>(١)</sup> وفى محاولة لكسب المؤيدين له ، أعلن طومان باى إلغاء ضريبة الخراج لمدة ثلاث سنوات ، فهرع لتأييده كثير من الفلاحين<sup>(٢)</sup> وخرج إليه سليم بنفسه ، وفى صحبتة ابن الغورى سيدى محمد ليناوى به طومان باى<sup>(٣)</sup> بمذيعته التى وضعها على شواطىء النيل . ومع عدم تكافؤ قوة الأخير مع سليم إلا أنه قرر أن يخوض المعركة ، فكانت بالنسبة له ، ولزملائه أمراء المماليك ملحمة من ملاحم الفروسية النادرة . وقد رمى سليم فى هذه المعركة رماة البندق والمدافع<sup>(٤)</sup> بحيث زلزلت الصحارى من حولها ، وكانت نتيجة المعركة أن قتل معظم من كان مع طومان باى من الأمراء والجند<sup>(٥)</sup> . ولكن الخيانة أخذت تدب فى صفوف طومان باى ، فهرب الغزالى ، ومن معه من أمراء المماليك وانضم إلى العثمانيين بعد أن انكشف تواطؤه معهم ، وكان يطمع بمنصب كبير . وانضم أيضاً إلى العثمانيين جاثم السيفى كاشف<sup>(٦)</sup> الفيوم بعد أن وعده سليم الفيوم إقطاعاً

(١) محمد بن أياض الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٦٢ : عبد المنعم ماجد ، التاريخ ، ص ٣٥٩ ، أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٣) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٤) محمد ابن أياض الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٥) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٦) الكاشف : وهى كلمة مأخوذة من الفعل كشف فى العربية ، لأن فى وظيفة الكاشف أن يكتشفوا أحوال المديرىات ، وهذا اللقب لم يكن معروفاً فى الإمبراطورية العثمانية ، وكان الكشاف أقل مرتبة من السنجق ، وكانت الكشوفية ( الكاشفية ) عبارة عن وحدة إدارية مالية ، على رأسها أحد البكوات المماليك برتبة كاشف له حق الإشراف على مجموعة من المقاطعات التى تقم داخل حدود الكاشفية ، ولم تثبت حدود الكاشفيات على وضع ثابت فكثيراً ماتحولات بعض الولايات إلى كاشفيات ، مثل المنصورة وأسيوط والجيزة والفيوم ، وأحياناً كان يفصل جزء من ولاية ليكون وحدة إدارية قائمة بذاتها ، مثل فارسكور التى فصلت عن ولاية الجيزة فى عام ٩٧٧ هـ / ١٥٧٠م بقصد إخراجها من حوزة القبائل العربية المسيطر عليها . ( انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص ٧ - ١٣ ، القاهرة ١٩٧٨ ) وكانت مهمتهم تنحصر فى الإشراف على جسر النيل وصيانتها ، والإشراف على جميع الضرائب والأموال فى كشوفاتهم ، وإرسالها إلى الخزانة العامة بالقاهرة ، والإشراف على الأمن وحماية القرى من البدو . ( انظر ، جلال يعقوب ، المرجع السابق ، ص ١٦٥ - ١٦٦ ) .

وعينه مستشاراً له ، وانفض عرب هواره <sup>(١)</sup> الأشداء بالصعيد عن التأييد بعد أن أدركوا أن قضية طومان باى أصبحت خاسرة ، وأن العثمانيين يفتكون بالأعداء بالأسلحة النارية . وقد استخدم العثمانيون الأمراء المتضمنين إليهم فى قتال المماليك ، وكان هذا إضعافاً لجبهة طومان باى مع العثمانيين <sup>(٢)</sup> وقد حفظ السلطان سليم هذا الجميل لهم وثبتهم فى حكم الصعيد <sup>(٣)</sup> وإذا كان عربان هواره قد رفضوا الحرب بجانب طومان باى ، فقد رفض عربان المغاربة <sup>(٤)</sup> الاشتراك أيضاً معه لكونه مسلماً يحارب مسلماً <sup>(٥)</sup> .

(١) عرب هواره : وهى قبيلة مغربية ، استقرت فى إقليم البحيرة ، ولكنها اضطرت تحت ضغط قبائل زنارة وحلفائهم من عربان البحيرة إلى الهجرة جنوباً ، وزاد نفوذهم عام ٧٨٣ هـ / ١٣٨١م فى عهد حكم الأمير برقوق ( ٧٨٤ - ٨٠٢ هـ / ١٣٨٢ - ١٣٩٩م ) ، وقد قاموا بإصلاح الكثير الكثير من الأراضى التى طفت عليها الصحراء ، ولجج الهواره دون سائر القبائل الأخرى التى هاجرت من المغرب فى توطيد أقدامهم بوادى النيل وزاد عددهم وقوى بأسهم وانتشروا فى معظم الصعيد . ( انظر ، نسيم مقار ، أضواء على تاريخ الهواره فى صعيد مصر ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ٢٦ ، ص ١٩٢ ) .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٧٤ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(٣) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥٧ - ٥٨ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ ؛ ليلى عبد اللطيف أحمد ، شيخ العرب همام وحكم جرجا ، ص ٥٣ - ٥٤ ، القاهرة ١٩٨٤م .

(٤) المغاربة : جاءت بعض القبائل المغربية ، سواء أكانت من أصول بربرية أم من أصول عربية إلى مصر ، فى فترات مختلفة ، سابقة للعصر العثمانى ، وقد استمر مجيء القبائل المغربية فى العصر العثمانى كذلك . وأتيحت لهذه القبائل المغربية فرصة الاستقرار فى الريف المصرى لمن أراد من هذه القبائل ، بينما أثر بعض هذه القبائل حياة التجوال والترحال ، بين أرجاء هذا الريف وعلى أطرافه من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، من أقصى غربه إلى أقصى شرقه ، وقد قدر للقبائل العربية التى استقرت فى بعض المناطق الريفية الزراعية أن يصبح لها وضعها على خريطة الريف المصرى ، بينما ظلت القبائل المتجولة غير مرتبطة بمنطقة معينة لأنها لا تجد بغيثها فى هذا النمط من الحياة ( انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ، تونس ١٩٨٢م ، ص ٣١ ) .

(٥) محمد بن أبى السرور البكرى ، اللطائف الربانية على المنح الرحمانية ، ص ٩٩ .

بعد فشل هذه المعركة الخاسرة الحاسمة انسحب طومان باى إلى سخا<sup>(١)</sup> حيث كان ينتشر فيها عرب قبيلة غزالة ، ولكن بسبب عداة عربانها له ، تركها بسبب أنهم كانوا قد انضموا إلى سليم فى قتاله واتجه إلى إقليم البحيرة<sup>(٢)</sup> أو لأنه كانت له علاقة ودية مع عربانها من قبيلة محارب وهم غير قبيلة غزالة وكانوا يسمون أولاد مرعى حيث كان طومان باى أطلق شيخها حسن بن مرعى من حبس الغورى لما تولى السلطنة<sup>(٣)</sup>.

وبالفعل فإن حسن بن مرعى ، وأخاه شكر ، قد أحسن استقبال طومان باى ومن معه ، حتى أن حسن بن مرعى قبل يدئ طومان باى ، وأقسم له بإيمان الطاعة هو وعشيرته . وقد أراد حسن بن مرعى أن ينزل طومان باى فى منزله مبالغة فى الضيافة ، إلا أن طومان باى فضل أن يلجأ ومن معه إلى أحد الأودية المجاورة فى قرية تروجة<sup>(٤)</sup> ولكن سليماً عن طريق

---

(١) سخا : هى من القرى القديمة ذكرها جوتيه فى قاموسه باسمها المصرى Khast و Khasouout و Skhaouout واسمها الرومى Xoïs والقبطى Skhouy وهى سخا قاعدة القسم السادس بالوجه البحرى قديماً ، وذكر لها أميلينو فى جغرافيته اسماً قبطياً آخر وهو . Sekhōou .

وهى من أعمال الغربية ( انظر : محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، الجزء الثانى ، ص ١٤١ ) .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٦٨ .

والبحيرة هى الأقسام الإدارية التى استحدثت فى عهد العرب باسم كورة البحيرة ، وفى أيام الدولة الفاطمية أضيفت إليها كور أخرى مجاورة لها فصارت إقليماً كبيراً باسم البحيرة ، وفى عام ٧١٥ هـ / ١٣١٥م أطلق عليها أعمال البحيرة ، وفى سنة ٩٣٤ هـ / ١٥٢٧م ولاية البحيرة ، وفى سنة ١٢٤٨ هـ / ١٨٣٢م مديرية البحيرة ، ثم فى عام ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠م محافظة البحيرة . وكانت أيام العثمانيين من الولايات الخمس الكبرى . ( انظر : أحمد جلى عبد الغنى ، أوضاع الإشارات فى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، تحقيق محمد فؤاد الماوى ، عام ١٩٧٨م ، ص ٧٥٦ ) .

(٣) عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١٧٢ .

(٤) تروجة : هى من البلاد المصرية القديمة وردت معجم البلدان بأنها قرية بمصر من كورة البحيرة من أعمال الإسكندرية أكثر مايزرع بها الكمون ، قال وقيل اسمها ترونجة ووردت فى التحفة تروجة من أعمال البحيرة .

وقد اندثرت هذه القرية ومكانها اليوم تروجة الواقع بحوض تروجة رقم ٨ فصل أول بأراضى ناحية زاوية صقر بمركز أبو المطامير بالبحيرة ( انظر محمد رمزى ، القاموس الجغرافى فى القسم الأول ، البلاد المتروسة ، ١٩٠ ) .

جان بردى الغزالي ، اتصل بعربان أولاد مرعى ، ووعد حسن بن مرعى ، أن سلمه طومان باى ، فإنه يقدمه على جميع مشايخ العربان فى مصر ، ويجعل أرضه التى فيها إقطاعاً له ، ولا يأخذ دراهم<sup>(١)</sup> ويبدو أن حسن بن مرعى ، قد استجاب لطلب سليم ، إذ مالبث أن جاءت الخيل العثمانية لأخذ طومان باى ، فقاوم الأمراء القليلون من حول طومان باى على غير جدوى ، وإن استطاع الأمير شريك وحده الإفلات ، أما طومان باى الذى كان يعرف أنه مأخوذ لم يبد أى مقاومة ، حينما أحاطت به العسكر العثمانية ، وهى تقدر أنها وقعت على فريسة عظيمة<sup>(٢)</sup> وسلم الأمر أحمد بن بقر من زعماء الشرقية الأمير شريك ، إلى السلطان سليم محاولة منه للتقريب للعثمانيين للاعتراف بسلطنته<sup>(٣)</sup> .

وحينما وصلت البشرى لسليم بالقبض على طومان باى ، وأنه فى الطريق إليه ، أبدى ارتياحه العظيم ، وقال الآن ملكنا ملك مصر وأمر بالزينة فى القاهرة ومصر<sup>(٤)</sup> - الفسطاط - وجعل الطبول والكوسات - نوع من الطبول - تدق فى أرجائها . فزين الناس مضطرين جميع البيوت والدكاكين ، والناس لا تعلم سبب الزينة<sup>(٥)</sup> وسرعان ما علمت بعد ذلك وهى لا تكاد أن تصدق أن طومان قد قبض عليه<sup>(٦)</sup> .

ولما وصل طومان باى أمام سليم ، استقبله ، وقد أحاط به خاير بك وجان بردى الغزالي والوزير يونس باشا ، وقد وقفت العساكر العثمانية على حسب مراتبها ، وأسلحتها من البنادق فى أيديها ، فسلم طومان باى سلام الملوك ، فرد عليه سليم كما يجب ، ولم ينتقص فى سلامه ، وقد استمر طومان باى واقفاً ، إلى أن أمره بالجلوس فجلس . ودارت مناقشات وانتهى الأمر بأن قرر سليم شتى طومان باى على باب زويلة<sup>(٧)</sup> وجد أن حبل المشنقة معد له ،

(١) محمد بن أبياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٧٤ ، أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٢) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١١١ ؛ عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١٧٤ .

(٣) أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

(٤) نفسه ، ص ١١٨ .

(٥) نفسه ، ص ١١٨ .

(٦) عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١٧٥ .

(٧) باب زويلة ، بناء أمير الجيوش بدر الدين الجمالى عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م وهو وزير المستنصر بالله ، وهذا الباب باق إلى الآن . ( انظر تقي الدين المقرئى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقرئية ، ج ١ ، ص ٣٨٠ ) .

فأسرعوا به وأنزلوه عن البغلة بقصد شنقه من غير مهلة ، فتقدم طومان باى نحو الحبال بقلب جسور ، وحوله جنود العثمانية مسلولة السيوف ، فطلب طومان باى من الناس قراءة الفاتحة له ثلاث مرات قرأت والناس معه ، ثم قال للمشاعلى<sup>(١)</sup> أعمل شغلِكَ ، فكاد الحبل يقطع به مرتين ، وفى كل مرة يعلقوه من جديد ، وشنق إلى أن مات ، وكان شنقه يوم الأحد ٢١ ربيع الأول عام ٩٢٣ هـ / ١٥ أبريل ١٥١٧ فأكّد بذلك نفوذه سليم وقضى على الشائعات القائلة بأن طومان باى مازال طليقاً<sup>(١)</sup>.

وصلت أنباء إلى دمشق فى ٨ ربيع الثانى عام ٩٢٣ هـ / ٣٠ أبريل ١٥١٧م أنباء القبض على طومان باى ، وأعلن نبأ شنقه فى اليوم التالى ، وأمر بتزيين دمشق مدة سبعة أيام . وقد تعاظم نفوذ العثمانيين فى الشام وتوطدت سلطتهم ، وقاموا بعد ذلك باتخاذ إجراءات هامة كتخفيض سعر العملة العثمانية بمقدار النصف ، فتضرر الدمشقيون كثيراً ولكنهم لم يجرؤا على الثورة واتخذت إجراءات أمن مشددة لردع الخارجين على القانون ، وإعدام إثنان من اللصوص ، وأقيمت الخوازيق<sup>(٢)</sup> فى الحارات لإرهاب الأهالى وأوعز للوالى والقاضى والدفتردار بضبط الممتلكات خارجها وبالتفتيش على المستندات المتعلقة لمعرفة النذور فيها كما طلبت مستندات الأوقاف لتوقيعها . وهكذا نرى كيف استغلت انتصارات العثمانيين فى مصر لإدخال كثير من التنظيمات فى الشام<sup>(٣)</sup>.

وقد قام السلطان سليم إثر القضاء على طومان باى ، ببعض الإجراءات الإدارية فى مصر . ولم تكن هذه شاملة أو ذات صبغة عثمانية جذرية ، بل كان الهدف منها كعادة العثمانيين بعد

(١) المشاعلى : هو الشخص المكلف بتنفيذ حكم الإعدام .

(٢) الخازوق : عبارة عن عمود حديدى يسمى un Pieu يقوم الجندى المختص بتسخينه بالنار حتى يتوهج العمود بالإحمرار من شدة الحرارة ثم يقوم الجلاد بإجلاس من يرد تعذيبه حتى الموت على الطرف المدبب لهذا العمود الذى يتغلغل فى جسمه من فتحة الشرج بفعل السخونة ويتأثير وزن الجسم وثقله حتى يصل إلى الأمعاء فيمزقها . وكانت هذه الطريقة تستخدم فى مصر والشام إبان عصر دولتى المماليك والعصر العثمانى والحملة الفرنسية وحكم محمد على .

وقد أدخلت هذه الطريقة فى أيام حكم السلطان محمد الثانى والعامه فى مصر تقول « الخوزق يشتم السلطان وذلك لأن سب السلطان كان يستوجب الإعدام الفورى فكان الشخص الذى يموت بتلك الطريقة البطيئة بسبب السلطان لكى يعدم فوراً حتى يتخلص من عذاب الموت البطيء على الخازوق . ( انظر : أحمد جلى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ٩٢٦ - ٩٢٧ ) .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

فتوحاتهم تسيير الأمور بشكل مؤقت والإبقاء على الإدارة المحلية بكاملها تقريباً ، ريثما تصدر تنظيمات أشمل وأدق . وقد عين السلطان سليم جانم السيفى كاشفاً على البهنسا والفيوم مكافأة له على دعمه العثمانيين كما عين زميلاً لجانم إينال السيفى على الجيزة وأقليم الغربية ، واعترف بقضاء المذاهب الأربعة ، كما كان عليه الأمر زمن طومان باى وأبقى امتيازات أصحاب الإقطاعات والأرزاق<sup>(١)</sup> ، الأوقاف من الماليك وأولاد الناس على ما كانت عليه . وقد خلع على الأمير على بن عمر شيخ قبيلة هواره فى الصعيد ، وأبقى له إمارة الصعيد التى كانت مركزها فى جرجا ، وكذلك أبقى أكثرية أمراء البدو الآخرين فى إمارتهم<sup>(٢)</sup> .

وقد أمر السلطان بإرسال عدد من أصحاب الحرف والصنائع إلى استانبول بحراً بطريق الاسكندرية للاستفادة بخبرتهم . وذكر أن البنائين والنجارين والحدادين والمبلطين ، من مسلمين ومسيحيين ، ممن أرسلوا من مصر إلى استانبول سيستخدمون فى بناء مدرسة على غرار مدرسة السلطان الغورى فى القاهرة . وقد أمر السلطان سليم أن يجلب بالمقابل ، من استانبول إلى مصر عدد من أفراد ، لم تذكر المصادر المحلية هوياتهم أو نوعية مهنتهم . ويبدو أن هذا الإجراء يتفق مع عادة مألوفة فى الدولة العثمانية ، بإجراء تنقلات بين السكان إثر الفتح، لنقل الخبرات ، أو لترسيخ الصبغة العثمانية فى البلد المفتوح . وقد أرسل أيضاً من

---

(١) الرزق : جمع رزقة ، وهى الأراضى الزراعية المحبوس على أوجه البر والخير ولايفرض عليها مال . (انظر : محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ، ص ٣١ ، هامش ٣ ) وكانت تمثل مساحات واسعة من الأرض ، فى جهات عديدة من البلاد ، أنعم بها السلاطين السابقون على بعض الناس ، وأصبح حق الانتفاع بها ينتقل بالميراث للورثة . وأصبح لأصحابها حق الانتفاع أن يتصرفوا فيها فى كافة وجوه الانتفاع ، وكان أكثر أراضى الرزق موقوفاً على مكة والمدينة ، وأسبلة لسقى الناس ، وأحواض لسقى الدواب ، ومقارء لتلاوة القرآن وبعض الأشراف ، وكانت أراضى الرزق معفاة من الضرائب ، ولايدفع عنها للروزنامة إلا ضريبة رمزية باسم مال حماية ، نظير حماية رجال الإدارة لهذه الأراضى ، من العبث بها أو السطو عليها ، ولذا فإن بعض الملتزمين لجأ إلى عمليات الاحتيال فى رصد جزء من الأراضى الداخلة فى التزاماتهم على أعمال البر وجعلوا الجزء الأكبر من هذه الأراضى وقفاً على ورثتهم وأرقائهم ، وكان السائد أن يلجأ الملتزم إلى وقف جزء من أراض وسبته ولايلجأ إلى وقف أراضى الفلاحة إلا نادراً . ( انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى ، فى القرن الثامن عشر ، ص ٦٩ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

مصر إلى أستانبول عدد من كبار المماليك وأسرههم . وسمح السلطان سليمان القانوني فيما بعد لكثير من هؤلاء بالعودة إلى مصر<sup>(١)</sup> .

وقام السلطان سليم بزيارة إلى الإسكندرية ، وعين نائباً عنه في القاهرة يونس باشا . ثم عاد منها وبدأ يستعد لمغادرة مصر بعد أن وصلتته أنباء عن تحركات الشاه إسماعيل الصفوي<sup>(٢)</sup> .

وتلقى السلطان سليم وهو في مصر وفداً أرسله الشريف بركات شريف مكة ، الذي قدم إليه الخضوع ، فأقره سليم في شرافته وحرّضه على قتل حاكم جدة المملوكي . وأبقى سليم على نظام الشرافة كما كان من قبل مع إنشاء صنجقية عثمانية في جدة أطلق عليها العثمانيون اسم ولاية الحبش . وعين عليها حاكماً عثمانياً يدعى حسين الرومي وكان مرتبطاً بوالى مصر خاير بك<sup>(٣)</sup> . وهكذا ظهر العثمانيون في البحر الأحمر وأخذوا يعملون على إنقاذ هذا البحر من الخطر البرتغالي الزاحف من المحيط الهندي . ولما كان هدف السياسة العثمانية في البحر قائماً - كما يرى بعض المؤرخين المحدثين - على أساس أحياء تجارة الشرق في البحر الأحمر ومصر<sup>(٤)</sup> . وصنع سليم كما فعل في دمشق كسوة للمحمل الشريف ، مما أكسبه عطف المسلمين . وقد ترك من عسكره لدى خاير بك نحو خمسة آلاف فارس ونحو خمسمائة رام بالبندق ، وعين أميراً عثمانياً هو خير الدين باشا نائباً على قلعة القاهرة . ثم غادر سليم مصر في ٢٣ شعبان عام ٩٢٣ هـ / ١٠ سبتمبر ١٥١٧م متجهاً إلى دمشق . وكان قد خرج قبل ذلك إلى أستانبول الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله بناء على أوامر سليم<sup>(٥)</sup> . ويبدو أن إخراج الخليفة من مصر قصد منه عدم تمكين أى تأثير محلى من استغلال سلطته الدينية ضد العثمانيين . كما أن إقامة الخليفة في أستانبول يضافى عليها مجداً دينياً كمركز لزعيم المسلمين . ولم تذكر المصادر المحلية بعد ذلك ، ماحل بالخليفة العباسي أو بخلفائه .

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٢) نفسه ، ص ١١١ .

(٣) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص ٩٥ .

(٤) محمد بن أبياس الحنفى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٧٧ - ٢٠٦ ؛ أحمد بن زنبيل الرمال ، المرجع

السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٨ .

(٥) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

وبقى السلطان العثماني وحده زعيم المسلمين ، رغم أنه لم يتخذ لقب خليفة ، بشكل جدى حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وذلك فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، وباستيلاء العثمانيين ورثوا السلطنة المملوكية ومسئولياتها فى حماية الحرمين الشريفين ، وأصبحت بذلك زعيمة المسلمين السنيين<sup>(١)</sup> .

وصل السلطان سليم إلى دمشق فى ٢١ رمضان ٩٢٣ هـ / ٧ أكتوبر ١٥١٧ م ، وقد أصبح العثمانيين فيها أكثر استقراراً عما كان عليه يوم دخلها السلطان سليم فاتحاً . وقد عرفنا كيف أنه حاول أنذاك التقرب من الأهالى بإعفائهم من بعض التنظيمات العثمانية الضارة بهم ، لأن الخطر المملوكى لم يقض عليه بعد . ورأينا أيضاً كيف أن كل انتصار للعثمانيين على المماليك فى مصر كان يتلوه اتخاذ إجراءات غير شعبية فى بلاد الشام ، واهتم السلطان سليم فى دمشق بأمور ثلاثة<sup>(٢)</sup> :

- أدخل بعض التنظيمات العثمانية فى دمشق ، بقصد إيجاد المال للدولة .
- توطيد السلطنة العثمانية خارج دمشق لإيجاد الاستقرار ولحماية قافلة الحج .
- الانتقال بسرعة إلى الأناضول لمواجهة خطر الشاه إسماعيل الصفوى .

ولم تكن التنظيمات العثمانية فى دمشق شاملة أو عقيمة على غرار التنظيمات العثمانية التى تمت فى مصر ، تسيير الأمور بصورة مؤقتة . وبعد يومين من دخول السلطان سليم إلى دمشق أى فى ٢٣ رمضان / ٩ أكتوبر أمر العثمانيون عرفاء الحارات ونفراً من أكابرها بحصر البيوت فى دمشق وكتابة أسماء أصحابها استعداداً لفرض ضريبة على كل شخص فيها . وبالفعل فرض أشرفى<sup>(٣)</sup> على كل شخص ، ولكن نظراً لاستياء الناس من ذلك عمد

(١) عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص ٩٥ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

(٣) الأشرفى : يعرف بالشريفى طره لى أو الطره لى أو الطرلى نسبة إلى الطراء ( الطغراء ) وهو نقد ذهب تركى ضرب فى عهد السلطان مصطفى الثانى ( ١١٠٦-١١١٥ هـ / ١٦٩٤-١٧٠٣ م ) وكان يزن ٢,٦ جرام ، وأطلق عليه فى الدولة العثمانية ( طغرى التون ) طغراً نسبة إلى نقش الطغراء أو الطره باسم السلطان على أحد وجهى العملة ، وقد أطلق عليه الجبترى الجنزولى أو المحبوب الجنزولى نسبة إلى الحلقة المشرشرة لهذا النقد وهى أشبه بالإطار أو الجنزير ( انظر : عبد الرحمن فهمى ، النقود المتداولة أيام الجبترى ، ص ٥٧٥ - ٥٧٦ ) .

العثمانيون إلى حساب ما يمكن أن تجمع هذه الضريبة من المال ، ووزع مجموع ذلك ، بشكل متفاوت على السكان حسب مراتبهم في الفقر قد خففوا أعباء الطبقات الفقيرة ، دون أن يخسروا شيئاً من المال . وقد فرض العثمانيون إلى جانب ذلك ، ضريبة من القمح على كل حارة في دمشق . وزاد في تضجر الناس من العثمانيين هجوم كثير من عساكرهم على البيوت للسكن فيها ، وطلب القاضى العثمانى محاسبة نظار الأوقاف على وارداتهم<sup>(١)</sup> .

وقد أمر السلطان سليم ببناء جامع وتكية عند قبر محى الدين بن عربى فى الصالحية . ومن شأن ذلك أن يكسبه عطف من رجال الدين وخاصة من الصوفية فى دمشق . وسمح العثمانيون لأصحاب الإقطاعات بالبقاء فى إقطاعاتهم ، ولأرباب الوظائف المدنية بالبقاء فى وظائفهم . ولابد أن هذا الإجراء قد أَرْضَى كثيراً من المنتفعين ، ورغم استمرار كثير من التنظيمات المملوكية التى كانت فى صالح جان بردى الغزالى فى المستقبل . وقد وطد العثمانيون الأمن والهدوء فى دمشق ، وفتكوا باللصوص الذين حاولوا استغلال تبديل السلطة السياسية ، فحفظوا بذلك هيبة حكمهم وحافظوا على أموال الناس وأمنهم . وهكذا نرى أن العثمانيين وازنوا فى سياستهم بين الاستثمار والتسامح فى سبيل استمرار حكمهم<sup>(٢)</sup> .

واتخذ سليم إجراءات تنظيمية خارج دمشق ، فأبقى الأمراء المحليين الذين أبدوه ، وأزال من السلطنة الذين عارضوه . وقد حاول أولاً القضاء على أمير البقاع البدوى ناصر الدين بن الحنش بسبب ازدياد نفوذه وتحكمه بمنطقة البقاع الغنية التى تمر فيها الطرق الرئيسية بين دمشق وبيروت ، وأيضاً بسبب إيوانه كثيراً من المماليك الفارين . فهرب ناصر الدين إثر سماعه بخروج سليم بنفسه على رأس حملة ضده . وعين السلطان سليم مكانه الأمير محمد بن قرقماش الشركسى ، وأضاف إليه حكم بيروت وصيدا . وقد تضرر الأمراء التنوخيون فى جبل لبنان بسبب تأييدهم لناصر الدين فيما بعد . وكان الأمراء التنوخيون زعماء جبل لبنان زمن المماليك ، إلا أنهم خسروا هذه الزعامة لصالح المعنيين ، وزعيمهم فخر الدين ، الذين أبدوا العثمانيين فى معركة مرج دابق ، فاعترف بهم العثمانيون بهم أمراء على جبل لبنان ، وقدم أمير منطقة صفد البدوى ، ابن طراباى ، خضوعه للسلطان سليم ، فاعترف بسلطته ، وجعله

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٣ .

(٢) نفسه ، ص ١١٤ .

نائباً على صفد . وكان سليماً مهتماً بسلامة الحاج ، ولم يخرج الحاج عام ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م خوفاً من اعتداء البدو عليهم<sup>(١)</sup> .

اشتد تهديد الصفويين لمقاطعات العثمانيين فى شرقى الأناضول ، حين كان السلطان سليم منشغلاً فى قتال الماليك فى مصر . واستمرت أنباء تهديد الصفويين ومناوشاتهم مع العثمانيين تصل سليم حين كان فى دمشق ، وعززت تبعاً لذلك ، الحامية العثمانية فى ديار بكر وإزاء هذا الوضع وبعد غياب فى بلاد الشام ومصر دام سنة ونصف ، غادر سليم دمشق فى ١٠ صفر عام ٩٢٤ هـ / ٢١ فبراير ١٥١٨ م وكان قد عزل عنها وإليها شهاب الدين أحمد بن بخشى الرومى ، فعين بدلاً منه جان بردى الغزالى الذى كوفىء أخيراً على خيانة الماليك ، ونال ما طمع إليه على غرار خاير بك . وكانت المنطقة التى عهد إليه بولايتها تمتد من معرة النعمان إلى عريش مصر . وقد عين ولى الدين بن الفرفور الدمشقى لمنصب القاضى الحنفى فى دمشق ، وجعل قضاة المذاهب الأخرى فى ولاية الشام تحت إمرته . وفى ٢٣ رمضان ٩٢٤ هـ / ٢٨ سبتمبر ١٥١٨ م . وصلت إلى دمشق أنباء عن استيلاء العثمانيين لبعض القلاع التى كانت استولت عليها قوات الشاه إسماعيل الصفوى<sup>(٢)</sup> .

### ٣ - أسباب ضعف الماليك ونهاية دولتهم :

يرجع هذا الضعف إلى جذور عميقة على رأسها :

أولاً : فساد النظام الإقطاعى ، الذى قام على أساسه الحكم المملوكى ، وعجز هذا الحكم عن الوفاء بالمطالب الأساسية لبقائه ، فالدولة المماليكية دولة إقطاعية بيروقراطية يسند وجودها اقتصاد متين وجيش قوى ، وأرض مصر التى هى ملك السلطان توزع إقطاعيات على جنده وأى هزة زراعية معناه إنهيار النظام وبالتالي الدولة ، وإذا حرصت الدولة ، عندما عجزت الأرض التى أهملوها عن الإيفاء بمتطلباتهم ، على البحث عن موارد مالية جديدة تتمثل فى رفع الضرائب وتحصيلها مقدماً ، ثم تنشيط التجارة عبر بلادهم تعويضاً عن هذا النقص المادى . وقد ساعدهم على هذا تحول التجارة نحو مصر والشام وتدفق الأموال على خزائنها . وكلما زادت احتياجاتهم زاد تعلقهم بالتجارة ، واحتكارهم لكل مصادرها ،

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(٢) نفسه ، ص ١١٥ .

فأقصوا عنها الكارمية ، وتسلموها على غير مران وأجبروا التجار الأجانب على شراء التوابل الشرقية قسراً وبالسعر الذى يحدده ، والويل والعقاب للمتنع عن الشراء ما أدى إلى تدمير الأجانب وعزوفهم عن الحضور لمصر والشام وتكدس المتاجر وبنوارها . فكان هذا بالإضافة فساد نظام الاحتكار وانهيار النظام الإقطاعى الزراعى ، وجهل المالك بالنظام التجارى إيداناً بالانهيار القريب للاقتصاد وللدولة ، ولم يبق إلا وضع النقط على الحروف وإعلان الانهيار ، وتم هذا فعلاً فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر بالحدثين الخطرين : تحول التجارة ، وسقوط دولة سلاطين المماليك<sup>(١)</sup> .

ثانياً : العوامل الداخلية : التى تكمن فى طبيعة تكوين الدولة نفسها والصراع بين أمرائها على السلطة والنفوذ ، فقد اختل نظامهم الاجتماعى والحربى ، لإهمالهم الأسس التى قامت عليها تربيتهم ونشأتهم الأولى ، ولم يعودوا يصلون لمصر صغاراً يتعلمون الطاعة ويتحلون بالدين والأخلاق ، ويتدربون على الحرب وفنونها ، بل ولوا شباناً تتنازعهم أهواء واتجاهات وتعليم متضارب ، ففقدوا روح النظام والطاعة ، وحل محلها العصيان والتمرد ، وفشا بينهم التنازل عن الاقطاعيات والمقايسة بها من الباطن ، وخرجت الأراضى والذمم ، وانقسم المماليك شيعاً وأحزاباً ، يتجسسون بعضهم على بعض ، ويعمدون إلى حوادث النهب والسلب ويتنازعون السلطة والحكم . وظهر ذلك بوضوح منذ وفاة السلطان قايتباى ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦م حتى تولى الفوزى السلطة عام ٩٠٧ هـ / ١٥٠١م ، وتأرجع الحكم بين عدد كبير من السلاطين يحكم كل منهم شهوراً وأياماً ، مما يعطى انطباعاً صادقاً بمدى الفوضى وعدم الاستقرار التى سادت البلاد فى الدور الأخير من حياة هذه الدولة ، حتى أن كبار الأفراد كانوا يعزفون عن تولى السلطة خوفاً من القتل . كما فعل قنصوه الفورى الذى اشترط لقبوله الحكم ألا يقتلوه إذا أرادوا عزله ، ولكن كانت الأحداث السياسية أقوى من أمنياته ، حتى أن مماليكه الجلبان كثيراً ما عصوه بسبب النفقة<sup>(٢)</sup> .

ثالثاً : العوامل الخارجية : التى تضافرت جميعها لهدفين أساسيين أولهما القضاء على مصدر ثراء الدولة المدعم لقوتها العسكرية ، وهو التجارة فى المياه الشرقية والتحكم فيها بين

(١) نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومخطاتها بين الشرق والغرب ، أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٣٧٠ .

(٢) نعيم زكى فهمى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .

الشرق والغرب . وثانيهما القضاء على الدولة ذاتها ، ووقع الهدف الأول على عاتق القاطنة والبرتغاليين ، فى حين وقع الثانى على عاتق العثمانيين ، مع ما بين الطرفين من تباعد وتناقض وإن اتحدت الأهداف . ويقترن العمل الأول كذلك بنمو القوميات فى أوروبا ، وخاصة فى البرتغال وأسبانيا ونجاح الأخيرة فى إنهاء الحكم العربى فى الأندلس عام ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م . أما محاولة تعقب العرب فى عقر دارهم ، فقد وقع عبؤه على البرتغاليين الذين حاولوا الاتصال بملك الحبشة المسيحى لتطويق الممالك، وفى سبيل ذلك داروا حول إفريقيا ، ووصلوا للهند، ودمروا الأسطول المالىكى فى وقعة ديو ٩١٥هـ / ١٥٠٩م ، وأنهوا السيطرة المالىكية على المياه والتجارة الشرقية منذ مطلع القرن السادس عشر . أما الهدف الثانى فقد وقع على عاتق العثمانيين<sup>(١)</sup>.

أما عن العلاقات المصرية العثمانية بعد ذلك فقد قضى العثمانيون على السلطة المملوكية وفتحوا سوريا ومصر فى ١٥١٦-١٥١٧، بما يشكل مرحلة كبرى فى العملية المزدوجة الخاصة بتكوين اقتصاد عالم عثمانى وإعادة بناء جماعة موحدة من المؤمنين . وينبع إدماج العالم العربى فى النظام العثمانى من هذه الأزمة المزدوجة : بداية تحول الطرق التجارية التقليدية إلى الهند، والراجع إلى اكتشاف البرتغاليين للطريق البحرى الذى يمر برأس الرجاء الصالح، وتصعد المجال الإسلامى السنى فى القرون الأخيرة للعصور الوسطى، والناشئ عن تحول الإسلام الشيعى فى فارس إلى دين للدولة تحت قيادة الصفويين<sup>(٢)</sup>.

والحال أن السلطنة العثمانية البارزة بالفعل فى عالم الإسلام السنى بفضل فتحها للبلقان على حساب القوى المسيحية وبفضل الاستيلاء على القسطنطينية الذى يمنحها الاستمرارية الامبراطورية لروما ولبيزنطة، إنما تصبح أكثر من ضرورة للدفاع عن مصالح الجماعة فى وجه هذا الخطر القاتل المزدوج ، وبعد سنوات قليلة من فتح مصر، فإن أفريقيا الشمالية ، فيما عدا المغرب الأقصى، تنضم بدورها إلى العثمانيين، وما له دلالة أن خلافة العباسيين الشيعية فى القاهرة تختفى دون ضجيج وأن الشارات التى ترمز إلى شرعية واستمرارية الخلافة تنتقل إلى السلالة الحاكمة العثمانية التى تصبح حارسة للمدن المقدسة وحامية للحج وخلال الأزمة

١- نعيم زكى ، المرجع السابق، ص ٢٧٣ .

٢- هنرى لورنس، شارل جيليسى، جان كلود جولقان ، كلود ترونيكر، الحملة الفرنسية فى مصر، بونايرت والإسلام، ترجمة بشير السباعى، دار سينما للنشر، القاهرة ١٩٩٥م، ص ٧٣ .

التالية، يكتفى الباديشهات، أو السلاطين من آل عثمان، بدمج الخلافة في الألقاب السلطانية، المتوفرة بما يكفي بالفعل. لكن أحداً لاتخامره شكوك حول ذلك، فهم يمارسون بالفعل كامل الوظائف الضرورية للدفاع عن الإسلام السنّي ضد جميع خصومه .

والواقع أن الصفويين ، في أثر نزاعات عسكرية عديدة ضاعفت منها مواجهة ايدولوجية وحرب دعائية بين الإسلام الشيعي والإسلام السنّي. وفي داخل الامبراطورية العثمانية تعرّض السكان الشيعة لقمع قاس من جراء محاولاتهم الانتفاضية وتعرضوا بشكل متواصل للتحجيم وللسيطرة وغالبا ما جرى ابعادهم أو دفعهم إلى الهرب بعيداً عن المناطق الاستراتيجية . وهذا التصدع لمجال الإسلام يجعل من الإمبراطورية المثل الجديد للجماعة الإسلامى . فهى لا جار لها غير المغرب الأقصى الذى يتميز بتقاليده الدينية الخاصة والإمبراطورية الفارسية الشيعية وهى- الامبراطورية العثمانية - لاتحتفظ إلا بعلاقات باهتة مع القوى السنّية فى أفغانستان والهند<sup>(١)</sup>.

وفى البحر الأحمر وفى الخليج العربى وفى المحيط الهندى، يبنى العثمانيون أساطيل ويحاربون البرتغاليون بل إن إسطولا عثمانيا يتحرك فى عام ١٥٣٨ من السويس لكى يصل إلى الهند ويجرى انشاء قاعدة أمامية فى اليمن. وتستمر الحرب البحرية أكثر من عشرين سنة وتكفل للعثمانيين السيطرة على البحر الأحمر، ويعاد مؤقتاً فتح الطريق التقليدى لتجارة الهند . ولم يك بوسع البرتغاليين تدبير القوة والامكانيات الضرورية لوقف تجارة البحر الأحمر بصفة مستديمة.

وكان لابد من انتظار أشكال التقدم الفنى التى عرفها القرنان التاليان ، وظهور سفن الإنجليز والهولنديين البحرية الضخمة حتى يمكن للبحر الأحمر، المحظور على الأوروبيين، أن يكف عن أن يكون مهماً من الناحية الاقتصادية كطريق للمرور بين أوروبا والهند. وقد رأى المستشرقون والمؤرخون فى القرن الثامن عشر فى نهاية تجارة الترانزيت بين الهند وأوروبا أحد الأسباب الرئيسية للانحطاط المتصور للامبراطورية العثمانية<sup>(٢)</sup>.

١- هنرى لورنس وآخرون ، المرجع السابق، ص ص٧٣-٧٤ .

٢- هنرى لورنس، المرجع السابق ، ص ٧٤ .

لقد حددت موقعة مرج دابق عام ٩٢٢هـ / ١٥١٦م الموقف بالنسبة للشام، كما حددت موقعة الريدانية عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م مصير مصر والشام معا ، وكثر الجدل حول سلطنة مصر فى وقت لا يحتمله النظام ولا الظروف التى تمر بها البلاد، فعرض منصب السلطنة على نائب السلطان طومان باى ، الذى رفض قبوله فى أول الأمر، ثم قبله بعد أن أقسم له الجميع على المصحف بعدم خيانتة وإطاعة أوامره <sup>(١)</sup>. وخضعت مصر للسيادة العثمانية ، وأصبحت ولاية بعد أن كانت مقرا للحكم ابان العصر المملوكى. وكانت لوالى مصر فى القرن السادس عشر مكانة خاصة دون الولايات الأخرى، حيث خلع خاير بك على نفسه لقب «ملك الأمراء» وكان ذلك أرفع من لقب بكلكريك (أمير الأمراء) لكنه دون لقب سلطان . كان يصبو إلى أن يكون هذا اللقب رمزا لوضع مصر الخاص كحليف للباب العالى تتميز به عن باقى ولايات السلطنة الأخرى . وكان لخاير بك جيشه الخاص وحاشيته مع برتوكول مملوكى مثالى ، كما أنه تمتع باستقلال تام فى شؤونه الداخلية، واحتفظ كذلك بالتنظيمين الدينى والإدارى السابقين فى البلاد، وحافظ على التقاليد المحلية فى حياة الدولة، وكان انكشارية مصر خلافا لانكشارية استانبول وغيرها من المدن العثمانية يتقاضون راتبا شهريا على غرار «ممالك الخندكار» <sup>(٢)</sup>.

وكان يطلق لقب بكلكريك على والى مصر فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وفى أواخر القرن السادس عشر بدأ يندر وجوده فى الوثائق العثمانية، وأخذ يحل محله تعبير «ايالت» للدلالة على ولايات الدولة الكبرى <sup>(٣)</sup>. هذا بينما كان الولاة فى جميع ولايات الامبراطورية وخاصة الولايات العربية، يعد بها إلى ولاة يحملون رتبة وزير ولقب باشا وبطبيعة الحال، كان لدرجة أهمية كل ولاية هامة من حيث عدد سكانها وحجم نشاطها الاقتصادى والدخول التى يمكن استخلاصها منها، كان لها ولاة يحملون رتبة وزارية <sup>(٤)</sup> فعقب فتح مصر عين يونس باشا الوزير الأعظم واليا عليها وبعد انتهاء مدة ولاية خاير بك بوفاته.

١- محمد بن إياس الحنفى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ٥ ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

٢- المصدر نفسه، ج ٥ ، ص ٣٦٧ ، ص ٤٠٩ .

٣- سيد محمد السيد ، تاريخ مصر فى العصر العثمانى، فى القرن ١٦ ، ص ٦٨-٦٩ .

٤- أندريه ريمون، الولايات العربية (القرن السادس عشر- القرن الثامن عشر، ضمن كتاب الدولة العثمانية ، ج ١ اشرف رويبر مانتيران، ترجمة بشير السباعى ، ص ٥٣٠ .

منحت مصر للوزير الثانى مصطفى باشا (٩٢٨-٩٢٩ هـ / ١٥٢١-١٥٢٢ م) ثم الوزير الثانى مصطفى باشا (٩٢٩-٩٣٠ هـ / ١٥٢٢-١٥٢٣ م) <sup>(١)</sup>.

ونظرا لأهمية مصر بالنسبة للدولة العثمانية ، فإنها قد قامت بتعيين وزراء القبة على بعض ولاياتها الهامة مثل مصر ، وبودين ، وبغداد ، فقد استدرك الأمر، وبدأ فى تشكيل وزارى جديد للقيام على شؤون ولايات الدولة الهامة، وعرف المنتسبون لهذا المنصب باسم «وزارة الايالة» أو وزراء الخارج، وذلك لمواجهة احتياج الدولة لرجال يمكن منحهم صلاحيات واسعة فى المناطق الحساسة منها، ويظهر هذا الأثر جلياً فى القرنين التاليين فمنذ عام ١٠٠٤ هـ / ١٥٩٥ م وامتدادا إلى عام ١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م (امتداد من القرن العاشر الهجرى إلى الثانى عشر الهجرى) بدأ تعيين أمير أمراء مصر برتبة الوزارة بصفة دائمة <sup>(٢)</sup>. وكان أيوب باشا (١٠٥٤-١٠٥٦ هـ / ١٦٤٤-١٦٤٦ م) وعلى باشا (١١٥٣-١١٥٤ هـ / ١٧٤٠-١٧٤١ م) (وأحمد باشا كور، قد تولوا منصب الصدر الأعظم قبل أن يتولوا منصب والى مصر. وكان محمد رامى باشا مفوضاً مطلق الصلاحيات للسلطان خلال التفاوض على معاهدة كارلو فيتز ثم صدراً أعظم قبل أن يصبح واليا من عام ١١١٦-١١١٨ هـ / ١٧٠٤-١٧٠٦ م) وبالمقابل فإن باشوات القاهرة السابقين، غالبا ما سوف يستدعون لتولى مناصب رفيعة ففى عام ١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م، غادر يحيى باشا القاهرة التى ظل بها لتولى مهام القابودان <sup>(٣)</sup>.

وكانت لأمير أمرائها صلاحيات واسعة فى المنطقة ، لتثبيت أقدام الإدارة العثمانية، وتعتبر هذه الولاية أو تلك مقاطعة خاص يمنح لأمير الأمراء مقابل إدارة الولاية وإعداد جنده، وتجهيزهم وخروجهم تحت قيادته وقت الحرب، فقد بدأت الإدارة العثمانية فى التعامل مع اىالة مصر بطريقة مختلفة ، حيث ضمت أراضي الولاية للدولة ، وخصص مرتب سنوى للوالى عرف باسم ساليانة، وكما منعت الادارة العثمانية بقايا الممالك من اتخاذ أراضي الولاية ، كمقاطعات مملوكة لهم، وإعادةتهم للدولة ثم منحها لهم ، أو لغيرهم بطريق الالتزام، لم تعط هذه الأراضي أيضا لأمراء السناجق ولا لكشاف الولايات كأراضي تيمار أو زعامة ، مقابل خدماتهم كما كان يحدث من قبل ، وإنما كانت تدفع لهم ساليانات (مرتبات سنوية) من

١- سيد محمد السيد، تاريخ مصر فى العصر العثمانى، ص ٧٠-٧١ .

٢- المصدر نفسه، ص ٧٢ .

٣- أندريه ريمون، الولايات العربية ... نفس المصدر، ج ١ ، ص ٥٣٠ .

حصيلة خراج النواحي الموجودة تحت إشرافهم ، وكانت ترد المبالغ المتبقية إلى خزينة الدولة<sup>(١)</sup>. وفي ظل العلاقات المصرية العثمانية، نجد أن الدولة العثمانية جعلت مصر مسؤولة عن تنفيذ سياستها ، والحفاظ على أملاكها ومصالحها في العالم الإسلامي والعربي ، ووضح ذلك عندما أعلن جان بردي الغزالي الثورة في عام ٩٢٨هـ / ١٥٢٠-١٥٢١م وحاصر حلب. وحاول الانفصال بحكم الشام، واستعان السلطان سليمان القانوني بوالى مصر خير بك ، للقضاء على هذه الثورة<sup>(٢)</sup> وتم اتخاذ الاجراءات لعثمنة الادارة تدريجيا ، حيث أرسل السلطان الداماد ابراهيم باشا فى عام ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م إلى مصر، وبدأ بالاصلاح القضائى فعوضا عن نظام القضاة الأربعة الكبار «قضاة الشرع» استحدث منصب قاضى القضاة فى القاهرة الذى أخذ فى اصدار أحكامه وفقا للمذاهب الأربعة<sup>(٣)</sup> وفى الوقت نفسه ، تم حل الجهاز الضخم من المساعدين والأمناء الذين كانوا يعاونون القضاة وهم من بلغ عددهم مئات عدة، وعين قضاة من المصريين بدلا منهم، وأعيد تنظيم إدارة الأوقاف ، وأملاك الخزينة ، وقلل الضرائب ، لكى تتفق والنمط العثمانى<sup>(٤)</sup> واجتمع بأصحاب الشكايات من الشعب واستمع إليهم، وفى جامع عمرو بن العاص<sup>(٥)</sup>.

وبالنسبة لتنفيذ والى مصر سياسة الدولة العثمانية وخاصة فى إدارة منطقة الحرمين الشريفين، فقد ارتبطت هذه الأراضي المقدسة بوالى مصر، وخاصة أنه أثناء وجود السلطان سليم الأول فى مصر، استقبل أبا نعى بن الشريف بركات الثانى بن محمد - شريف مكة الذى جاء ليعلن خضوع وطاعة والده مثلما كان يخضع سابقا للسلطان المملوكى، فأقره سليم فى شرافته، وحرضه على قتل حاكم جدة المملوكى، وأبقى سليم على نظام الحبش ، كما كان من قبل مع انشاء صنجقية عثمانية فى جدة أطلق عليها العثمانيون ولاية الجيش، وعين عليها حاكما عثمانيا يدعى حسين الرومى وكان مرتبطا بوالى مصر خير بك وهكذا ظهر العثمانيون

١- سيد محمد السيد ، مصر فى العصر العثمانى ، ص ٧٥ .

٢- جلال يحيى، العالم الإسلامى الحديث والمعاصر، ص ٣٤٢ .

٣- محمد بن إياس الحنفى، بدائع الزهور ... نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٤٥٣ .

٤- نيقولاى ايقانوف، الفتح العثمانى للأقطار العربية (١٥١٦-١٥٧٤)، ص ١١٤ .

٥- بليماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٦٥ .

فى البحر الأحمر وأخذوا يعملون على انقاذ هذا البحر من الخطر البرتغالى الزاحف من المحيط الهندى<sup>(١)</sup>.

ولقد ارتبطت إدارة الحرمين الشريفين المالية منذ دخولها تحت الحكم العثمانى ، بإيالة مصر، حيث كان أمير الأمراء يقوم بتنفيذ الأوامر السلطانية فى الحرمين، كما يعرض حاجة هذه المنطقة للتعيينات، فكانت الدولة تقرر اقتراحاته، وكانت معظم الوظائف الإدارية فى الحرمين توجه لرجال الدولة، حيث كانوا يعينون من استانبول مباشرة بموجب عرض أمير الأمراء . ولكن فى أواسط القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، بدأت هذه الوظائف الإدارية الهامة مثل نظارة الحرمين الشريفين «ومشيخة الحرم» فى حملات الدولة فى المنطقة، كانوا أيضا يكلفون كبقية جماعات مصر العسكرية بخدمات الحماية فى الحرمين الشريفين ، وفى إيالة اليمن وإيالة الحبشة، وبالاشتراك فى الفرق العسكرية المعدة لاصطحاب الخزينة الارسالية المصرية إلى الاستانة<sup>(٢)</sup>.

ولقد كانت مصروفات الحرمين الشريفين من الخزينة المصرية، ممثلة فى الصرة النقدية، والمصروفات العينية، وتتمثل فى اخراجات حرمين شريفين، واخراجات الكسوة الشريفة، وتعيينات أشرف الحرمين الشريفين، ومصروفات الحرمين من الأوقاف وهى ممثلة صرة الأوقاف السلطانية (الصرة الرومية) مثل وقف الدشيشة الكبرى، والدشيشة المرادية، ووقف الدشيشة المحمدية، ووقف الأحمدية<sup>(٣)</sup> كما استمر أيضا خروج موكب أمير الحاج من مصر على رأس الحجاج الذين يتوجهون إلى الحرمين لأداء فريضة الحج عن طريق مصر ، حتى أن الدولة كانت تعلن حالة الطوارئ فى ثغورها لحماية قوافل الحجاج المتوجهين إلى الحرمين من كل مكان ، وكان من اختصاص أوجاق المتفرقة<sup>(٤)</sup> وكان الباشا العثمانى العثمانى فى مصر يعتبر فى كثير

---

١- عمر عبد العزيز عمر، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، المشرق العربى من الفتح العثمانى حتى نهاية القرن الثامن عشر، ص ٩٥ .

٢- سيد محمد السيد، مصر فى العصر العثمانى، ص ٣٢٠ .

٣- سميرة فهمى عمر، إمارة الحج فى مصر العثمانية (٥٩٢٣-١٢١٣هـ / ١٥١٧-١٧٩٨م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ كلية الآداب بالاسكندرية عام ١٩٨٣م، ص ٢٦ .

٤- ليلى عبد اللطيف أحمد، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص ٢١٠ .

من فترات التاريخ مسؤولا عن الحالة السياسية والاقتصادية في الحجاز<sup>(١)</sup>. بالإضافة إلى ذلك ، كانت مصر مختصة بتزويد قلعة المدينة المنورة بحاميتها التي عرفت في الوثائق باسم جماعة قلعة مدينة منورة. وكان رجالها يتقاضون من خزينة مصر مرتبات نقدية وعينية<sup>(٢)</sup>.

وأنه كان على مصر أن ترسل لكل حملة سلطانية فرقة من قواتها الخاصة تتكون عادة من ثلاثة آلاف وخمسة آلاف رجل، يؤخذون من الفرق العسكرية ويقودهم آغا الانكشارية أو سردار يمثله . وكانت أجورهم عادة جزءا من التزامات خزينة مصر، ولكن تكاليف نقلهم بالبر أو بالبحر والامدادات الغذائية اللازمة لهم كانت تتحملها الخزينة الإرسالية، وقد وصلت تلك التكاليف في بعض السنوات إلى ثلاثين مليون بارة، وكان المفروض أن تقدم خزينة مصر لهؤلاء الجند « ترقية بمناسبة سفرهم »<sup>(٣)</sup>.

وكان على الخزينة أيضا أن تتحمل نفقات القوات العثمانية المرسلة إلى الجزيرة العربية واليمن، والتي كان تأتي بالبحر إلى دمياط، وتمر بالقاهرة قبل الذهاب إلى مقرها، وكانوا يبقون في مصر مدة من الوقت، قد تصل إلى ستة أشهر، وكان مصرحا للباشا أن يقدم لهم من حساب مبلغ الخزينة الإرسالية تكاليف مؤونتهم وإقامتهم وكانت هذه التكاليف كثيرة في القرن السادس عشر. كما كان يدفع من الخزينة الإرسالية أيضا جزءا من نفقات امدادات قطع الأسطول العثماني التي تزور موانئ البحر المتوسط<sup>(٤)</sup>.

ولقد ألقى على والى مصر مهام أخرى في اليمن والحبشة ، وظهر ذلك واضحا عندما أصدر خاير بك والى مصر أوامره عام ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م إلى نائب جدة بضم السواحل اليمنية<sup>(٥)</sup> ولقد كان من أهداف الدولة العثمانية السيطرة على الجنوب العربى ، ولم يستطع السلطان سليم أن يعد حملة لفتح اليمن، لأنه كان مشغولا فى أوروبا، وعلى الرغم من ذلك لم يغب عن ذهنه مراقبة الحوادث فى البحر الأحمر<sup>(٦)</sup>، وشرع فى بناء قوة بحرية عثمانية، إلا

١- فائق بكر الصواف، العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز فى الفترة ما بين ١٢٩٣-١٣٣٤هـ/ ١٨٧٦-١٩١٦م، ص ٤٥ .

٢- ليلى عبد اللطيف أحمد، الإدارة .. نفس المرجع، ص ٢١٣ .

٣- المصدر نفسه.

٤- المصدر نفسه ص ٣٥٨ .

٥- محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٣٢ ، عبد الحميد البطريق، من تاريخ اليمن الحديث ، ص ٢٢ .

٦- سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص ١٤٦ .

أنه توفي قام ابنه سليمان بإتمام هذا المشروع ، وعمل جاهدا على صد الخطر البرتغالي ، فأصدر أوامره إلى واليه في مصر سليمان باشا الخادم في عام ٩٤٤هـ / ١٥٣٨م ، بأعداد حملة عرفت باسم حملة الهند وبدأ بإنشاء أسطول في السويس مستعينا ببعض البحارة البنادقة الموجودين بالاسكندرية<sup>(١)</sup>، وبعد أن تم بناء أسطوله توجه إلى الهند ، وانضم إليه أسطول آخر بقيادة بربروس<sup>(٢)</sup> وحددت مهام سليمان باشا وهي: العمل على تدعيم الوجود العثماني في البحر الأحمر، وإنهاء مظالم البرتغاليين ضد مسلمي الهند، وإعادة فتح طرق تجارة الهند أمام التجار العرب المسلمين ، وطرق المرور للدولة العثمانية، لمصر كولاية عثمانية<sup>(٣)</sup>. وقد اتخذت الدولة العثمانية اجراء آخر مهمما في عام ٩٥٤هـ / ١٥٤٧م حيث عينت الدولة بيري رئيس ، قائدا عاما للأسطول العثماني في المحيط الهندي بالإضافة إلى منصب قابودان أسطول مصر<sup>(٤)</sup> وعندما قامت الثورة في اليمن عام ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م، أصدرت الدولة العثمانية أوامرها إلى والي مصر داود باشا بالقضاء على هذه الثورة، فأرسل بيري باشا بالأسطول وقضى عليها وكوفئ على ذلك<sup>(٥)</sup>.

وكانت الأوامر الصادرة من الدولة العثمانية دائما إلى كل من والي مصر ووالي اليمن. بضرورة التعاون من أجل مواجهة خطر البرتغاليين الذين يهددون السفن التجارية الواردة من الهند، كما أن على والي مصر تقديم البحارة الحربيين، والمجذفين ، والتموين، وتضع بعض الشروط في هؤلاء فبالنسبة للحربيين ألا يكونوا من الجراكسة أو العربان الشيوخ، أما المجذفون فيكونوا من المجرمين غير المحكوم عليهم بالاعدام<sup>(٦)</sup> مع ضرورة إرسال الفلاحين ، والحرفيين وخاصة الأساكفة، ويرجع ذلك إلى أن الجنود العثمانيين بمصر تقاعسوا عن الاشتراك

١- جلال يحيى ، العالم الإسلامى ... نفس المصدر ، ص ٤٠٠ .

٢- بليمار أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٢٧ .

٣- المصدر نفسه، ص ٣٢٨ .

٤- أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني ، ص ٩٨ .

٥- سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص ١٩٦ ، محمود على عامر، النظم الإدارية في اليمن، ص ٩٨ .

٦- محمود على عامر، النظم، نفس المصدر، ص ١٠٥ .

فى الحروب، لأنهم ألفوا الراحة والدعة وتنعموا بالملذات المتنوعة ، وتعلقوا فيها بكل أسباب الحياة ، وكثرت أولادهم ، وصارت مصر موطناً لهم<sup>(١)</sup>.

وكلف بيرى رئيس عام ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م ، بالعمل على طرد البرتغاليين من مسقط ، فاستطاع تأدية مهمته ، ثم اتجه إلى هرمز وحاصرها ، إلا أنه لم يتمكن من السيطرة عليها ، فاضطر لرفع الحصار عنها ، نتيجة لوصول أسطول برتغالى وهبوب عاصفة ، مما أدى إلى تشتيت أسطوله فعاد إلى مصر محملاً بالأموال التى جمعها ، وعندما عاد أمر السلطان العثمانى بقتله متهما إياه بالخيانة<sup>(٢)</sup>، ثم كلف والى مصر مراد باشا عام ٩٦١هـ / ١٥٥٣م بقيادة الأسطول والتوجه إلى الخليج العربى، لجمع بقايا أسطول بيرى رئيس ، وعندما وصل إلى البصرة ، انضم إليه أسطول عثمانى ، واشتبكا مع الأسطول البرتغالى الذى أوقع الهزيمة بالأسطول العثمانى ، واضطر مراد باشا إلى الانسحاب عائداً إلى استانبول<sup>(٣)</sup>.

وفى عام ٩٧٢هـ / ١٥٦٣م أصدرت الدولة العثمانية أوامرها لوالى اليمن بتسهيل مهمة الأسطول المرسل من السويس إلى المحيط الهندى لمواجهة خطر البرتغاليين- مع تسليحه بالذخيرة وإمداده بالتموين<sup>(٤)</sup> بالإضافة إلى ذلك يكلف والى العثمانى بمصر ضرورة إمداد الحملات المرسله إلى اليمن بالمهمات والجنود والأسلحة والجمال، والبغال التى يشرف على جمعها مشائخ القبائل العربية اليمنية الموجودة بمصر، مع تحمل الخزينة المصرية مرتب والى اليمن النقدى والعينى<sup>(٥)</sup>. وعندما قام التمرد فى اليمن ضد الحكم العثمانى عام ٩٧٦هـ / ١٥٦٨م، ويبدو أنه كان قويا لدرجة أن الدولة طلبت من والى مصر قوجا سنان باشا باعداد حملتين إحداها بحرية بقيادة قورد أوغلو والأخرى برية بقيادة والى، واستطاعت هذه الحملة القضاء على هذا التمرد<sup>(٦)</sup>. أما بالنسبة للحبشة، فقد أقيت على والى مصر أيضاً مهام بها،

---

١- قطب الدين النهروانى ، البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، ص١٩٩، محمد أنيس ، الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤-١٩١٤، ص١٣٤ .

٢- سعيد أحمد برجوى ، الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسى والعسكرى، ص١٢٣-١٢٤ .

٣- محمد أنيس ، الدولة ... نفس المصدر، ص١٣٤ .

٤- محمود على عامر، النظم... نفس المصدر، ص١٠٢ .

٥- المصدر نفسه، ص١٠٩ .

٦- ابن الديبع ، الفضل المزيدي فى أخبار زبيد، ص٧٥ ، قطب الدين النهروانى ، البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، ص٢٠٩ ، بليماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية، ص٣٦٢ .

فقد أرسل سليمان باشا الخادم عام ٩٦١هـ / ١٥٥٣م أزدمير بك بأسطول فى النيل بهدف الكشف الجغرافى ، واتجه الأسطول ووصل إلى النوبة والبحر الأحمر فى سواكن ، ثم ضم إليها بعد ذلك جزءا كبيرا من أرتيريا وآخر من الحبشة، وارتبط هذا الجزء بولاية مصر إداريا، ونظرا لبعد هذه الأجزاء عن القاهرة ، فقد وجد من الأفضل تأسيس ولاية الحبشة مع تعيين أزدمير باشا واليا عليها عام ٩٦٢هـ / ١٥٥٤م<sup>(١)</sup>.

ونظرا لوجودها فى أقصى حدود الدولة الجنوبية حيث كان أهالى هذه المنطقة من ذوى الطبيعة القبلية ، يقومون بحركات عصبانية ومشاحنات مستمرة مع الإدارة العثمانية هناك، نشأت فكرة تعيين فرق جند مصر وجند الدركاه العالى للحفاظ على الأمن فى تلك المناطق ولحماية الحدود فى الصعيد، إلحاقها بولاية الحبشة، حتى ييسر لقوات الدولة القضاء على حركات عصيان القبائل العربية التى كانت موجودة فى المناطق التى كانت تفصل بين إياالتى الحبشة ومصر، مع امداد مصر لها بالحبوب والبارود<sup>(٢)</sup>. كما أن الدولة العثمانية أعطت لوالى مصر صلاحيات مطلقة، كما أن تعيين ولاية الحبشة ، كانوا دائما من مصر، ممن كانوا على معرفة جيدة بعادات الأهالى هناك بحيث أصبحت الإدارة العثمانية جزءا لا يتجزأ من التشكيل الإدارى فى مصر، بالإضافة إلى ذلك، فإن احتياجات الحبشة الضرورية والطارئة توفر لها من مصر وإن لم يتوفر فيها ذلك فيرفع الأمر مباشرة إلى استانبول عن طريق والى مصر ، وبموجب هذا كانت الدولة تعمل على تحويل جميع الأمور بولاية الحبشة إلى والى مصر لكى يبت فيها<sup>(٣)</sup>.

هذه بعض المهام التى كلف بها والى مصر، وقام بتنفيذها تجاه البحر الأحمر والمحيط الهندى، أما بالنسبة للبحر المتوسط، فقد أوكلت الدولة العثمانية مهمة أساسية على قابودنات مصر فى البحر المتوسط مثل دمياط والاسكندرية بالذات، بامداد الأسطول العثمانى فى شرق البحر المتوسط وغربه بارسال الجنود المطلبين من الأوجاقات العسكرية المختلفة مثل مستحفظان ، وعزبان وجاوشان إلى أماكن القتال وعليه أن يتفق مع السفن التى تنقلهم، مع

١- بليماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٣٣١ .

٢- سيد محمد السيد ، مصر فى العصر العثمانى، ص ٤٤٠-٤٤١ .

٣- المصدر نفسه، ص ٤٤٤ .

دفع أجور تلك السفن<sup>(١)</sup>. كما أنه كان يقوم بأعداد الذخيرة اللازمة لهم<sup>(٢)</sup> وكان من واجبه الاحتفاظ بخمسين سفينة على الأقل في الاسكندرية بصفة احتياطية يقدمها عند اللزوم<sup>(٣)</sup>.

ولذلك ظهر دور مصر في البحر المتوسط في إطار هذه العلاقات ، وعندما قام السلطان العثماني سليمان القانوني بحصار جزيرة رودس عام ٩٦٨هـ / ١٥٢٢م ، أرسلت مصر ٢٠ سفينة حربية مع بعض الجنود من الأوجاقات العسكرية الموجودة بالاسكندرية، مع تموينهم من المواد الغذائية ، وتم الاستيلاء على هذه الجزيرة بفضل المساعدة المصرية<sup>(٤)</sup>. كما أُلقيت أعباء أخرى على مصر، وهي القيام بدوريات منتظمة في موسم الربيع بين إيطاليا ورودس والاسكندرية لمواجهة سفن القراصنة ، كما صدرت الأوامر لقابودان الاسكندرية لحراسة سفن تجار المسلمين حتى تتجاوز الأماكن الخطرة في البحر المتوسط، كما صدرت الأوامر للقابودونات في مصر بضرورة الانضمام إلى الأسطول العثماني في البحر المتوسط بأسلحتهم وذخيرتهم وتموينهم في حالة القيام بعمليات حربية<sup>(٥)</sup> أما في حالة السلم فإنه يتعين بقاء جزء من الأسطول في الموانئ ، ويقوم الجزء الآخر بأعمال دورية منتظمة في البحر المتوسط.

أما بالنسبة للعلاقات الخارجية لولاية مصر، لقد تولتها الدولة العثمانية مع دول العالم ، بحكم خضوع مصر وغيرها من الولايات العربية لها منذ عام ٩٢٢هـ / ١٥١٦م وحرمت مصر منذ ذلك الوقت من ممارسة سيادتها في إقامة علاقات متوازنة مع القوى الدولية، واستمرت علاقاتها مع الخارج من خلال وضعها لكيان الدولة العثمانية ، وكان أوضح مظهر لهيمنة الدولة على الأمور الخارجية هو التزام الولايات العربية ومن بينها مصر بتطبيق المعاهدات التي

١- سجلات المحكمة الشرعية بالاسكندرية ، سجل رقم ٥٥ ، مادة ٥٦ ، بتاريخ ١٢ ربيع الثاني عام ١٠٢٩هـ / ١٦١٩م.

٢- سجل رقم ٦٣ ، مادة ٢٣١ ، عام ١١٢٨هـ / ١٥٧١م.

٣- S.J. Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution , pp. 80-81 . Idem. The Financial and Administrative Organization and development in ottoman Egypt , pp. 184-188 .

٤- بليماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٦٣ .

٥- سيد محمد السيد ، مصر .. نفس المصدر، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

تبرمها الدولة العثمانية مع الدول الأجنبية على أراضيها وإن كانت هذه الدولة التي لها علاقات دبلوماسية مع الدولة العثمانية، توفد ممثلين لها «قناصل في الولايات العربية، لرعاية مصالح التجار والرعايا التابعين لهذه الدول، دون أن يمتد هذا إلى حد إقامة علاقات سياسية، مع موظفي الولاية كالباشا» مثل السلطة المركزية أو القوى المسيطرة، وإلى جانب هذه العلاقات المحدودة بين الولايات والعالم الخارجي فإن عدة عوائق تواجدت لتزيد من بعد الولايات عن العالم الخارجي، فكان هناك العائق الديني، المتمثل في الاعتقاد السائد عند القاعدة العريضة من المسلمين في الولايات العربية، بأن أوروبا تلك البلاد المسيحية الصليبية التي لا تقترب من بلاد الإسلام إلا لإيذاء المسلمين، فكان الانعزال عن أوروبا هو الأمان والحفاظ على الإسلام<sup>(١)</sup>.

وكان العائق الاجتماعي يقف في وجه تحقيق الاتصال بين الولايات والعالم الخارجي بسبب أزمة الثقة بين المسلمين والأجانب، ويمكن ملاحظة ذلك في أسلوب التعامل مع الأوروبيين المشتغلين بالتجارة العربية، إذ كانوا يعزلون في «خانات» أو أحياء خاصة بعيدة عن أماكن تجمع المسلمين حيث يقيمون متاجرهم ويأوون فيها، ويمارسون عباداتهم ويحفظون دوابهم - بل أن أماكن كانت تخصص لدفن موتاهم، وتلحق بمحال إقامتهم - ولهذا كان الاتصال يكاد يكون منعدما بين الأجانب وأهل الولايات الإسلامية فعاشوا على هامش المجتمعات الإسلامية. كما أن اكتشاف أهالي الولايات العربية ومن بينها مصر بالدراسة في مركز الدراسات الإسلامية كالأزهر والكوفة والبصرة والقيروان والأماكن المقدسة حال دون تبادل ثقافي بين المسلمين وأوروبا فضلا عن إيمان المسلمين بأن بلاد الغرب هي مهد الكفر والكفرة<sup>(٢)</sup>. ويأتي العائق الاقتصادي ليضيف جديدا إلى فقر العلاقات مع العالم الخارجي فاقتصاد الولايات العربية كان يقوم على الزراعة التي تكاد تفي بحاجيات السكان، والصناعة المحلية تكاد تكفي المتطلبات داخل الولاية، والمبادلات التجارية تقتصر على بلاد الشام والحجاز ومصر واليمن والشمال الأفريقي مع ندرة المبادلات مع أوروبا اللهم، إلا في مجال الكماليات كما وقفت اللغة حائلا دون الاتصال<sup>(٣)</sup> إلا أن حجم التجارة بين التجار الأوروبيين ومصر تزايد

١- عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة .. نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٢٠-٧٣٥، عبد الوهاب بكر، مصر والدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ص ٧١.

٢- المصدر نفسه.

٣- الشناوي، الدولة العثمانية، نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٢٠-٧٣٥، عبد الوهاب بكر... نفس المصدر، ص ٧١.

بفضل الوضع الجغرافى لمصر من ناحية- وبفضل الامتيازات التى كانت تمنح هؤلاء التجار حقوقا جمركية فى شكل رسوم منخفضة من ناحية أخرى، كما أن اليهود ومسيحيى الدولة كانوا يتمتعون أيضا بمميزات تجارية حسنة<sup>(١)</sup>.

ولقد وقعت الدولة العثمانية معاهدات تجارية مع كل من البندقية فى عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م، لتشجيع رعايا هذه الجمهورية القدوم إلى الاسكندرية بسفنهم وبضائعهم ومباشرة نشاطهم التجارى فى جو من الطمأنين والعدالة والأمن. ثم عقدت معاهدة أخرى مع البندقية عام ٩٢٨هـ / ١٥٢١م ، وجددت هذه المعاهدة عام ٩٤١هـ / ١٥٣٤م واستمرت تجدد فى عهد كل سلطان جديد. ومع دولة دوبرونيك (راجوزة) عام ٩٢٨هـ / ١٥٢١م<sup>(٢)</sup>. وجددت هذه المعاهدة فى عام ٩٤٣هـ / ١٥٣٦م أما بالنسبة لانجلترا فتعتبر سنة ٩٩١هـ / ١٥٨٣م، بداية التاريخ الفعلى والرسمى لتنفيذ معاهدات الامتيازات المتبادلة بين التجار الإنجليز فى أملاك الدولة العثمانية والتجار العثمانيين فى انجلترا<sup>(٣)</sup>.

وبموجب هذه المعاهدات كان يمكن للتجار الأجانب بعد أن يدفعوا الرسوم الجمركية على بضائعهم ، أن يقوموا بالبيع والشراء فى أسواق القاهرة والاسكندرية ورشيد وبولاق أيضا. حيث كانت معاملاتهم مع المسلمين فى هذه المدن تسجل فى سجلات الموانئ ، وبعد أن تتم عملية البيع والشراء التى كان يقوم بها هؤلاء التجار الأجانب كان يحصل منهم رسم قدره ٥ ، ١٠ أقجة كرسوم جمركية وغيرها<sup>(٤)</sup>. وحتى تتمكن الدول التى عقدت معها معاهدات تجارية وغير تجارية مع الدولة العثمانية ، من تطبيق هذه البنود الخاصة بالمعاهدات ، طلبت كل من البندقية وفرنسا من الدولة العثمانية، تعيين قناصل لهما فى القاهرة والاسكندرية . ولما كان قناصل البندقية وفرنسا يشرفان على شؤون الرعايا الإنجليز - قبل عقد معاهدة ٩٩١هـ / ١٥٨٣م - والدوبرونيك فى مصر ، لم تنقطع شكوى هؤلاء خلال القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، لدرجة أن السلطان كان يرسل للوالى بأمره بمنع ظلم هؤلاء القناصل لرعايا انجلترا ودوبرونيك فى مصر ، وعدم تدخلهم فى شؤونهم وأخيرا تمكنت انجلترا ودوبرونيك من الحصول على إذن بتعيين قناصل لهما فى الاسكندرية .

١- الشناوى ، الدولة ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٠٧ .

٢- المصدر نفسه.

٣- المصدر نفسه، ج ١ ، ص ٧١٨ .

٤- أحمد عبد الرحيم مصطفى، فى أصول .. نفس المصدر ، ص ٩٥ .

لم يكن لهؤلاء القناصل علاقات مباشرة مع الباشا فى مصر، وإنما كانوا يعرضون مسائلهم وأمورهم على الحكومة العثمانية فى استانبول حيث كان الديوان الهمايونى يناقش الأمر، ويفصل فيه هناك ثم ترسل الأوامر بعد ذلك لتطبيق قرارات الدولة إلى الباشا وقابودان الاسكندرية وقاضيه، وأنه على الرغم من أن سفن البندقية التى تصل إلى الميناء تقوم بتسديد جمرتها دون نقصان، فقد كان الأمناء فى الميناء يعترضون هذه السفن ولا يتركونها مخالفين بنود المعاهدة الموقعة بين الدولة العثمانية والبندقية، وبذلك صدرت الأوامر للباشا العثمانى، وقابودان الاسكندرية وقاضيه، بضرورة تقصى هذه الأحوال، ومنع الأمناء من التدخل خلاف الميثاق. ومن ناحية أخرى كان الباشا العثمانى، يرسل الرسائل إلى بعض الدول الأجنبية، من أجل تيسير معاملات التجار المصريين الذين كانوا يتوجهون إلى تلك النواحي، وذلك بموجب المعاهدات المبرمة بين الطرفين<sup>(١)</sup>.

وبالنسبة لتجارة مصر الخارجية فى تلك الفترة، فإنها قد تأخرت وضعفت بشكل واضح، نتيجة لقلّة البضائع التى تمر فى البلاد، مما أدى إلى قلّة حصيلة الضرائب الجمركية، وقلّة ما تستفيد مصر من أجور النقل، هذا فى الوقت الذى زادت فيه الصعوبات أمام تصريف المنتجات المصرية فى الأسواق الخارجية، وظلت العلاقات التجارية موجودة بين مصر وبقية الولايات العربية والبلاد الأفريقية. ولكن قيمتها قلت نتيجة لضعف الانتاج الزراعى والصناعى فى البلاد، ونتيجة لضعف رأس المال والثروة العامة، وتناقصها باستمرار واشتغال عدد من الأجانب المقيمين بمصر بالتجارة الخارجية، وكان منهم بعض الفرنسيين والاطاليين، وكانوا يقيمون فى فنادقهم أو وكالاتهم، التى كانت تشمل على مخازنهم ومساكنهم فى كل من القاهرة والاسكندرية ودمياط<sup>(٢)</sup>. أما بالنسبة للعلاقات الاقتصادية بين الدولة العثمانية وولاية مصر، فنجد أن مصر كانت تصدر إلى الدولة العثمانية ٣٠٠٠ قنطار بارود أسود سنويا فى القرن السادس عشر، وازداد هذا المقدار فى أوائل القرن السابع عشر فوصل إلى ٥٠٠٠ قنطار سنويا. بجانب كميات هائلة من الحبوب مثل: الأرز والعدس والفريك البربرى<sup>(٣)</sup>. وكانت مصر تستورد من الدولة العثمانية، الأمشاط، الملاعق الخشبية الواح من

١- سيد محمد السيد، مصر فى العصر العثمانى، ص ٤٥١-٤٥٢.

٢- جلال يحيى، مصر الحديثة ص ٢٠٧.

٣- سيد محمد السيد، مصر فى العصر العثمانى، ص ٣٠٩.

خشب الصنوبر ، لعب الأطفال دواسات عصي ، مجاديف ، الأواني الخشبية ، قرب جلد ، ملابس حریمی ، أحذية حریمی ، مكانس ، رحي طاحونة ، خراطيم ، مواسير ، أكلمة ، موسلين تركي ، الأقمشة الحريرية والكتانية ، والفحم ، الكبريت ، ماء النار صنع قبرص ، القطران ، توتيا ، قلنونية ، الجلود لصنع الأحذية المناسبة ، ورنين طلاء الحبال ، النحاس القديم ، الأواني النحاسية ، القطران الأبيض ، البذور الخضراء ، المشكلة على شكل أقراص ، قمر الدين ، قراصيا ، الخروب ، سحلب ، الزيتون ، فستق ، العنب ، حلوى جافة ، الزبيب ، حلويات مشكلة ، أفيون ، فاصوليا جافة ، تبغ تركي ، عصفران<sup>(١)</sup>.

أما من الناحية المالية، فقد ارتبطت مصر ماليا بالدولة العثمانية، حيث كانت تصدر نقودها باسم السلطان وكانت تستورد الذهب اللازم لهذه العملية من دارفور، وتستورد النحاس من استانبول. وقد ربطت العملة المصرية بالعملة العثمانية، بشكل جعل أى تأثير يحدث فى قيمة العملة الأخيرة يؤثر على قيمة النقود والعملة فى مصر، وكان يتم إلغاء التداول ببعض أنواع النقود واستبدال غيرها بها، وتقدير قيم رسمية جديدة للعملة الباقية ، يحدث فى بعض الحالات فى وقت إرسال الجزية إلى استانبول ، الأمر الذى كان يؤدى إلى تخفيض قيم النقود المتداولة ، وإلى زيادة الأعباء على دافعى الضرائب .

ولقد كانت مصر تتعامل بالدينار الذهبى الذى كان يشتمل على عشر قطع فضية تسمى دراهم، واستبدل العثمانيون بالدينار عملة ذهبية تساويه فى الوزن، والعيار وتسمى البندقى. أما الدرهم فقد حلت محله عملة جديدة تسمى الميذى، وكانت تساوى نصف الدرهم ، وتطور الميذى بمرور الزمن وسمى بارة وتساوى هذه البارة جزءاً من أربعين من القرش . وحتى الآن يصعب على دارس تاريخ هذه الفترة تحديد قيمة ثابتة لهذه القطع المعروفة فى ذلك الوقت فى العالم، وذلك نتيجة للتغيير المستمر فى قيمتها ، ومع ذلك كانت قيمتها ثابتة . وكان أهمها «الدوقى» أو «البندقى» وهو عملة البندقية ، والريال الهولندى، الذى ضرب على أحد وجهيه رسم الأسد، وكان يسمى أبوكلب، والريال الأسباني الذى ضرب على أحد وجهيه نسر داخل شكل يشبه النافذة ، وكان يسمى «أبو طاقه»<sup>(١)</sup>.

Shaw, Ottoman Egypt in the Eighteenth Century ..., op. cit ., p. 45 .

أما المقاييس والمكايل والموازين ، فنجد روح الفوضى التي ظهرت ميدان العملة، قد ظهرت كذلك فى هذا الميدان نتيجة لعدم خضوعها لرقابة فعالة، وأدى كل ذلك إلى اضطراب فى الأسواق وانعدام للثقة وزيادة الغش والتزوير وبالتالي إلى تدهور الحالة الاقتصادية ، ورغم أن العثمانيين قد ساروا على نفس الموازين والمكايل والمقاييس التي كانت موجودة فى البلاد، ومع ادخال تعديل بسيط عليها، إلا أن هذا التعديل ، كان فى اتجاه خفض القيمة، ونتج عن ذلك قلة مساحة الفدان، عما كانت عليه من قبل، كما اختلفت هذه المقاييس من اقليم إلى آخر، وهدف العثمانيون من ذلك زيادة كمية الضرائب المربوطة على الأراضى المسوحة وإلى زيادة إيراداتهم بطريقة غير واضحة على حساب الفلاح<sup>(١)</sup>.

هكذا كانت العلاقات المصرية العثمانية التي ظهرت فى كافة المجالات وقابلت مرحلة الازدهار فى الدولة العثمانية مرحلة استقرار ادارى فى مصر خلال الفترة (٩٣١-٩٦٧ هـ / ١٥٢٤-١٥٥٩ م) التي اعتلى فيها السلطان سليمان القانونى عرش السلطنة. ولكن لتقدم عمر السلطان وتراخى قبضته فى السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد فى أواخر سنوات حكمه (توفى عام ٩٧٣ هـ / ١٥٦٦ م) بدأ تدخل رجال القصر فى إدارة شؤون الدولة، واتساع صلاحيات أصحاب النفوذ فى مختلف مؤسسات الدولة، مع عدم تقيدهم بتنفيذ أوامر السلطان ، وتطبيق نظم الدولة بالسياسة الشرعية فى مختلف معاملاتها الداخلية والخارجية ، فكان لكل هذا تأثير سلبى على مركز الدولة وعلى ولاياتها فى الشرق والغرب فى نفس الوقت.

لقد ظهرت بوادر هذا الفساد أول ما ظهرت فى اية مصر، حيث انتقلت إليها عن طريق الولاة والأمراء الصناعى الذين كانوا يختارون من الأعضاء البارزين فى الهيئة الديوانية بمركز السلطنة حتى أن الجند العثمانى الذى كان يرسل من الآستانة بطريق المناوبة لحماية الإيالة ومؤسساتها المختلفة، أصبح من أهم عوامل الفساد فى البلاد فكان أمير الأمراء يتعرضون للعزل كل عام وعامين بسبب تجاوزاتهم<sup>(٢)</sup>.

١- سيد محمد السيد ، مصر فى العصر العثمانى، ص ١٥٢ .

٢- محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق، ص ١٨ ، جلال يحيى، مصر الحديثة ، ص ٢٢٦ .

Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, p. 83 .

## الفصل الثانى

### التنظيم الإدارى والمالى فى مصر العثمانية

كانت النتيجة النهائية للفتح العثمانى لمصر ، أن أصبحت مصر ولاية عثمانية بعد أن كانت مقر السلطنة والحكم ابان العصر المملوكى وتم عمل التنظيمات الادارية لمصر العثمانية ، وساهمت هذه التنظيمات فى الحفاظ على الكيان السياسى بعض الوقت ، وتبع ذلك عملية الفصل أو الاستقلال عن الولاية . كما حدث فى ولاية جرجا التى لعبت دورا هاما فى تاريخ مصر العثمانية ، وفى مقدمتها الأحداث السياسية الهامة التى تمثلت فى الصراع بين البيوتات المملوكية ، وظهرت بشكل واضح فى الصراع بين القاسمية والفقارية وغير ذلك من الأحداث الهامة التى شهدتها تلك الفترة .

وقبل التعرض للتنظيمات الإدارية التى وضعها العثمانيون لمصر بصفة عامة ، لابد من الإشارة إلى التنظيمات الإدارية التى كانت موجودة فى عصر المماليك .

فقد كانت الإدارة الإقليمية فى أعمال الوجهين البحرى والقبلى خارج القاهرة والاسكندرية فأشرف عليها مجموعة من الولاة . وكان الوجه البحرى مقسما إلى عشرة أعمال هى القلوية والشرقية والدقهلية (المرتاحية) ودمياط والغربية والمنوفية وأبيار والبحيرة وفوة النستراوية، وحكم كل منها وال ماعدا البحيرة فكان يحكمها نائب . ولعل السبب فى ذلك يرجع بأمر البحيرة ، هو تخوف سلاطين المماليك من كثرة الاعراب وما يقومون به فيها من فتن وثورات بين حين وآخر ، أما أعمال الوجه القبلى فكانت ثمانية ، لكل منها واليها ، وهى الجيزة والفيومية والأشمونية والأخميمية والأطفيحية والبهنساوية والأسبوطية والقوصية ، وكانت أسوان تتبع قوص ولكنها استقلت وصارت عملا قائما بذاته فى عهد الناصر محمد (٦٩٣هـ/١٢٩٣م - ٧٤١هـ/١٣٤١م) ويلاحظ أنه لم يوجد نائب لكل من الوجهين البحرى والقبلى الا فى عصر دولة المماليك الجراكسة أو الثانية ، أما فى دولة المماليك البحرية فوجد كاشف للوجه البحرى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الدلتا ، وآخر للوجه القبلى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الصعيد . وجرى الاصطلاح بتسمية هذا الكاشف "والى الولاة" وتمتع بنفوذ كبير على الأقاليم التابعة له<sup>(١)</sup> .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٣٥٨ ، مصر فى عصر دولة

المماليك البحرية ، ص ١٤٣ ، ابراهيم طرخان ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

أما الإسكندرية فقد كانت لها إدارة خاصة ، فقد عين لها نائب على أنها نيابة مثل نيابات الشام وذلك لزيادة أهميتها واعتبارها ثغر مصر الأول على البحر المتوسط ، وكثرة الجاليات الأجنبية بها مما تطلب إعطاؤها عناية خاصة<sup>(١)</sup> وسنتعرض لها كمثال لنظام إدارة الموانئ .

وأعاد العثمانيون النظر في التقسيم الإداري القائم منذ الفتح العربى ، فغيروا كلمة أعمال باسم "ولاية" وقسموا البلاد من الوجهة الإدارية إلى ١٣ ولاية ، منها سبع فى الوجه البحرى وست فى الوجه القبلى هذا بخلاف ستة موانئ هى الإسكندرية ورشيد ودمياط والعريش والسويس والقصير<sup>(٢)</sup> .

وكان يرأس كل ولاية "كاشف" أو حاكم ويرأس كل ميناء قبودان ، غير أن الموانئ الثلاثة الإسكندرية ودمياط والسويس اعتبرت تابعة رأسا للدولة العثمانية يحكمها ثلاثة قبودانات من أمراء البحر يعينهم السلطان<sup>(٣)</sup> .

وأما القاهرة فكانت تحت إدارة أمير من المماليك ، وكان مقر السلطات الحاكمة والإدارة ويشرف عليها الباشا ورجال الإدارة كأغا الانكشارية الذى يقوم بالسلطة العليا للبوليس فى القاهرة يشاركه فى حفظ الأمن وتنظيم الشئون البوليسية والتموينية وفيها زعماء مصر الثلاثة وهم : زعيم مصر ، أو والى مصر وزعيم بولاق وزعيم مصر القديمة وأمين الاحتساب<sup>(٤)</sup> وكان والى القاهرة أو شيخ البلد يأتى من حيث الأهمية بعد الباشا مباشرة ثم ازدادت سلطته فيما بعد على سلطة الباشا<sup>(٥)</sup> .

وعلى هذا فقد ارتكز التنظيم الإداري لمصر العثمانية على خمسة أقاليم إدارية كبرى تسمى باسم ولاية ، وكانت على النحو التالى<sup>(٦)</sup> .

- ١- الغربية وعاصمتها المحلة الكبرى .
- ٢- المنوفية وعاصمتها منوف .
- ٣- الشرقية وعاصمتها المنصورة .
- ٤- البحيرة وعاصمتها دمنهور .
- ٥- جرجا وعاصمتها جرجا .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص ١٤٣ .  
 (٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص ٣٨٢ ، عمر ممدوح ، أصول تاريخ القانون ، ص ٣٦١ .  
 (٣) عمر ممدوح ، المرجع السابق ، ص ٣٦٢ .  
 (٤) ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ٣٨٢ .  
 (٥) عمر ممدوح ، المرجع السابق ، ص ٣٦١ .  
 (٦) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٣٨٢ .

ويلاحظ على التنظيم الإدارى الذى تم فى ذلك الوقت أن الوجه البحرى كانت له أربع ولايات ، أما الوجه القبلى فكان عبارة عن ولاية واحدة ، وربما يرجع ذلك الى عدم اهتمام العثمانيين بالصعيد ، أو أن القوى المسيطرة على الصعيد ، كانت فى مقدورها السيطرة عليه ، ولاسيما عربان هواره بالذات الذين حكموا الصعيد من المنيا إلى الشلال وأصبحت ولايات الوجه القبلى بعد ذلك كالآتى<sup>(١)</sup> . بهنساوية ، أشمونين ، منفوط ، جرجا ، أطفيح البر الشرقى ، الواح من داخل جرجا (أى الواحات) وسميت الواحات فى الصحراء الغربية بإقليم الواحات خلال حكم خاير بك ، وتعتمد فى دخلها على الرسوم التى كانت تجبى من القوافل الآتية من سنار ودار فور المحملة بالذهب والعبيد ، وقد كانت تعتبر محطة وتمتعت بهذا الاستقلال إلى عام ١٢٠٠هـ / ١٧٨٥م حتى أنه إبان استقلالها كانت تابعة لولاية جرجا والجيزة والفيوم .

وكثيرا ما ينشب الصراع بين الصناجق من الأمراء المماليك حول تولى حكم هذه الولايات الخمس الكبرى (الشرقية - الغربية - المنوفية - البحيرة - جرجا) ، وبخاصة ولاية جرجا التى أصبحت مطمعا للكثيرين منهم ، ويرجع ذلك إلى أهميتها الاقتصادية ، حيث كانت تعد مركز التموين الأول للبلاد وخاصة القمح<sup>(٢)</sup> .

تلك كانت أهم الولايات الأساسية ، ولكن وجد بالإضافة إلى ذلك أربعة وعشرون قسما آخر عرفت باسم الكاشفيات وكانت موزعة على النحو التالى<sup>(٣)</sup> :

ثلاثة بمصر السفلى ، وهى بلبيس وقليوب ، وشرق الدلتا ، ثم الطرانة غرب الدلتا وكانت تابعة لولاية البحيرة ، وسبعة فى مصر الوسطى ، وهى اطفيح (شرق النيل) الجيزة ، الفيوم ، بنى سويف ، المنيا ، أشمونين ، منفوط (غرب النيل) وأربعة عشر فى مصر العليا ، وتشمل أسيوط ، وأبوتيج ، وطما ، وطهطا ، واخميم ، وفرشوط ، ويرديس ، وبهجورة ، وقنا ، وقوص ، وابريم ، والواحات واسنا وهو .

ولم تكن هذه الكاشفيات مستقلة بذاتها ، وإن كان بعضها تمتع بما يشبه الاستقلال لانفصالها فى تدبير بعض شئونها الداخلية عن الولاية الكبرى<sup>(٤)</sup> كما أن نظام الولايات قد

(١) محمد شفيق غريال ، مصر عند مفترق الطرق ، ص ٣٣ : ١٥-١٦ . Shaw, Op. Cit., pp. 15-16 .

(٢) محمد شفيق غريال ، المرجع السابق ، ص ٢٣ ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص ٢٦ .

(٣) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٣٨١ .

(٤) حسن عثمان ومحمد توفيق ، تاريخ مصر فى العهد العثمانى ، ص ٢٥٣ .

تدهور فى أواخر القرن الثامن عشر وتم الخلط بين استخدام كلمة "ولاية" وكلمة "كاشفية". وكان يحكم الأقاليم الخمسة الكبرى حكام بكوات ، ويحمل كل منهم رتبة الصنجدية ، ويحصل على لقب حاكم . وكانت الصنجدية من أسمى الرتب فى مصر العثمانية وأمر السلطان سليم بعد أن فتح مصر أن يكون بها أربعة وعشرون طبليخانة ، أى أمراء تدق لهم الطبول وغيرها من آلات الموسيقى تعبيرا عن مكانتهم العالية .

وكان منصب الصنجدية من المناصب الهامة ولها امتيازات مالية ، وقد تكون الصنجدية رتبة فقط أى يحملها صاحبها دون أن يشغل منصبا هاما ويعرف بأنه صنجد بطل ويرقى الصنجد الى رتبة بك ، طبقا لثروته ومركزه ، وكان أمراء الممالك يسعون دائما لجعل الصناجق من أولادهم وأتباعهم<sup>(١)</sup> .

وكان حكام الأقاليم يقيمون دائما فى القاهرة ، ويعودون لبعض الوقت إلى أقاليمهم غير أن حاكم جرجا استقر فى اقليمه ، وقد ساعده ذلك على التمكن من اقليمه وكل بلاد الصعيد بحيث أصبح تحت إدارته ، العديد من القادة مثل قائد الشاوشية وأغا الانكشارية . وكان يحصل بك جرجا على نصيب عينى من السلع التى كانت تأتى من سنار ودار فور مع قوافلهم<sup>(٢)</sup> .

اشترك فى حكم مصر فى العهد العثمانى عدة عناصر . فالباشا ومعاونوه يمثلون السلطان العثمانى ويحكمون الولاية ويشرفون على إدارتها . وهيئة أمراء الممالك من رجال الأوجاقات "العسكرية" يشتركون فى الحكم والإدارة أيضا إلى جانب مهمتها الحربية . فوجد تشابك وتداخل فى اختصاصات هذه العناصر ، كما وجد توازن بينها فى حكم البلاد . ولقد نظم قانون سليمان قواعد الحكم العثمانى كما اقتضتها ظروف الأحوال فى مصر . واليك وصفا عاما عن أهم عناصر الحكومة والإدارة فى ذلك العهد .

#### الباشا :

كان الباشا فى مصر العثمانية هو ممثل السلطان ونائبه فى الحكم والإدارة ، ونظرا لأن مصر كانت من أهم الولايات فى السلطنة العثمانية ، فقد كان السلطان يبعث إليها بولاة من ذوى الخبرة ممن شغلوا منصب الصدارة العظمى أو عملوا فى المناصب الرئيسية فى البلاط العثمانى أو فى المناصب الإدارية الهامة فى الدولة العثمانية أو فى ولاياتها<sup>(٣)</sup> .

(١) محمد شفيق غريال ، المرجع السابق ، ص ١٦ ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .

(٢) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ١٧٢ .

(٣) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ٦١ .

ومن أشهر رجال الصدارة العظمى الذين تولوا باشوية مصر ، الوزير ابراهيم باشا (٩٣١هـ/١٥٢٥م) محمد رامى باشا (١١١٦-١١١٨هـ/١٧٠٤-١٧٠٦م) ومحمد عزت باشا (١٢٠٥-١٢٠٨هـ/١٧٩٠-١٧٩٣م) .

ومن الباشاوات الذين شغلوا مناصب رئيسية فى البلاط العثمانى ، قبل توليهم باشوية مصر ، داوود باشا الخادم (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨-١٥٤٩م) الذى نشأ فى قصر السلطان سليمان القانونى ، وكان خازن داره ، وعلى باشا الذى تولى باشوية مصر (١١٠٢-١١٠٧هـ/١٦٩٠-١٦٩٥م) كان قائم مقام الركاب السلطانى<sup>(١)</sup> .

ومن الشخصيات ذات الخبرة فى الإدارة العثمانية المركزية وفى ادارة الولايات ، أوس باشا الذى تولى باشوية مصر (٩٩٤-٩٩٩هـ/١٥٨٥-١٥٩٠م) وكان قد تولى القضاة والدفتردارية فى السلطنة نفسها قبل توليه حكم مصر وسليمان باشا الخادم (٩٣١-٩٤١هـ/١٥٢٥-١٥٣٤م) الذى كان قائدا للحملة التى أرسلت لمساعدة الامراء المسلمين فى الهند<sup>(٢)</sup> . وقره محمد باشا (١١١١-١١١٦هـ/١٦٩٩-١٧٠٤م) عمل فى منصب كتحدا الباشا السابق له فى مصر اسماعيل باشا وأحمد باشا الذى تولى باشوية مصر (١٠٢٤-١٠٢٧هـ/١٦٠٥-١٦١٧م) عمل دفتردارا قبل تولية حكمها ، وابراهيم باشا (١٠٨١-١٠٨٤هـ/١٦٧٠-١٦٧٣م) عمل محافظا لكريت ، قبل قدومه إلى مصر ، واسماعيل باشا الحلبي (١١٠٧-١١٠٩هـ/١٦٩٥-١٦٩٧م) قدم إلى مصر من ولاية الشام<sup>(٣)</sup> .

وكثيرا ماخرج الباشاوات بعد نقلهم من مصر إلى منصب الصدارة العظمى ، مثل حسين باشا الذى تولى حكم مصر (١٠٢٩-١٠٣١هـ/١٦١٩-١٦٢١م) ومحمد راغب باشا (١١٥٩-١١٦١هـ/١٧٤٦-١٧٤٨م) وأحيانا كان باشا مصر يخرج منها بعد عزله حكم ولاية

(١) قائم مقام الركاب السلطانى : رئيس معظم ضباط الخدمة الخارجية وهم الذين عرفوا بأغوات الركاب، وقد استخدمت كلمة ركاب عند العثمانيين من قبيل الاستعارة للإشارة إلى السلطان أو إلى حضرته، اذ أن الحاكم فى الأيام الأولى كان يتلق العرائض والشكاوى وهو على ظهر حصانه ، وقد استخدم العثمانيون هذه الكلمة للإشارة إلى المواكب والاجتماعات التى يظهر فيها السلطان . ومن أغوات الركاب مير علم ، قابيجى باشا ، مير آخور ، طوبجى باشى (أنظر ، هاملتون جب ، هارولد بوون ، المجتمع الإسلامى والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصطفى الحسينى ، ج١ ، ص ١٢٠ ، القاهرة ١٩٧١) ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ٦١ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص ٦٢ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ١٣٢ .



وعلى النقيض من هذا اشتهر باشاوات آخرون بالعدل وتكريم أهل العلم مثل على باشا الخادم (٩٦٦-٩٦٧هـ/١٥٥٨-١٥٥٩م) فقد كان حاكما عادلا محبا للعلماء والفضلاء وكثير الاحسان لهم بحيث لم يوجد في خزانته عند وفاته سوى سبعة دنائير ومن اللباس والتجملات شئ قليل<sup>(١)</sup>. وبينما كان بعض الولاة أميا لا يقرأ ولا يكتب مثل اسماعيل باشا (١١٠٧هـ/١٦٩٥م) كان البعض الآخر على جانب كبير من العلم مثل جعفر باشا (١٠٢٨هـ-١٦٩٥م) الذي كانت له اليد الطولى في غالب العلوم خصوصا علم التفسير ، داوود باشا الخادم (أطول باشاوات مصر العثمانية عهدا ٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨-١٥٤٩م) وكان على درجة كبيرة من العلم وقد اهتم بجمع الكتب العربية ونسخ له النساخ كثيرا منها فتكونت لديه مكتبة كبيرة كان مواظبا على الاطلاع فيها<sup>(٢)</sup>. وعبد الله باشا الكبورلى (١١٤٢-١١٤٤هـ/١٧٢٩-١٧٣١م) كان ميالا إلى الأدب مما جعل الشعراء في مصر يدحونه لفضله وميله إلى الأدب<sup>(٣)</sup> وأحمد باشا كور (١١٦٢-١١٦٣هـ/١٧٤٨-١٧٤٩م) كان مهتما بالعلوم الرياضية وأتصل بالشيخ حسن الجبرتي واشتغل عليه برسم المزاويل والمنحرفات حتى أتقنها<sup>(٤)</sup>.

ومن الشخصيات الفريدة بين ولاة مصر محمد باشا ملك (١١٩٥-١١٩٦هـ/١٧٨٠-١٧٨١م) ، وكان من أفاضل العلماء متضلعا في سائر الفنون ويحب المذاكرة والمباحثة والمسامرة وأخبار التواريخ وحكايات الصالحين وكلام القوم<sup>(٥)</sup>. وقد اشتهر كثير من باشاوات مصر بحب الخير ، ووقف الأوقاف العديدة واقامة المساجد والأسبلة والمكاتب العلمية والتكايا ، فقد أقام سليمان باشا الخادم (٩٣١هـ/١٥٢٥م) مسجدا ببولاق وأوقف عليه وقفا كبيرا وعمر مسجد سيدى سارية بقلعة الجبل<sup>(٦)</sup> ومحمد باشا (قول قران) (١٠٠٦هـ/١٧٠٦م) أوقف

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ١١٣ ، يوسف اللوانى ، تحفة الأحباب ، ص ١١٢ .

(٢) أحمد كتخدا عزبان الدمرداش ، كتاب الدرة المصانة في أخبار الكنانة ، تحقيق ، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ١٩٨٩ ، ص ٢٧ .

(٣) يوسف اللوانى ، تحفة الأحباب ، ص ١٣٦ ، محمد البكرى ، النزهة الزهية ، ص ١٤٠ .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ٥٦٦ ، عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

(٥) نفسه ، ص ١٨٦ .

(٦) يوسف اللوانى ، المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

عدة قرى ووكانل بشغر رشيد وأرضا بالأزبكية وبلغ ايراد تلك الأوقاف عشرين ألف دينار وجعل منها سحابة الحاج الشريف (أربعون جملا من الماء كل عام) <sup>(١)</sup> . واسكندر باشا (٩٦٣هـ/٩٦٦هـ-١٥٥٥-١٥٥٨م) أقام جامعا بباب الخلق وتكية تجاه هذا الجامع وأوقف عليهما أوقافا كثيرة <sup>(٢)</sup> وخسرو باشا (٩٤٠-٩٤٣هـ/١٥٣٣-١٥٣٦م) أنشأ عمارة بسوق الصاغة صهريجا ومكتبا يقرأ فيه الأيتام مع ترتيب الخير لهم <sup>(٣)</sup> ، وقرة محمد باشا (١١١١-١١١٦هـ/١٦٩٩-١٧٠٤م) أقام جامعا وتكية لفقراء الخلوتية من الأروام فى حي الأربعين بجوار باب قرا ميدان وأسكن الأروام بالتكية وأنشأ تجاهها مطبخا ودار لضيافة الفقراء ، وفى اعلاها مكتبا للأطفال يقرءون فيه القرآن الكريم ورتب لهم مايكفيهم وعمر بالقرافة مقام سيدى عيسى بن عبد القادر الجيلانى وجعل به فقراء مجاورين ورتب لهم مرتبات وأنشأ صهريجا بداخل القلعة <sup>(٤)</sup> . وقد أقام اسماعيل باشا (١١٠٧هـ/١٦٩٥م) تكية فى قرا ميدان ووقف عليها وعلى سحابة بطريق الحجاز سبعة قرى أخذها من المحاليل فى اقليم البحيرة <sup>(٥)</sup> وقد قام بعض الباشاوات بتعمير الجامع الأزهر وتجديده مثلما فعل محمد باشا (١٠٠٤-١٥٩٥م) فقد عمر الجامع الأزهر وجدد ماهدم منه ورتب له من الشون العدس يطبخ فى كل يوم للفقراء ، ولأجل ذلك تسامعت الناس فأتوا اليه بطلب العلم من أقصى القرى <sup>(٦)</sup> .

ولم تقتصر أوقاف الباشاوات وخيراتهم على مدينة القاهرة وحدها بل امتدت إلى مختلف أنحاء البلاد فسنان باشا (٩٧٥هـ/١٥٦٧م) الذى أقام مسجدا وسوقا وحماما ببولاق <sup>(٧)</sup>

(١) محمد بن أبى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص ١٨١ .

(٢) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، ص ١٣٩ ، أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

(٣) محمد بن أبى السرور البكرى ، المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

(٤) عبد الرحمن الجبرتنى ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٠ .

(٥) أحمد كنتخدا عزبان ، المرجع السابق ، ص ٢٦ ، عبد الرحمن الجبرتنى ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

(٦) محمد بن أبى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص ١٥١ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٧) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص ٦٦ .

أنشأ أيضا جامعا كبيرا ببندر القصير على البحر الأحمر ، وأوقف على الجامع وعلى الخدمة به وقفًا كبيرًا بلغ ألفًا وخمسمائة وسبعين فدانًا من الأراضي الزراعية التي كانت من أملاك الباشا في الوجه القبلي<sup>(١)</sup> .

### ألقاب الباشا :

في أوائل العهد العثماني كان حاكم مصر يلقب بلقب بكرك<sup>(٢)</sup> وقد أوردت المصادر المعاصرة أسماء باشوات مصر منذ بداية العهد العثماني إلى النصف الأول من القرن السابع عشر مقرونة بهذا اللقب<sup>(٣)</sup> وكان أول من لقب به خاير بك وقد أشار قانون نامه مصر إلى حاكم مصر بهذا اللقب<sup>(٤)</sup> .

ومن ألقاب الباشا الأخرى ، لقب والي ، فقد كان السلطان يخاطب باشا مصر بلقب والي مصر فيرسل في الفرمانات مثلاً إلى عزت محمد باشا في فرمانه بلقب (الباشا والي مصر) دون ذكر اسم الباشا بالتحديد . وتذكر ليلي عبد اللطيف<sup>(٥)</sup> ومن الألقاب التي أطلقت على باشا مصر ووردت في الوثائق والمصادر المعاصرة :

« لقب الوزير الأعظم كافل المملكة الشريفة الإسلامية بالديار المصرية والشغور المحمية والاقطار الحجازية » .

محافظ أو حافظ مصر المحروسة

حافظ الديار المصرية والاقطار الحجازية .

وبعد صدور الأمر السلطاني بتعيين باشا مصر كان يأخذ طريقه إليها إما برا عن طريق الشام، إذا كان قادماً إلى مصر من إحدى ولايات الشام أو العراق وإما بحراً إلى الإسكندرية إذا كان قادماً من السلطنة نفسها<sup>(٦)</sup> . وفي الحالة الأولى كانت بعثة الاستقبال الرسمية

(١) ليلي عبد اللطيف، المرجع السابق .

(٢) محمد بن أبي السرور البكري ، المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

(٣) قانون نامة مصر ، ترجمة وتعليق أحمد فؤاد متولى ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ١٥ .

(٤) ليلي عبد اللطيف أحمد ، الإدارة في مصر ، ص ٦٦ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٦) نفسه ، ص ٦٨ .



فى القلعة<sup>(١)</sup> وهذه الأوصاف عن تقيد حرية الباشا وربطه بالقلعة أبعد ماتكون عن الحقيقة فقد كان باشوات مصر ينزلون من قصورهم فى القلعة<sup>(٢)</sup> ويتجولون بكل حرية فى مختلف أنحاء البلاد فابراهيم باشا (٩٩١-٩٩٢هـ/١٥٨٣-١٥٨٤م) ذهب بنفسه إلى جميع أقاليم مصر إلى الصعيد الأقصى<sup>(٣)</sup> وكان الباشاوات يذهبون إلى كبار العلماء فى منازلهم ويرأسون الحفلات العامة مثل الاحتفال بوفاء النيل ، ويذهبون للتفتيش على الشئون الأميرية وأداء الصلاة بالجامع الأزهر وغير ذلك<sup>(٤)</sup> .

وربما كان ضعف سلطة الباشا وسيطرة العصبية المملوكية على الإدارة فى مصر العثمانية- تلك السيطرة التى بلغت ذروتها فى القرن الثامن عشر هى التى أوجت إلى المؤرخين المحدثين بفكرة تحديد إقامة الباشا فى القلعة<sup>(٥)</sup> .

أما عن مدة حكم الباشا ، فقد كانت سياسة الدولة العثمانية بالنسبة للتعين فى الوظائف الكبرى تقوم على اجراء التعينات لتلك الوظائف سنة واحدة لا أكثر وإن كانت تعد فى الواقع فى كثير من الأحيان عن طريق التجديد بتقرير خاص يصدر لتجديد مدة الباشا وهو ما عرف بتقرير السنة الجديدة . وكان التقرير الخاص بتجديد مدة الباشا أو تعيينه يصدر دائما فى شهر شوال من كل عام وكانت هذه عادة الدولة بالنسبة لجميع ولاياتها اذ تصدر التوجيهات السنوية بالمناصب أو مدها فى هذا الشهر من كل عام<sup>(٦)</sup> .

---

(١) هاملتون جب ، هارولد بوون ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص ١١ ، جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ١٣٧ .

(٢) Starford Shaw, The Fianancial and Administrative Organization and development of ottoman Egypt, P. 316 .

(٣) عبد الرحمن الجبىرى ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٥٢ ، ليلى عبد اللطيف الإدارة فى مصر ، ١٧١ .

(٤) محمد بن ابى السرور البكرى ، المرجع السابق ، ص ١٣١ ، ليلى عبد اللطيف ، أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص ٧١ .

(٥) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٦) أحمد عزت عبد الكريم ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص ١١٢ .

وقد اختلفت مدة حكم الباشوات فى مصر ففى الفترة الأولى من العهد العثمانى الممتدة من بدايته إلى أواخر القرن السادس عشر ، استمر الباشاوات فى شغل مناصبهم لفترات طويلة وكانوا لا ينقلون منها الا اذا رقوا لمناصب أعلى أو اضطروا إلى الاستغناء بسبب كبير السن ومن أطول الولاة العثمانيين عهدا فى مصر داوود باشا الخادم ، الذى ظل واليا على مصر من (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨-١٥٤٩م) حتى وفاته بها وهو فى منصبه الذى شغله لمدة أحد عشر عاما<sup>(١)</sup> وسليمان باشا الخادم الذى تولى حكم مصر وادارتها لمدة عشر سنوات من (٩٣١-٩٤١هـ/١٥٢٥-١٥٣٥م) ثم عاد إلى باشوية مصر وشغلها لمدة عام وخمسة أشهر من (٩٤٢-٩٤٣هـ/١٥٣٥-١٥٣٦م) ومسيع باشا استمر بحكم مصر من (٩٨٢-٩٨٨هـ/١٥٧٤-١٥٨٠م) أى لمدة خمسة أعوام وأويس باشا ، تولى باشوية مصر من (٩٩٤-٩٩٩هـ/١٥٨٥-١٥٩٠م) حيث توفى بها بعد حكم دام خمس سنوات وخمسة أشهر<sup>(٢)</sup> .

وقد لوحظ فى هذه الفترة طول عهد الولاة اذا ما قورن بالفترة التالية ، ويمكن تفسير تلك الظاهرة بالهدؤ النسبى الذى وجد فى مصر حينذاك حيث لم يتعرض الباشاوات بصفة عامة إلى معارضة قوية وذلك للقضاء على العناصر المتمردة التى شاركت فى ثورة أحمد باشا الخائن وثورة إينال وجانم السيفى<sup>(٣)</sup> . وقد كان للنفوذ الذى حصل عليه باشاوات الفترة الأولى لخدماتهم التى أدوها للدولة - أثر كبير فى احتفاظهم بمناصبهم فترة طويلة ، فسليمان باشا الخادم الذى تولى حكم مصر مرتين ، كما سبق الإشارة كان قد أدى أجل الخدمات للدولة بقيادة حملاتها فى اليمن وفى المحيط الهندى ، وسان باشا الذى تولى باشوية مصر من (٩٧٥-٩٧٦هـ/١٥٦٧-١٥٦٨م) ثم عاد إلى حكم مصر ثانية من (٩٧٩-٩٨١هـ/١٥٧١-١٥٧٣م) منح الحكم فى المرة الثانية مكافأة له على حملاته فى اليمن<sup>(٤)</sup> .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص ٧٢ .

(٢) نفسه ، ص ٧٢ .

(٣) نفسه ، ص ٧٣ .

(٤) نفسه ، ص ٧٤ .

ويضاف إلى الأسباب السابقة التى أدت إلى طول عهد ولاية الفترة الأولى الفرصة لهم لاقامة المنشآت الهامة التى كان منها ماهو للنفع العام وماهو للنفع الخاص<sup>(١)</sup> .

وقد تميزت الفترة الثانية من فترات الحكم العثمانى فى مصر ، والممتدة من أواخر القرن السادس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر - بقصر عهد الباشاوات ولم يدم حكم أطولهم مدة عن خمسة أعوام بدءاً بالوزير ابراهيم باشا حاجى لم يدم حكمه الا ثلاثة أشهر وعدة أيام ، اذ تولى من ١٤ ذى الحجة ١٠١٢هـ/ ١٥ مايو ١٦٠٣م وقتله الجند فى آخر ربيع الثانى (١٠١٣هـ/ ٢٧ أغسطس عام ١٦٠٤م)<sup>(٢)</sup> وجعفر باشا لم يدم حكمه الا حوالى خمسة أشهر ، اذ توفى فى ٩ ربيع أول ١٠٢٨هـ/ ٢٥ فبراير ١٦١٨م) وعزل فى ١٤ شعبان من السنة نفسها (فى ٢٨ يوليو ١٦١٨م) وموسى باشا تولى حكم مصر فى (٣ جمادى الأولى ١٠٤٠هـ/ ٩ ديسمبر ١٦٣٠م وعزل فى (ذى الحجة ١٠٤٠هـ/ يوليو ١٦٣٠م ، بعد حكم ثمانية أشهر تقريباً)<sup>(٣)</sup> .

ويمكن تفسير قصر عهد ولاية الفترة الثانية بكثرة الاضطرابات التى حدثت فى مصر فى هذه الفترة ، وتمثلت فى ثورات الجند ومنازعات ومطامع الأمراء المماليك وسعيهم للسيطرة على ادارة مصر وقد أدى ذلك إلى كثرة عزل الباشاوات بالإضافة للأسباب الاقتصادية التى بدأت فى انتشار الغلاء الذى كان يقع كثيراً اما لسوء الأحوال الطبيعية أو لانخفاض قيمة النقد ، ذلك الأمر الذى كان مرتبطاً باقتصاد الدولة العثمانية نفسها ، كما أن تكرار حدوث الطواعين والأوبئة أدى إلى تعطيل الطاقات البشرية . لكثرة الوفيات - وبالتالى إلى عدم استقرار الحالة الاقتصادية ، الأمر الذى كان يثير شكاوى الأهالى فتقوم الدولة بعزل الباشاوات المسئولين عن ذلك<sup>(٤)</sup> .

---

(١) محمد بن أبى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص ١٩٩ .

(٢) نفسه ، ص ٢٢٥ .

(٣) نفسه ، ص ٢٣٩ ، يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب ، ص ١٧٧ ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٧٤ .

(٤) أحمد كتخدا عزبان ، المرجع السابق ، ص ٣٨ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص ٧٥ .

وكان تجديد مدة حكم الباشا يتم بارسال خط شريف (عرف بتقرير السنة الجديدة) من السلطان إلى الباشا في مصر ويحمل هذا الأمر رسول خاص قد يكون أحد الأغوات أو قابيجى باشا<sup>(١)</sup> أو أمير آخور<sup>(٢)</sup>.

أما اختصاصات الباشا ، فقد لخص قانون نامه مصر اختصاصات الباشا في الفقرة التالية (تفقد أحوال الرعايا وأحوال الأموال السلطانية وحفظ وحراسة المملكة ورعايا الأمن<sup>(٣)</sup>). وتشير عبارة تفقد أحوال الرعايا إلى الاختصاصات المدنية والإدارية للباشا ، كما تعنى العبارة التالية وهي تفقد أحوال الأموال السلطانية والاختصاصات المالية للباشا أما العبارة التالية وهي حفظ وحراسة المملكة ورعاية الأمن ، فتعنى الإختصاصات العسكرية للباشا وسلطته في حفظ الأمن وفي الشئون الجنائية ، وسيتم التعرض إلى هذه الاختصاصات فيما يلي :

من حيث الاختصاصات الإدارية والمدنية للباشا ، فقد كان له حق الاشراف على جميع الشئون الإدارية في مصر عن طريق رئاسته لجلسات الديوان العالى أهم مجلس ادارى في الولاية ، وقد كان من أهم أعمال الباشا كما جاء في قانون نامه ، أن يقيم الديوان أربعة أيام في الأسبوع ، لايفوته منها من غير مانع شرعى<sup>(٤)</sup>.

وقد استمر الباشاوات في مصر طوال العهد العثمانى يعقدون الديوان ويرأسون اجتماعته بأنفسهم فيما عدا بعض الجلسات ذات الطابع الخاص والتي كان يرأسها نيابة عن الباشا كتحذاه أو قاضى العسكر ، وعرف الديوان باسم الديوان العالى ويحضره قادة الأوجاقات

(١) القابيجى باشى : رئيس فرقة القابيجية وهم حرس بوابات القصر السلطانى ، وقد اقتصرت دخول هذه الفرقة على أبناء البكوات والباشاوات وبعض الأعيان الآخرين وقد كان للقابيجية مهمة أخرى فقد كانوا يوظفون في المحل الأول بصفتهم تشريفاتية في حفلات الاستقبال التى تجرى بالقصر والبعثات ذات الأهمية الخاصة والسرية بوجه خاص ، مما كان يوفد إلى الولايات . وقد بلغ عدد القابيجية ١٥٠ شخصا في القرن الثامن عشر ، وكان اثنا عشر منهم يصاحبون السلطان في ذهابه إلى المسجد يوم الجمعة . (أنظر ، ليلى عبداللطيف أحمد ، الإدارة في مصر ، ص ٧٥) .

(٢) ليلى عبد اللطيف ، الإدارة في مصر ، ص ٨٥ .

(٣) قانون نامة مصر ، المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

والبكوات وكبار العلماء <sup>(١)</sup> وكان هناك ديوان آخر عرف بالديوان الصغير أو ديوان الباشا وينعقد يوميا فى قصره بحضوره مع الدفتردار والروزنامجى وكتاب الخزينة لتصرف الشئون الادارية العادية <sup>(٢)</sup> . وكان على الباشا أن يتلقى وينفذ أوامر السلطان لإدارة مصر ، وهو المسئول عن تطبيق قواعد الحكم العثمانى فيها <sup>(٣)</sup> .

ومن أهم اختصاصات الباشا المدنية المحافظة على النظام العام ، وكثيرا ما كان الباشاوات يتدخلون لحل الصعوبات التى تهدد أو تنذر باضطراب ذلك النظام كما حدث أثناء احدى أزمات ارتفاع الأسعار ، فقد أرتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعا كبيرا فى عام ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م، مما إلى سخط المجتمع فقد وصل سعر أردب القمح إلى مائة وثمانين نصف فأمر عبد الرحمن باشا - حاكم مصر حينذاك أن يباع الأردب بمائة وثلاثين نصف فقط <sup>(٤)</sup> فى عام ١١٠٧هـ/١٦٩٥م ، نزلت بالبلاد مجاعة شديدة فى عهد اسماعيل باشا (فلما رأى الباشا ما فيه الناس من الكرب والغلاء أمر بجمع الفقراء والشحاذين بقراميدان ، فلما اجتمعوا أمر بتوزيعهم على الأمراء والاعيان على كل قدر حاله وقدرته وأخذ لنفسه جانب ولأعيان دولته جانبا وعين لهم مايكفيهم من الخبز والطعام صباحا ومساء إلى أن انقضى الغلاء <sup>(٥)</sup> .

والأمثلة على حدوث هذا التدخل من الباشاوات للمحافظة على النظام العام كثيرة ومتعددة طوال العهد العثمانى فى مصر .

ومن أهم اختصاصات الباشا المدنية ، المحافظة على نظافة العاصمة فقد كان يأمر (بقطع السفايف والدكاكين لتوسيع الطرق والأسواق) ويهتم بتمهيد الأرض كما فعل قرة محمد باشا (١١١١هـ/١٦٩٩م <sup>(٦)</sup> كما أصدر محمد باشا فى عام (١٠١٦هـ/١٦٩٩م) أوامره إلى

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٧٧ ، جلال يحيى ، المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

(٢) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ١٣٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٧٧ .

(٥) عبد الرحمن الجبرتنى ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٠ .

(٦) محمد بن ابى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص ١٨١ .

الأهالى بقطع ذراع فى عمق الأرض تجاه بيوتهم ودكاكينهم<sup>(١)</sup> وذلك فى كل شوارع القاهرة حيث تراكم الأتربة والقاذورات قد أدى إلى تشويه منظر العاصمة<sup>(٢)</sup> وفى عام ١٠٦٣هـ/١٦٥٢م) أمر محمد باشا نظار المساجد فى القاهرة بتبييضها مما جعل الناس يطلقون عليه لقب (أبى النور محمد)<sup>(٣)</sup> كما أمر مقصود باشا (١٠٥٢هـ/١٦٤٢م) بحفر الخليج الحاكى والخليج الناصرى اللذين تهددهما تراكم الطمي<sup>(٤)</sup> وأرتبط اسم حسين باشا (١٠٨٥هـ/١٦٧٤م) بترميم العيون التى تهدمت من الكوبرى القريب من الجيزة<sup>(٥)</sup> ولم يفتر حماس الباشاوات فى مجال التنظيم ورعاية نظافة القاهرة الا فى أواخر القرن الثامن عشر<sup>(٦)</sup>.

ولقد اهتم الباشاوات برعاية المبادئ الخلقية فى ذلك العصر من ذلك ما كان من قيام محمد باشا البدكشى (١١٥٦هـ/١٧٤٣م) بإبطال تدخين الدخان من مصر والتشديد فى منع ذلك من الشوارع والمحلات التجارية وأبواب البيوت<sup>(٧)</sup> وقد اشتهر بعض الولاة بإبطال المنكرات من مصر مثل عبد الله باشا الكبورلى (١١٤٢هـ/١٧٢٩م) الذى وصل به الأمر الى التنازل للوالى (الزعيم) عن جزء من ايراداته نظير ذلك<sup>(٨)</sup> فقد أمر هذا الباشا بإبطال المنكرات والخمائم ومواقف الخواطى والبوظ من بولاق وباب اللوق وطولون ومصر القديمة ، وجعل للوالى والمقدمين عوضا عن ذلك فى كل شهر كيسا من كشوفيات الباشاوات وكتب ذلك حجة شرعية<sup>(٩)</sup>.

(١) يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب ، ص ١٩٦ .

(٢) نفسه ، ص ١٨٩ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص ٧٨ .

(٣) نفسه ، ص ١٨٩ ، نفسه ، ص ٧٨ .

(٤) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

(٥) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٧٨ .

(٦) نفسه ، ص ٧٨ .

(٧) عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٥١ .

(٨) مصطفى بن الحاج ابراهيم ، تاريخ وقائع مصر ، تحقيق صلاح هريدى ، ص ٣٦٤ .

(٩) عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، ص ١٤٤ . ج ١ .

ومن الاختصاصات المدنية والادارية الأخرى للباشا ، اقامة الاحتفالات عند علمه بانتصار الجيوش العثمانية<sup>(١)</sup> ورئاسة الاحتفالات العامة مثل الاحتفالات بوفاء النيل ، وله فرحة كبيرة عند الجميع ، فهو دلالة على الرخاء بالنسبة للفلاح ، ودلالة على جميع الأموال بالنسبة للحاكمين<sup>(٢)</sup> .

وكان يشارك فى صلاة الاستسقاء لنزول المطر فى سنوات الجفاف وانخفاض النيل<sup>(٣)</sup> . ومن الاحتفالات العامة ذات الأهمية والتي كان الباشا يرأسها أيضا الاحتفال بالعيدين<sup>(٤)</sup> ويرأس حفل خروج المحمل والكسوة فى طريقها إلى الحجاز<sup>(٥)</sup> .

أما الاختصاصات المالية للباشا ، فقد اعتبر الباشا المسؤول الأول عن تنظيم مالية مصر<sup>(٦)</sup> يساعده فى تلك المهمة الدفتردار والروزنامجى والادارة المالية التابعة لهما ، وكان على الباشا أن يضمن للدولة حسن استغلال مصادر الثروة فى مصر حتى يمكنه الوفاء بمصروفات الولاية وقد اعتبرت ولاية مصر مقاطعة يأخذها الباشا من الدولة لادارتها مقابل ايراداته منها ، ومما يؤيد ذلك ما ذكر عن الوزير على باشا الحكيم الذى عقد أول جلسة للديوان (عام ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م) فى قرا ميدان بحضور مجموعة كبيرة من الأمراء وأرباب المناصب ، حيث قال لهم بعد تلاوة مرسوم ولايته على مصر أتيت لأعطى كل ذى حق حقه وحضرة السلطان أعطانى المقاطعات وأنا أنعمت بها عليكم فلاتتعبونى فى خلاص المال والغلال وأخذ عليهم حجة بذلك<sup>(٧)</sup> . وكان الباشا هو المسئول عن ادارة خزينة مصر وموازنة ايراداتها ومصروفاتها لذا كان ينص فى دفاتر الخزينة على أنها دربها الباشا أى فى عهده<sup>(٨)</sup> .

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ١٣٧ .

(٢) نفسه ، ص ١٣٨ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ١٣٨ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٧٩ .

(٥) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ١٣٩ .

(٦) نفسه ، ص ١٣٩ .

(٧) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٧٩ .

(٨) نفسه ، ص ٨٠ .

ومن أهم واجبات الباشا المالية ارسال الخزينة الارسالية . وكان ارسال هذه الخزينة إلى استانبول يمثل أحد الواجبات الرئيسية للباشا وهناك بعض التلميحات فى كتابات القناصل أو المؤرخين عن ارسال هذه الخزينة إلى السلطان . ولم يشك الرحالة فرانسوا دى با فى عام ٩٣٣هـ / ١٥٨٥م فى مسألة انتظام دفع مصر لهذه الجزية ، وحددها بنفس المبلغ الذى كان يصل إلى ٦٠٠.٠٠٠ قرش أى ما يعادل ٢٤٠٠.٠٠٠ جنيه فرنسى وذكر أنها كانت ترسل إلى استانبول برىا فى حراسة مشددة . وكان القناصل يذكرون من وقت إلى آخر أن الباشا كان يؤجل بعض العمليات نتيجة لانشغاله بارسال الخزنة إلى استانبول . وكانت هذه العملية تتم فى احتفال خاص ، يشارك فيه عدد من كبار الموظفين . ولذلك فان الخزينة الارسالية كانت تتم بطريقة منتظمة حتى منتصف القرن الثامن عشر ، ولكنها وصلت بشكل منقطع فى أثناء النصف الثانى من هذا القرن فانقطعت فى عام ١١٧٣هـ / ١٧٥٩م. وهى السنة التى سيطر فيها على بك الكبير على مصر ، وكان يطمع فى الاستقلال ورفض ارسال الخزينة الارسالية. أما محمد بك أبو الذهب ، الذى كان على علاقات أحسن مع السلطان ، فإنه سمح للوالى بعد أن أصبح شيخا للبلد ، بالقيام بواجبه من جديد ، فأرسلت الخزينة الارسالية فى عام ١١٨١هـ / ١٧٧٤م إلى استانبول ، وشكر السلطان أبا الذهب على ذلك ، وحينما ترك حسن باشا قبودان البحرية العثمانية مصر ، بعد حملته اليها فى عام ١٢٠٢هـ / ١٧٨٧م أوصى وكيله الذى سيصبح اسماعيل باشا فيما بعد بضرورة إعادة أمر ارسال الخزينة الارسالية بشكل منتظم . وحينما عاد ابراهيم بك ومراد بك إلى القاهرة فى عام ١٢٠٦هـ / ١٧٩١م بعد أن كان القبودان باشا قد طردهما منها ، انقطع وصول الخزنة إلى استانبول . وفى أثناء العقد الأخير من هذا القرن كان من المؤلم على نفوس رجال الباب العالى أن يروا انقطاع وصول الخزينة من القاهرة<sup>(١)</sup> .

وكان باشا مصر يرسل كذلك إلى استانبول ضريبة عينية تشتمل على مواد غذائية ، وعلى كميات من الحلوى لسيدات القصر ، وكانت تصل فى قافلة بحرية تضم عدداً من السفن ، مزودة بالمدفعية ، وكانت تشتمل على الأرز والسكر والتمر والزعفران والفلفل والمسك والسنامكى والصمغ ، هذا علاوة على البخور والحناء ، وكان ذلك يمثل أعباءاً بالنسبة للباشا

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ١٤٤ .

فى القاهرة<sup>(١)</sup> والباشا هو المسئول عن ادارة شتى شئون مالية مصر فى الحدود التى ترسمها له الدولة وفى حدود التعليمات التى كانت تصله باستمرار من الباب العالى<sup>(٢)</sup> .

ولابد من الحصول على موافقة الباشا على أى عملية نقل حق الالتزام (سواء فى الأرض أو الجمارك) من شخص إلى آخر فقد (أذن له السلطان بالختم والعلامة على جميع التمكينات<sup>(٣)</sup> التى يقع فيها التغيير بالبيع والشراء<sup>(٤)</sup> .

والباشا هو المختص بتعيين كل موظفى الادارة فى مصر ، وعند موافقته على تعيين أى موظف يصدر له بيورلدى<sup>(٥)</sup> بذلك وقد طبق هذا النظام بالنسبة لجميع موظفى الادارة فيما عدا منصب الدفتردار وأمير الحج فقد كان الباشا هو الذى يرشح بعض الأمراء لشغل هذين المنصبين الهامين ويرسل أسماء المرشحين إلى أستانبول ، وغالبا ما كانت الدولة تؤيد رأى الباشا وترسل خطا شريفا سلطانيا بالموافقة على تعيين من رشحها الباشا<sup>(٦)</sup> كما اختص الباشا بمنح رتبة الصنجدية لأمرء مصر أو عزلهم منها<sup>(٧)</sup> .

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ١٤٦ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٨٠ .

(٣) التمكينات : من أهم اصطلاحات العصر العثمانى ويعنى التمكين منح الحق فى الانتفاع بأرض أو جمرک أو وظيفة ، وقد عرفت تمكينات الأرض والجمارك التى كانت تصدرها الروزنامة بعد اعتماد الباشا لها وتوقيع الدفتردار عليها باسم التقاسيط وبهذه التقاسيط كان الملتزم يثبت حقه فى حصة الالتزام الزراعى أو جهة الجمرک المعينة له ويتمكين الوظيفة يثبت الموظف حقه فى وظيفه . (أنظر ، محمد شفيق غربال ، مصر عند مفرق الطرق ، ص ١١ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٨١) .

(٤) نفسه ، ص ٨١ .

(٥) بيورلدى : كلمة تركية تعنى أمرا عاليا صادرا من الباشا ومحل بالطغراء أو الخاتم (انظر ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٤٤٢) .

(٦) أحمد كتخدا عزبان الدمرداشى ، المرجع السابق ، ٢١٢ ، عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٠ .

(٧) عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٦ .

ومن أهم الاختصاصات المالية للبasha قيامه بدفع مرتبات الموظفين من ساليانات<sup>(١)</sup> ومواجب وعلوفات<sup>(٢)</sup> وجرايات<sup>(٣)</sup> ويقدر ما يكون البasha سخيا في منح العلوفات بقدر ما يعلو شأنه ويوصف بالكرم ، فقورد باشا (١٠٠٣-١٠٠٤هـ/١٥٩٤-١٥٩٥م) ، كان كريما يعطى العلوفات لكل من سأله من الرجال والعلماء والفضلاء والأصاغر حتى النساء ، وكذلك فعل في الجرايات مثل فعله في العلوفات<sup>(٤)</sup> .

وإذا ما حاول البasha تخفيض علوفات الجند كان يتعرض لمهاجمتهم ومحاولتهم الاعتداء عليه ، فعندما حاول أويس باشا في عام (٩٩٧هـ/١٥٨٨م) قطع علوفة ثلاثة أيام من سائر العسكر ، هاجمه الجند وتعدوا على قصره ونهبوا أمتعته وقتلوا بعض أتباعه ، ثم أخذوا ابن البasha رهينه عندهم حتى يستجيب لمطالبهم وهاجموا الجوانيب ونهبوا المنازل ، فاضطر البasha لارسال بيورلدى للقاضى حتى نفذ مطالبهم<sup>(٥)</sup> .

وبالنسبة لاختصاصات البasha في الشئون العسكرية وفي رعاية الأمن ، فهو الرئيس الأعلى للأوجاقات العسكرية وهو المسئول عن الدفاع عن البلاد ضد أى عدوان خارجى ، وعليه اعداد وتوجيه الحملات العسكرية اللازمة ، لحفظ الأمن فى الداخل من ثورات المتمردين والعربان وعلى البasha واجب تجهيز الفرق المطلوبة للاشتراك فى حروب السلطان خارج مصر ، والتي كانت تذهب بقيادة أحد كبار الصناجق بناء على تكليف البasha له بذلك<sup>(٦)</sup> .

(١) ساليانة : مرتب سنوى نقدى يصرف من الخزينة للبasha ول كبار الأمراء والصناجق وغيرهم من كبار الموظفين . (أنظر ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٤٤٨) .

(٢) علوفة : جمعها علوفات وهى مرتبات العسكر . (أنظر ليلى عبد اللطيف ، أحمد ، المرجع السابق ، ص ٤٥٠) .

(٣) جراية وعليق ، جمعها جرايات وعلائق وتعنى المرتبات العينية من قمح وشعير والتي كانت تصرف من الخزينة للبasha وكبار موظفى الادارة ترد فى الوثائق بمعنى دفتر أو قائمة . (أنظر ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٤٤٤) .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٤٤٤ .

(٥) محمد بن أبى الرور البكرى ، كشف الكربة ، ص ٣٠١ ، ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر ٨٢ .

(٦) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٨٢ .

وقد اهتم الباشاوات فى مصر برعاية الأمن عن طريق محاربة قطاع الطرق والقضاء على اللصوص ، وقد اشتهر منهم فى هذا المجال داوود باشا الخادم (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨م-١٥٤٩م) الذى تتبع المفسدين وقتل أعداد كبيرة منهم <sup>(١)</sup> وقد غالى بعض الباشاوات فى ذلك حتى وصفهم المؤرخون المعاصرون بأنهم كانوا سفاكين للدماء مثل على باشا السلحدار (١٠١٠-١٠١٢هـ/١٦٠١-١٦٠٣م) فقد أستأصل المفسدين وكان سفاكا للدماء <sup>(٢)</sup> ومسيح باشا الخادم (٩٨٢-٩٨٨هـ/١٥٧٤-١٥٨٠م) كان قتالا سفاكا للدماء يقال أنه قتل فى هذه المدة نحو من عشرة آلاف نفس وغالبهم من أهل الفساد ، ولأن اللصوص كانت كثيرة فى زمن حسين باشا الذى سبقه فقطعها مسيح باشا المذكور <sup>(٣)</sup> .

وقد عبر المؤرخون المعاصرون عن اعجابهم باهتمام الباشاوات بشئون الأمن ونشر الرخاء بين الرعية فذكروا عن داوود باشا (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨-١٥٤٩) أن الرخاء فى زمنه موجود والجور والظلم فى دولته معقود والرعايا فى الرفاهية وتسهيل الأرزاق من غير مشقة <sup>(٤)</sup> .

وقد اشتهر بعض الباشاوات بالمغالاة فى استخدام هذه السلطة مثل محمود باشا (٩٧٣-٩٧٤هـ/١٥٦٥-١٥٦٦م) والذى عرف عنه أنه بمجرد وصوله إلى القلعة ، قدم إليه أمير الصعيد الأمير محمد بن عمر الهوارى بسفينة كبيرة مشحونة بأنواع الهدايا والتحف قدرت بخمسين ألف دينار ، ولكن كان رده على ذلك بمصادرة أمواله وممتلكاته <sup>(٥)</sup> . وقد اشتهر هذا الباشا بالظلم حتى على الموظفين وكان لا يتورع بالقتل والمصادرة ، وقد كانت نهاية هذا الباشا بالقتل على يد مجهول ، بتحريض بعض الأمراء المماليك <sup>(٦)</sup> وهناك الأمثلة العديدة على ذلك .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الاشارات ، ص ١٢٧ .

(٢) محمد بن أبى الرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص ١٥٧ ، أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٣) محمد بن أبى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص ١٥٧ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة ص ٨٢ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(٥) يوسف الملوانى ، تحفة الاحباب ، ص ١٣٦ .

(٦) نفسه ، ص ١٣٦ .

وبالنسبة لأوامر الباشا الادارية ، فقد عرفت أوامره الادارية باسم البيورلدى ، وهى كلمة تركية تعنى أمرا عاليا ، ويصدر البيورلدى دائما باللغة التركية ويحلى بالطغراء أو الخاتم الباشوى ويشار إليه باسم بيورلدى شريف حضرة وزير أى الأمر الشريف الصادر من الباشا الذى كان يصدر أوامره لسائر الشئون الادارية فى مصر<sup>(١)</sup> .

وفى القرن الثامن عشر عندما سرى التدهور الى النظم الادارية فى مصر ، كان يشار إلى أوامر الباشا بلفظ فرمانات<sup>(٢)</sup> وقد حدث ذلك من قبيل التجاوز اذ المسلم به أن الفرمان لا يصدر الا عن السلطان فهو أمر سلطان وليس أمرا باشا<sup>(٣)</sup> .

أما موارد الباشا ومصروفاته ، فقد كان له ايرادات من موارد دخل متعددة كرسوم بعض الجمارك وقرى الكشوفية وضريبة كشوف أرباب المناصب والمرتب أو الساليانة التى تصرفها له الخزينة<sup>(٤)</sup> وايرادات من قرى الحلوان<sup>(٥)</sup> .

وبالنسبة لعزل الباشا ومحاسبته ، فقد وجدت أسباب متعددة لعزل الباشا من ولاية مصر منها<sup>(٦)</sup> :

- ١- اعتلاء سلطان جديد عرش السلطنة .
- ٢- سوء تصرفات الباشا .
- ٣- النقل للعمل فى ولاية أخرى .
- ٤- النقل لمنصب الصادر العظمى أو غيرها من المناصب العليا فى السلطنة .
- ٥- فساد الإدارة المركزية .

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص ٨٤ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص ٨٤ .

(٣) نفسه ، ص ٨٥ .

(٤) نفسه ص ٨٦-٩٨ .

(٥) نفسه ، ص ٩٨ .

(٦) نفسه ٩٨-١٠٧ .

٦- مؤامرة الادارة المركزية .

٧- مؤامرات الحامية وأمرء المماليك .

وبعد صدور الأمر بعزل الباشا لم يكن يسمح له بمغادرة مصر قبل محاسبته على يد الباشا الجديد عن خزينة البلاد وايراداتها ومصروفاتها ، وإذا حاول الباشا مغادرة مصر قبل وصول خلفه ، وقبل القيام بعملية محاسبته كان الأمرء المماليك يمنعون من السفر بالقوة ، فحين عزل مصطفى باشا فى عام ١٠٣٥هـ / ١٦٢٥م حاول السفر قبل وصول الباشا الجديد ولكن منعه الصناجق من السفر حتى يحضر بىرام باشا لمحاسبته ، فعلا لما حضر وجد أن الخزينة تحتاج إلى عشرين كيسا فالزمه بدفعها وتم ذلك<sup>(١)</sup> وهناك الكثير على ذلك .

وعلينا أن نذكر أن معاونى الباشا فهو القائم مقام والكتخدا ، والخازندار والتورجمان ، وسر متفرقة وسر كيلار الوزير وسنجدار ، كاتب الديوان وديوان أفندى ، مقابلة حضرة وزير ، ومهردار ختم ، ميرخو ، سرطباخين ، والجاشنكير وسر منادين ، وسر جاوشان ، وكيل خرج ، رئيس الديوان<sup>(٢)</sup> .

### ديوان الباشا :

قبل صدور قانون نامه ، كان باشا مصر يرأس مجلسا اداريا مكونا من رؤساء الحامية ومن الكتخدا والدفتردار وأمير الحج الذين يعاونون فى ادارة البلاد كما يحولون دون اساءة استعمال لسلطته . وقانون نامه قد حول ذلك المجلس الإدارى إلى ديوان على غرار ديوان استانبول . وهذا الديوان تسميه وثائق القاهرة (ديوان محروسة مصر) و(ديوان حضرت ولى النعم والى مصر) ويرأس الباشا أو الكتخدا اجتماعاته . وفى بعض الأحيان كان الباشا يتابع جلساته من وراء الستار كما كان يحدث فى استانبول . ويضم الديوان خلاصة العناصر التى تشترك فى ادارة مصر ، فيحضره طائفة من الموظفين مثل الدفتردار والمهردار ، حامل الاختام ، والدويدار ، حامل الدواة ، وأكثر من فرمانجى لتحرير فرمانات مع جماعة من الكتاب والتراجمة . وكذلك يحضره قاضى عسكر أفندى أى قاضى القضاة والمفتون على المذاهب

(١) لىلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ١٢٥-١٢٦ .

(٢) نفسه ، ص ١٢٧ .

الأربعة ، وكبار رجال الدين والأمراء الصناجقة وأغاوات واختيارية الأوجاقات السبع ، وعضوية هؤلاء الأشخاص ثابتة وتابعة لوظائفهم ، لذا كان لابد من حضورهم جلسات ارسال الخزينة الارسالية ، وعلان وفاء النيل ، واستلام أمير الحج لأموال الحرمين الشريفين ومحاسبة الباشا وغير ذلك<sup>(١)</sup> وكان الباشا يتلقى مباشرة فرمانات السلطان التى يخاطبه فيها عن ادارة مصر ، وكذلك يخاطب دفتردار وقاضى عسكره وأمراء مصر من البكوات المماليك ورجال الحامية ، فيعملون جميعا على تنفيذ أوامر السلطان . والباشا يدعو الديوان إلى الاجتماع أربع مرات فى الاسبوع ، وتلخص اختصاصاته فى ادارة شئون الولاية مثل الاجراءات المالية وأعمال الخزينة ، وضرائب الأرض وبحث القضايا الهامة والباشا لم يكن يستطيع أن يقطع فى شئون الادارة الا بعد الاستفتاء بآراء ممثلى الأمراء المماليك ورجال الأوجاقات كل فيما يخصه . وكانت تعرض أوراق الديوان المختلفة على الباشا فيصدر عليها أوامره التى تعرف باسم "بيورلدى" أى تفضل وتوقع بخاتم الباشا . وكذلك كان يصدر الباشا وفى أغلب الأحوال بناء على رأى الديوان . فرمانات باشوية باعتباره ممثل السلطان العثمانى ، وتفتتح عادة بهذا التعبير ( صدور هذا الفرمان الشريف الواجب القبول والتشريف عن ديوان مصر المحروسة ) وكانت تسجل فرمانات الباشا فى القلم المختص بها<sup>(٢)</sup> .

وكذلك وجد فى مصر الديوان الصغير ، وكان يجتمع فى كل الأيام فى قصر الباشا ، ويحضره الكتخدا والدفتردار والروزنامجى وبعض رجال الأوجاقات السبعة ، وكان ينظر فى المسائل الادارية ويشرف على تطبيق قواعد الادارة العثمانية فى مصر<sup>(٣)</sup> .

#### هيئة المماليك ، الصناجق والكشاف :

بعد أن أتم السلطان سليم فتح مصر لم يعمل على القضاء على المماليك - كما رأينا - مكتفيا بما نالهم من الهزيمة . وأول والى على مصر العثمانية كان خاير بك وهو من المماليك . فلماذا اتبع السلطان سليم هذه السياسة أولا لأن المحافظة والابقاء على أمراء

(١) حسن عثمان ، المجلد فى تاريخ مصر ، ص ٢٥١ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ، ص ٢٥٢ .

الماليك كان متمشيا مع سياسة الدولة العثمانية فى حكم الشعوب التى خضعت لها ، فالدولة العثمانية لم تكن تغير كثيرا فى نظم البلاد المفتوحة ، وامراء الممالك كانوا أدرى بعادات البلاد وحكمها . ومن ناحية أخرى فانه لم يكن من المستطاع القضاء نهائيا على قوة الممالك الحربية ، فلم يكن هناك بد من استخدام الممالك فى حكم مصر وفى الدفاع عنها . ومن ناحية ثالثة رأى السلطان سليم ومن بعده السلطان سليمان أن يدع الممالك يشتركون فى حكم البلاد وفى الدفاع عنها لكى يكونوا عنصرا موازنة ازاء الباشا ورجال الأوجاقات العثمانية<sup>(١)</sup> .

وكان الصناجق من أمراء الممالك المصريين عنصرا هاما فى حكم وإدارة البلاد . ويعرف زعيمهم بشيخ البلد ومقره القاهرة ، وهو ثانى شخصية فى مصر بعد الباشا ، وكان يوازن سلطته وأحيانا يحل محل الباشا المخلوع حتى يأتى الباشا الجديد . وكان الباشا يعهد إلى بعض الصناجق البكوات بمهمة توطيد الأمن وحماية القاهرة من اعتداء العربان ويطلق عليهم لقب وال . وكان الصناجق يقومون أيضا ببعض السفارات الخاصة ، ويحمل أحدهم خزانة مصر إلى استانبول ، وكان يعهد اليهم أيضا بقيادة بعض فرق الأوجاقات العثمانية فى مصر ، أو بقيادة الفرقة المصرية العثمانية الذاهبة للاشتراك فى حروب السلطان أو بوظيفة الدفتردار أو أمير الحج<sup>(٢)</sup> .

#### الحامية العثمانية والأوجاقات السبعة :

الحامية العثمانية هيئة حربية مهمتها الدفاع عن مصر والاشتراك فى حروب السلطان . وكذلك لها اختصاصات أخرى غير حربية ، فهى تساعد الباشا والصناجق فى توطيد الحكم العثماني فى مصر ، وفى الوقت نفسه تراقب الباشا والصناجق وتوازن سلطتهم . وكان أغوات الحامية يحضرون اجتماعات ديوان القاهرة ، وهم كهيئة رسمية لهم كلمة مسموعة فى إدارة البلاد ، ويتضح ذلك فيما كانوا يقدمونه من المطالب إلى الباشا اذا ما أحسوا

(١) حسن عثمان ، الجمل فى تاريخ مصر ، ص ٢٥٣ .

(٢) نفسه ، ص ٢٥٤ .

منه خروجا على العرف القديم ، وكلما فكروا فى استحداث قاعدة جديدة يعدلون به نصوص قانون نامه . وكذلك كان رجال الحامية العثمانية يشتركون فى صيانة الأمن فى القاهرة ويساهمون فى حكم الأقاليم وفى جمع الأموال الأميرية<sup>(١)</sup> .

وكان رجال الفرق السبع اما مشاة (بيادة) أو فرسان (أسباهية) ولكل أوجاق أغا أى رئيس وكتخداه . وقد اشتملت الحامية العسكرية منذ بداية العهد العثمانى على عنصرى العثمانيين والمماليك ثم دخلها أخلاط من الشوام والمغاربة وبالتدريج أخذ عنصر المماليك فى الحامية يقوى على حساب العنصر العثمانى حتى طغى عليه فى أواخر العهد العثمانى بمصر<sup>(٢)</sup> وكان عدد الحامية يتراوح بين ١٣ ألفا و ١٥ ألفا وكانت طبقا لقانون نامه مصر منذ صدوره عام ١٢٣١هـ / ١٥٢٥م قواعد الجهاز العسكرى فى ولاية مصر ، حيث حددت مهام كل جماعة (طائفة أو أوجاق) على حده منعا لحدوث الاحتكاك والتنافس بين الجماعات كما كان يحدث قبل ذلك وأشار القانون أيضا إلى عدد كل جماعة وعلوفات العسكر على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم ، فضلا عن ذلك وضع الضمانات الضرورية للاحتفاظ ، بالصبغة العسكرية لرجال الأوجاقات تفاديا لوقع الاختلال والتفكك بين صفوفها فى سبيل ذلك أعطى الأغاوات والباشا الحاكم عدة سلطات لمعاقبة الخارجين على القانون ، وندرس فيما يلى تلك النواحي بالتفصيل :

#### أ- جماعات السباهية (الفرسان) :

١- جماعة كوكليان : وقد وصفهم القانون بأنهم من الفرسان الذين يركبون الخيول ويتقنون استخدام الرماح فى حذق ومهارة ، فهم يجيدون اطلاقها يمينا ويسارا . وتنحصر مهمة أفرادها فى الأقاليم (الكشوفيات والصنجدية) فى خدمة الكشاف (حكام الأقاليم) وهم يخضعون لقاداتهم وكبرائهم وينفذون أوامرهم ، ويقوم أفرادها بحفظ الأمن وحراسة البلاد

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ١٧٧ .

(٢) نفسه ، ص ١٧٧ .

والتصدي لاعتداءات العربان على الأراضى الزراعية وعليهم الامتثال لأوامر الكاشف ونواهيه<sup>(١)</sup> .

وكان للأسباهية حاميات خاصة فى اقليم جرجا وابريم ، أى على حدود مصر الجنوبية عرفت فى الوثائق باسم جماعة كوكليان محافظين جرجا وابريم وكذلك جماعة التفنكجيان<sup>(٢)</sup> .

وكانت السباهية مصدر إزعاج دائم للفلاح المصرى ، الذى كانوا يرهقونه دائما بطلباتهم الكثيرة وظلمهم ، مما أدى إلى حصولهم على الامتيازات الكثيرة واستغل البعض ذلك ، أمثال الهوارة الذين امتنعوا عن دفع الضرائب بحجة انتمائهم إلى هذه الأوجاقات العسكرية ، وظهر ذلك واضحا فى عام ١١٠٩هـ/١٦٩٨م ، ولولا اعلان تنكر هذه الأوجاقات لهم لما دفعوا أموال الميرى والغلال اللازم لحاكم جرجا عبد الرحمن بك فى ذلك الوقت<sup>(٣)</sup> .

وازداد نفوذهم وقوتهم ، حتى أنهم تدخلوا فى عزل حاكم جرجا فى عام ١١٢٠هـ/١٧٠٨م محمد بك لأنه أنزل عربان المغاربة وأمنهم ، وتعللوا بأن القيام بمثل هذا العمل من جانب حاكم الولاية سيؤدى إلى الفساد ، وانتهى الأمر برضوخ الباشا فى القاهرة لاجابة مطالبهم وعزل الحاكم وعين بدلا منه محمد بك قطامش<sup>(٤)</sup> .

ولم تقف قوتهم عند هذا الحد ، بل وصل تحديهم لسلطات القاهرة ، وأعلنوا استقلالهم بمصر وقتلوا واليها ابراهيم باشا عام ١٠١٣هـ/١٦٠٤م ووصلت البلاد الى حالة من الفوضى حتى اضطر السلطان العثمانى أحمد الأول (١٠٠١هـ/١٦٠٣م - ١٠٢٦هـ/١٦١٧م) إلى ارسال محمد باشا (١٠١٦هـ/١٦٠٧م - ١٠٢٠هـ/١٦١١م) المعروف بقول قران وقضى على نفوذهم تماما ، وعلى النفوذ السياسى والعسكرى للماليك مؤقتا ، وعرف عنه أنه أبطل الطلبة التى فرضوها على الفلاحين ، ونفى زعماءهم الثلاثة عشر إلى ابريم ،

---

(١) عراقى يوسف محمد ، الوجود العثمانى فى مصر ، فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص ٧٤ .

(٢) ليلى عبد اللطيف احمد ، الادارة فى مصر ، ص ٢٢٤ .

(٣) يوسف الملوانى ، المصدر السابق ، ص ٣٣٧ .

(٤) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ٦١ .

وقضى على قوتهم تماما عام ١٠١٧هـ/١٦٠٨م<sup>(١)</sup>. وعرف ذلك بالفتح العثماني الثاني ،  
ومما يجدر الإشارة اليه أن عربان هواره قد اشتركوا فى القضاء على نفوذهم<sup>(٢)</sup> .

٢- جماعة تفنكجيان سوارى : ويقوم رجال هذه الجماعة مع زملائهم من الكوميلية بحراسة  
الأقاليم وحفظ الأمن بها وحمايتها من أغارات البدو كما يتعهدوا بحراسة الجسور للعناية  
بنظام الري وحسن توزيع المياه على الأراضى الزراعية<sup>(٣)</sup> ومساعدة الملتزمين فى تحصيل  
الأموال من الفلاحين<sup>(٤)</sup>.

٣- جماعة الجراكسة : وأفراد الطائفة من المماليك الجراكسة الذين دخلوا فى خدمة الدولة ،  
واستظلوا بالسيادة العثمانية بعد أن سمح السلطان لهم بذلك ، وهم من الفرسان الذين  
اشتهروا بركوب الخيل واتقان فنون الفروسية ويعملون على تنفيذ وأداء الخدمات السلطانية  
ومسرح نشاطهم فى الأقاليم أيضا<sup>(٥)</sup> .

#### ب- أوجاق مستحفظان :

وهؤلاء هم الانكشارية ، وكانوا أقوى الأوجاقات وأكثرها عددا ، عرفوا بأوجاق السلطان  
ومهمتهم مساعدة الباشا فى تنفيذ أوامر السلطان كما كانت لهم رقابة عليه ، ومنهم طائفة  
من كبار أصحاب المناصب مثل كتخدا الباشا فى بعض الأحيان ، وأغا الانكشارية الذى كانت  
له الرئاسة العليا على ضبط مدينة القاهرة ، وكذلك سردار الحج وسردار الخزينة<sup>(٦)</sup> .

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المصدر السابق ، ص ١٣١-١٣٤ وكانت الطلبة قد فرضت على الفلاحين  
منذ زمن أويس باشا عام ٩٩٧هـ/١٥٨٨م وقد وصلت قوة السباهية إلى اصدار أوامرههم بعدم استخدام العربان  
المماليك البيض ولايستخدم النصارى جوار ولاعبيد ويطشوا بهم (انظر ايضا محمد البرلس السعدى ، بلوغ  
الأرب برفع الطلب ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، بالمجلة التاريخية العدد ٢٤ ، ص ٢٨٦) .

(٢) محمد بن ابى السرور البكرى ، كشف الكربة برفع الطلبة ، ص ٣٥١ .

(٣) عراقى يوسف محمد ، الوجود العثماني فى مصر ، ج ١ ، ص ٧٦ .

(٤) حسن عثمان ، المجلد فى تاريخ مصر ، ص ٢٥٧ .

(٥) قانون نامه مصر ، ص ٣١ .

(٦) حسن عثمان ، المجلد فى تاريخ مصر ، ص ٢٥٧ .

### ج- أوجاق عزبان :

كان لرجال هذا الأوجاق عدة اختصاصات فمنهم بحارة ترسانة الاسكندرية والسويس وكان من رجاله أمين البحرين وهو المشرف على ساحلى بولاق ومصر القديمة ، فيما يتعلق بالسفن وبالضرائب المفروضة على الغلال الواردة لهذين الساحلين . وكذلك كانت لهم اختصاصات بوليسية فتتألف منهم مراكز البوليس بالقاهرة ويشرفون أيضا على الملاهى والبهلوانات<sup>(١)</sup>.

### د- أوجاق جاوشان :

كان العمل الرئيسى لهذا الأوجاق تحصيل الأموال الأميرية من الملتزمين وتوريدها إلى خزينة الروزنامة ، ومن واجبه أيضا الاشراف على شئون الغلال الأميرية ، وكان المحتسب فى العهد العثمانى من رجال الجاوشان ، وتلخص اختصاصاته فى الاشراف على الاسواق وضبط الموازين والمكايل وتسعير المواد التجارية وضبط الأمن<sup>(٢)</sup> .

### و- أوجاق متفرقة :

أهم أعمال هذا الأوجاق حفظ القلاع التى تحيط بمصر مثل قلاع الإسكندرية ، ورشيد والبرلس ودمياط والعريش والطور وأسوان وابريم ، ولكل من هذه القلاع طوائف من المتفرقة المشاة والفرسان والطوبجية مع جماعة من الطباليين وناقضى البورى والمعمارين والنجارين . ويشرف هذا الأوجاق أيضا على تشهيل القوافل ونقل الغلال ومختلف البضائع والمهمات بين الصعيد والقاهرة والسويس ويتولى هذا العمل قافلة باشى أى رئيس القافلة ، وكذلك يعنى أوجاق المتفرقة بجمع البارود اللازم لشئون الدفاع عن مصر الذى يرسل جانب منه إلى السلطان<sup>(٣)</sup> .

### القضاء :

أولى العثمانيون شئون القضاء فى مصر جانبا كبيرا من اهتمامهم ، اسوة بما كانوا يتبعونه فى مراكز السلطنة فى مختلف الولايات ، فأحاطوا منصب القاضى بأهمية كبيرة ومنحوه

(١) نفسه ، ص ٢٥٧ .

(٢) نفسه ، ص ٢٥٦ .

(٣) حسن عثمان ، المجلد فى تاريخ مصر ، ص ٢٥٦ .

سلطات واسعة قضائية وإدارية ، مما جعل الوثائق تطلق عليه لقب الحاكم الشرعى ، فالقاضى هو المختص بالفصل فى خصومات الأفراد ، والنظر فى شئون تركاتهم ووصاياهم وسائر شئونهم الشرعية ، فلا يتم اتفاق بين شخصين الا أمام القاضى ، وأمامه تجرى جميع عمليات البيع والشراء فى الأرض والعقارات . وكل موظف لا يستطيع أن يمارس مهامه المحددة له الا اذا أثبت لدى القاضى صحة تعيينه ، وسجل براءة هذا التعيين فى سجل المحكمة . ويشترك القاضى اشتراكا فعليا فى إدارة شئون الولاية عن طريق عضويته بالديوان العالى وهو أعلى مجلس إدارة فى الولاية<sup>(١)</sup> .

وأصبح القضاء فى مصر العثمانية تابعا للقضاء الإسلامى فى استانبول ، وكان السلطان يرسل إلى مصر ، قاضى القضاة المعروف باسم "قاضى عسكر أفندى ، ويأتى فى البروتوكول العثمانى من حيث الترتيب ، بعد قضاة استانبول ومكة المكرمة والمدينة وبروضة ، بذلك يتضح أنه كان فى مقدمة قضاة الدولة العثمانية<sup>(٢)</sup> والذى تنعته الفرمانات العثمانية "بأقضى قضاة المسلمين .. وارفع اعلام الشريعة والدين .. مولانا قاضى مصر ، ويشترك فى محاسبة الباشا فى آخر ولايته ، ويشرف على القضاء فى أنحاء البلاد . وفى بدء الحكم العثمانى فى مصر كان السلطان يرسل قضاة عثمانيين يعاونون قاضى العسكر فى تطبيق العدالة فى مصر ، وهؤلاء يستعينون بالتراجمة لجهلهم لغة البلاد وتقاليدهم . وفى العهد العثمانى أصبح مذهب أبى حنيفة هو المذهب السائد ، ولم يمنع ذلك وجود مفتين على مذاهب الشافعى ومالك وأبى حنبل ، يرجع اليهم القضاة عند الضرورة . وكان القضاة يفصلون فى أغلب القضايا المدنية والجنائية ، ولا يصدرن أحكامهم الا بعد اثبات الحادث . وكانت أحكامه قابلة للنقض بعد الرجوع إلى المفتين وكانت تعرض المشاكل القضائية المهمة على ديوان الباشا لبدء الرأى فيها<sup>(٣)</sup> .

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص ٢٤٢ .

(٢) عبد الرازق ابراهيم عيسى ، تاريخ القضاء فى مصر العثمانية (١٥١٧-١٧٩٨م) القاهرة ١٩٩٨ ،

ص ٨٤ .

(٣) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص ٢٤٢ .

وكذلك من اختصاص القضاة فى مصر العثمانية الاشراف على ادارة الأوقاف والمرتببات الخيرية المخصصة للعلماء أو المجاورين بالأزهر . أو لأهل الحرمين الشريفين ، وتقسيم التركات وتحصيل الرسوم على المبيعات ، والتصرفات العقارية مع تسجيل حجج البيع والشراء . وكانت تحول إلى قاضى العسكر الأوراق من الديوان الدفترى ، فيما يستدعى التحقيق من عرائض الشكوى ، ومشاكل الملتزمين ، فينظر فيها ويصدر عنها أحكامه الشرعية التى يأخذ بها الباشا العثمانى<sup>(١)</sup> .

كما اختص قاضى العسكر فى قضايا ذات اختصاص نوعى إضافة إلى ماسبق هى<sup>(٢)</sup> .

١- فسخ الأنكحة .

٢- مبيعة الأنقاض .

٣- الكتابة على الواقف بماله من الشرط .

٤- الكتابة على أوقاف الدشايش .

وتصدر عن المحاكم الشرعية "حجج شرعية يثبت فيها صرف مرتبات العساكر وتسجل بها حالات انتقال الالتزامات و (اعلامات شرعية) وتحتوى على أحكام قاضى العسكر فى مسائل الالتزام ، واشهادات شرعية تسجل فيها حالات معينة كانشاء سفن نقل الغلال إلى الحرمين الشريفين أو حماية اليهود من استبداد الانكشارية ، و "تمكينات شرعية" تسجل فيها بعض المرتبات والمنح ، أو ينص فيها على حق الموظفين فى وظائفهم<sup>(٣)</sup> .

وكان قاضى العسكر وسائر القضاة يحصلون على مراكزهم بالشراء فى نظير الرسوم التى يحصلونها مثل رسوم التمغيات والقضايا ومعابنة التركات وتقسيمها ورسوم الحج والأوراق التى تصدر عن المحاكم . وقد يؤثر القاضى أحيانا الإقامة فى العاصمة دون الذهاب إلى مقر عمله فيرسل من ينوب عنه . وعندما ضعف النفوذ العثمانى فى مصر نقص العنصر العثمانى فى القضاة ، وحل مكانهم قضاة من المصريين . وقد نشأت قصص عن ذمم القضاة وشططهم

(١) حسن عثمان ، المجلد فى تاريخ مصر ، ص ٢٥٨ .

(٢) نفسه ، ص ٢٥٩ .

(٣) حسن عثمان ، المجلد فى تاريخ مصر ، ص ٢٥٩ .

فى جمع الرسوم دون العناية بتحقيق العدالة ، فكانت الحكومة تتدخل وتحاول أن تمنع ذلك الاختلال ، وأن تعمل على تحقيق العدل ، الا أن ذلك لم يكن من المستطاع فى الغالب فى عصر تأخر الدولة العثمانية<sup>(١)</sup> .

أما عن مدة تولية قاضى القضاة ، فنجد فى بداية العهد العثمانى كان قاضى القضاة ، يشغل منصبه لسنوات طويلة وصلت إلى ستة عشر عاما متوالية ، ثم قصرت مدة شغل القاضى لوظيفته تدريجيا ، فأصبحت تتراوح بين ثلاث سنوات وسنة واحدة ، وفى القرن الثامن عشر وحتى أواخر العهد العثمانى أصبح قاضى القضاة يعين لمدة سنة واحدة<sup>(٢)</sup> .

وفى حالة وفاة قاضى العسكر وهو فى الخدمة أو عند انتهاء مدته كان الباشا يصدر فرمانا بتعيين قائم مقام عنه حتى يصل القاضى الجديد من استانبول وفى هذه الحالة كان القائم مقام يطلع إلى الديوان ، ويتولى أعمال القائم مقام حتى قدوم قاضى العسكر إلى مصر<sup>(٣)</sup> .

بالإضافة إلى ذلك يوجد قضاة الأقاليم حيث قسم الاقليم المصرى إلى ستة وثلاثين قضاة يضم ست رتب ، وكانت المرتبة الثانية فى كلا القسمين تسمى موصلة تمهيدية . وكان القضاة فى الاقاليم درجات أعظمهم قضاة المديريات البحرية والثغور .

ويعين قاضى عسكر الأناضول قضاة الاقاليم ولا توجد سلطة لقاضى عسكر عليهم منهم مستقلون عنه تماما . كما أن كل اقليم مستقل من الناحية القضائية عن الآخر<sup>(٤)</sup> .

أما الاختصاصات القضائية لقضاة الأقاليم نظر قضاة الشرع فى الأقاليم فى كافة أنواع القضايا التى تعرض عليهم ، فلم تكن هناك قضايا مخصصة لهم ، ومرد ذلك أن القاضى فى الاقليم كان رئيس الهيئة القضائية بهذا الاقليم ، لذا فلم تكن هناك نوعية محددة من القضايا

(١) حسن عثمان، المرجع السابق ، ص ٢٥٩ ؛ ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٢٦٣ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٢٤٨-٢٤٩ ، عبد الرازق ابراهيم عيسى ، تاريخ القضاء فى مصر العثمانية ، ص ٨٧ .

(٣) عبد الرازق ابراهيم عيسى ، تاريخ القضاء فى مصر العثمانية ، ص ٨٥ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٢٤٨-٢٤٩ ، عبد الرازق ابراهيم عيسى ، تاريخ القضاء فى مصر العثمانية ، ص ٨٧ .

أو اختصاص قضائي نوعي ومن حق الناس اللجوء إلى المحاكم في أى وقت ورفع الدعوى على خصوصهم وطلبهم امام الشرع . ويقدم مقدمو الادراك وهم المسئولون عن الأمن في الاقاليم - من يقبضون عليه من المفسدين إلى القاضى الذى يقوم بالنظر فى حالته أو الأمر بسجنه حتى يظهر من أمره ماتكشف عنه التحريات<sup>(١)</sup>.

وفى المحاكم الاقليمية أيضا ولدى القاضى كان يجرى تنصيب مشايخ طوائف الحرف وعزلهم أيضا<sup>(٢)</sup> واختصوا أيضا بالطب الشرعى والكشف على الجثة قبل دفنها وذلك بمساعدة الجراحية<sup>(٣)</sup> وتحديد أسعار المأكولات ، كأنواع اللحوم والخبز وغير ذلك ، ويكون ذلك بحضور بعض المسئولين عن بيع هذه المأكولات ثم يقوم القاضى عن طريق رجاله بالجهر بالنداء بالتسعيرة الجديدة فى الأسواق<sup>(٤)</sup> .

أما عن مدة شغل القاضى لوظيفته تصل إلى عامين أو أكثر فى أوائل العهد العثمانى ، ولكن فى القرن الثامن عشر لم تعد مدة خدمة القاضى تزيد عن سنة واحدة<sup>(٥)</sup> .

#### المفتون :

وقد عرف نظام الافتاء فى مصر فى العصر المملوكى السابق لوجود العثمانيين فى مصر اذ كان الماليك يعينون مفتيا من كل مذهب يقيم فى دار العدل القائمة فى عاصمة كل نيابة . وفى القرن السادس عشر كان كثير من المفتين فى مصر والشام من أصل رومى أى من الأناضول أما فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فقد غدا المفتون فى مصر وغيرها من البلاد العربية شخصيات محلية عربية ، والمفتى عالم دينى ولم يكن يشترط تخرج رجال الافتاء فى الاقاليم من مدارس استانبول كقاضى العسكر وإنما كان يقبل تخرجهم من أية مدارس أخرى<sup>(٦)</sup> .

(١) عبد الرازق ابراهيم عيسى ، القضاة فى مصر العثمانية ، ص ٩٤ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٢٧٥ .

(٣) عبد الرازق ابراهيم عيسى ، المرجع السابق ص ١٠١٠ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .

(٥) نفسه ، ص ٢٨٥ .

(٦) نفسه ، ص ٢٩٠ .

وقد وجد فى مصر مفتون على المذاهب الأربعة فى الاقاليم كانوا يحضرون مجالس الشرع فى المحاكم الاقليمية حينما يكون موضوع الجلسة متعلقا بادرارة الاقليم . ويأتى المفتى فى الاقليم بعد القاضى ، وفوق نائبه ، فلم يكن للمفتى فى مصر الدرجة التى وصل اليها المفتى فى دار السلطنة نفسها . وفى مصر العثمانية كان العلماء المحليين هم الذين يختارون مفتيهم ثم تعمل السلطات على الاعتراف بهم<sup>(١)</sup> .

أما عن ابرادات المفتين ومدة خدمتهم ، فقد كان المفتون يحصلون على بعض مرتبات الجراية والعليق من قمح وشعير يكون قد وقفها عليهم بعض الباشوات وهى مرتبات خيرية سنوية تصرف لهم من الخزينة . وبالنسبة للمدة فقد كان المفتى يحصل على منصبه لمدة الحياة لا لسنوات محددة ، ولا يرتقى واحد منهم من منصب إلى آخر ولا ينال أجرا من الدولة<sup>(٢)</sup> .

ومن الشخصيات الدينية الأخرى التى وجدت فى مصر العثمانية :

#### نقيب الأشراف :

وكلمة أشراف تعنى أولئك الأفراد الذين هم من نسل سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أكان ذلك عن طريق الأم أو الأب ولم يكن هؤلاء بالضرورة رجال دين وإنما كان منهم التاجر والصانع والفلاح وان العلاقة القوية التى وجدت بين أرباب الحرف والأشراف نظرا لوجود كثير من الأشراف بين الحرفيين قد أفادت الأشراف من ناحيتى التنظيم والقوة فقد دعمهم أرباب الحرف وهم عادة ذوى سلطة سياسية وقد تمتع الأشراف باحترام خاص من مجموع الشعب وشكلوا جماعة منفصلة ومتميزة وحتى تراقب الدولة هذه الجماعة وتمنع الناس من ادعاء هذا النسب الشريف أوجد العباسيون ثم المماليك بعد رئيسا للأشراف أطلق عليه نقيب الأشراف سارت الدولة العثمانية على نفس المنهج وكان لنقيب الأشراف فى استانبول سلطة على نقباء الأشراف فى الولايات وهو الذى يعينهم وله سلطة قضائية عليهم<sup>(٣)</sup> وكان نقيب

(١) ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر ، ص ٢٩٠ .

(٢) نفسه ، ص ٢٩١ .

(٣) عبد العزيز محمد الشناوى ، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها الجزء الأول ، ص ١٣١ .

الإشراف في مصر يرسل من استانبول في بداية العهد العثماني واستمر ذلك حتى القرن الثامن عشر ثم أصبح يتولاها شيخ السجادة البكرية من آل البكرى في مصر . ويعتبر جمع الأشراف في مصر أتباع للنقيب وله أن يمارس عليهم سلطة قضائية تصل إلى عقوبة التغرير وعقوبة الحبس ولم تصل تلك السلطة إلى حد عقوبة الاعدام . وكان لنقيب الأشراف نواب يمثلونه في الاقاليم ويمارسون نفس سلطته على الأشراف فيها . ويحضر نقيب الأشراف الاجتماعات الادارية الهامة التي كانت تعقدها الادارة في مصر في شكل جمعيات لحل الازمات المحلية وذلك باعتباره شخصية لها وزنها في المجتمع ولها تأثير على اتباعها ويتولى نقيب الأشراف منصبه لدى الحياة . ولم يكن له مرتب من الخزينة ، وإنما كانت أوقاف معينة من أراضي أوقفها السلاطين ليستعين بها النقيب في معاشه ونفقة أتباعه<sup>(١)</sup> .

### الإدارة المالية :

كانت لمصر في العهد العثماني ادارة مالية دقيقة ، اشترك في ادارتها الديوان الدفترى وديوان الروزنامه ، وفريق من رجال الحامية العثمانية ووزعت الأراضي الزراعية والجمارك بطريق الالتزام ، وكانت تجبى الضرائب ، وتجمع إيرادات الولاية ، ثم تصرف في الوجوه المخصصة لها ، وما تبقى يرسل لخزينة السلطان ، ولنعرض لهذه النواحي بصفة عامة<sup>(٢)</sup> .

واستبقى العثمانيون في بداية حكم في مصر الموظفين والكتاب الذين سبقت لهم الخدمة في خزينة السلطنة المملوكية ، وعهدوا إليهم بإدارة الخزينة العامرة ، وقد عين العثمانيون "متحدثا" أو مباشرا أو مفتشا لكل اقليم وكان أكثرهم من القضاة "ويتولى "المتحدث" الإشراف على سجلات الأراضي الزراعية الخاصة باقليمه ، ويحدد مقدار الضريبة المطلوبة منه ، ويستلم إيراداتها من العمال والكشاف الذين يسلمونه إياها في القاهرة في مقر الخزينة بالقلعة، وكان يرأس هؤلاء المباشرين في عملهم ويراقبهم رئيس أطلق عليه لقب "ناظر الأموال" ويساعده في اداء مهمته أمين الشهر<sup>(٣)</sup> .

(١) ليلي عبد اللطيف أحمد ، الادارة في مصر ، ص ٢٩٧ .

(٢) حسن عثمان ، المجلد في تاريخ مصر ، ص ٢٦٠ .

(٣) ليلي عبد اللطيف أحمد ، الادارة في مصر ، ص ٢٩٧ .

أما أقسام الخزينة السلطانية فى مصر والعاملون بها ، نجد أن الخزينة السلطانية فى انقسمت إلى قسمين :

١- ديوان الدفتردار أو الديوان الدفترى .

٢- ديوان الروزنامة .

١- الديوان الدفترى :

هو بمثابة ديوان المالية ، ويرأسه الدفتردار أى صاحب الشئون المالية وهو فى العادة من الصناجق المصرين ومهمته الاشراف على شئون الولاية وتحصيل أموالها ، والتعجل بانجاز مهام الحرمين الشريفين وصرة أهالى مكة والمدينة ، و"تشهيل خزينة السلطان ومعتادات الآستانة" ومحاسبة الباشا فى آخر ولاية عهده بالولاية . وللدفتردار ساليانة ثابتة نقدية يصرف له من الخزينة ومقدارها ٨٩٢٠٠ بارة سنويا ، يضاف اليها مبلغ ٣٤٩١ بارة تصرف له من الخزينة أيضا وقت ارسال الخزينة الارسالية . وكان يحصل أيضا على مرتب عينى من القمح والشعير وهو ما عرف باسم جراية وعليق وصلت الى ١٠٠ أردب غلال فى السنة ٥٠٠ أردب قمح و ٥٠٠ أردب شعير<sup>(١)</sup> وعوائد مختلفة مثل بعض أموال على أصحاب المرتبات الثابتة ، وعلى بعض أموال على أصحاب المرتبات الثابتة ، وعلى بعض وجوه ايراد الباشا ، وللدفتردار وكيل ومهر دار ، وموظفون يعملون تحت اشرافه . وكان الديوان الدفترى عصب النظام المالى القائم على نظام الالتزام ، فهو الذى يطرح مقاطعات الالتزامات فى المزاد ، وهو الذى يقرر من يرسو عليه المزاد ، وهو الذى ترفع اليه أوراق الملتزمين من ديوان الروزنامة التابع له ، ويضع عنها البيانات اللازمة ، ويقدمها للباشا فى "عرضحال" خاص فيصدر الأوامر المناسبة ، ومن ثم يصدر عن الديوان الدفترى "تقسيط الالتزامات المحرر بخطى قيرمة والديوانى والمذيل بطغراء الدفتردار والمهمور بخاتم الباشا كما يصدر الديوان الدفترى "مراسيم دفترية" خاصة برفع أو تخفيض أموال وغير ذلك من الشئون المالية<sup>(٢)</sup>.

وقد حل الدفتردار مكان ناظر الأموال ، وكان الدفتردار فى بداية العهد العثمانى شخصية عثمانية يعين لرئاسة الادارة المالية فى مصر من بين رجال الخزينة السلطانية المركزية فى

(١) حسن عثمان ، المجلد فى تاريخ مصر ، ص ٢٦٠ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٢٩٨ .

(٢) حسن عثمان ، المجلد فى تاريخ مصر ، ص ٢٦٠ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٢٩٨ .

استانبول ويلقب الدفتردار فى الوثائق بلقب دفتردار أفندى دفتردار خزينة عامرة . وكان الدفتردار شخصية كبيرة فكان يتولى مناصب ادارية هامة بالإضافة لمنصبه فى رئاسة الادارة المالية فى مصر مثل منصب قائم مقام الباشا فى بعض الأحيان<sup>(١)</sup> .

ولم يكن للدفتردار مدة محددة بل كان يستطيع الاحتفاظ بمنصبه طالما هو فى مركز القوة والسادة بين أقرانه من البكوات الصناجق فى مصر<sup>(٢)</sup> .

## ٢- ديوان الروزنامة :

كان تابعا للديوان الدفترى مهمته جمع الأموال الأميرية وصرفها فى وجوها المختلفة تحت اشراف الديوان الدفترى ، وكان يقوم بالعمل فيه أفندية من الكتاب أطراهم المؤرخون المعاصرون ووسموهم باللباقة ورقة الحاشية ودمائة الخلق ، وآثارهم المودعة فى دار المحفوظات المصرية ، تنبئ عن دقتهم وطول باعهم فى العلوم الحسابية ومختلف شئون الادارة والزراعة وجباية الأموال وجمال خطوطهم ينبئ عن مهارة خطية ترتفع إلى مصاف كبار الخطاطين . ولعل هذه الوثائق من دفاتر وأوراق من الآثار التى توسم بالدقة فى عصر غلبت عليه القلاقل والفتن.

وكان أفندية الروزنامة يرأسون أقلام الروزنامة التى تسمى بالمقاطعات ويؤدون أعمالهم لمدى الحياة ، ويورثون أبناءهم أو مماليكهم وظائفهم بعد التمرن على أعمال الروزنامة . وسجل على الروزنامة طوال العهد العثمانى جو من السرية والتكتم ، وتعددت الأوامر فى وثائق ذلك العصر بالا يفشى أحد الأفندية شأنا من شئون الروزنامة الا بأمر من الباشا نفسه . وضمن لهم سرية أعمال الروزنامة تحريرهم دفاترهم ومعظم أوراقهم بهذا الخط السرى العجيب - خط القيرمة- الذى يصعب قراءته الا بعد التمرن على مختلف قوالب الكلمات والجمل<sup>(٣)</sup> .

والروزنامجى هو المدير العام لديوان الروزنامة وكبير الأفندية وكان الباشا يعينه بموافقة شيخ البلد والصناجق ورؤساء الأوجاقات ومهمته الاشراف على تحصيل الأموال المقررة

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٣٠٠ .

(٢) نفسه ، ص ٣٠١ .

(٣) حسن عثمان ، المجلد فى تاريخ مصر ، ص ٢٦٢ .

وصرفها، وتعرض عليه الأوامر الصادرة من الباشا فيحيلها بدوره إلى الأقسام المختصة ، ويرفع البيانات المتحررة من مختلف أقسام الروزنامة إلى الديوان الدفترى . والروزنامجى معاونون مساعدون وأهمهم أربعة خلفاء أو قلفاوات<sup>(١)</sup> وكان أهمهم "الباش مباشر" أو "الباش خليفة" أو "الباش قلفة" أو سر خليفة وكان هو الوكيل الأول للروزنامجى ، ويحل محله إذا خلا منصب الروزنامجى فيعمل فيه كقائم مقام بدل الروزنامجى وكان الروزنامجية دائما يؤخذون من طبقة الباش خليفة ، ثم يأتى بعد الباش خليفة ، ثانى خليفة ، ثم رابع خليفة<sup>(٢)</sup> ومنهم يتألف مكتب مدير الروزنامة وهو الخلفاء أو القلفاوات يشرفون على كل الأعمال الحسابية التى يقوم بها الأفندية ، على كل السجلات التى تحت أيديهم<sup>(٣)</sup> ومن مساعدى الروزنامجى الآخرين ثلاثة صبيان شاكرديه وكيسة دار<sup>(٤)</sup> .

والروزنامجى عضو أساسى فى الديوان العالى ولا بد من حضوره فى الجلسات الخاصة بالنواحي المالية ومعه بعض مساعديه ليقدّم البيانات المطلوبة عن مالية مصر فى حالة محاسبة الباشا بعد عزله . وفى حالة ارسال الخزينة الارشالية للسلطان ، وارسال مال الحرمين الشريفين وغير ذلك من الجلسات التى تعقد للاغراض المالية<sup>(٥)</sup> .

وينقسم ديوان الروزنامة إلى عدة أقسام أو مقاطعات يرأس كل منها أفندى تنعته الوثائق "بالمقاطعجى" وتوزع الاختصاصات الحسابية والمالية على هذه الأقسام أو المقاطعات ، ولديها سجلات متعددة مثل سجلات التزامات الأراضى الزراعية وسجلات التزامات الجمارك وسجلات الغلال المطلوبة عينا من الوجه القبلى ، وسجلات معتادات الاستانة وأموال الحرمين الشريفين وسجلات الغلال المخصصة للباشا وللدفتردار ، ولقاضى عسكر أفندى وللأمراء الصناعى وسجلات الأراضى الموقوفة والاحسانات والمنح ولديها أيضا سجلات "مواجبات العسكر وجامكياتهم" والذي كان يعاون أفندية الروزنامة فى تشهيلها أفندية الأوجاقات السبعة المثلين فى ديوان الروزنامة وقلم "الخزينة دار" من الأقسام المهمة ، وهو قلم مدير خزينة

(١) حسن عثمان، المرجع السابق ، ص ٢٦٣ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص ٣٠٦ .

(٣) نفسه ، ص ٣٠٧ .

(٤) نفسه ، ص ٣٠٧ .

(٥) نفسه ، ص ٣٠٤ .

الروزنامة التي هي خزينة مصر ، ويتولى جميع الأموال الأميرية وقبدها وصرفها في وجوها المعينة ، كما يراقب جميع الأعمال المالية في ديوان الـروزنامة<sup>(١)</sup> .

ويضاف إلى أفندية الـروزنامة بعض الموظفين مثل "التذكري" وهو الذي يحرر مختلف تقاسيط الالتزام والتذاكر الديوانية عن مختلف المرتبات والمخصصات الأميرية ، و"التاريخي" وهو الذي يضع تاريخ كل مستند رسمي ، وروزنامجي واردات ويكون دائما أحد أتباع الباشا وهو يقيد إيراداته ، و"إلغاء جبة جيان" وهو الذي يقيد المطلوب من ملح البارود للجبة خانة العامرة و"أمين الصناديق" وهو بمثابة أمين دفتر خانة أو محفوظات الـروزنامة، "كاغد أمين" أي أمين الأوراق والمهردار وهو حامل أختام الـروزنامة<sup>(٢)</sup> .

يعزل الـروزنامجي من منصبه في حالة فشله في إصلاح مالية مصر وتجاوز الأزمات التي كانت تحل بها أو لاتهام الباشا له بالاثراء بطريقة غير مشروعة باستغلال منصبه وفي بعض الحالات كان الـروزنامجي يعزل من منصبه لعجزه عن اداء عمله لمرضه أو بخلو المنصب لوفاء صاحبه<sup>(٣)</sup> .

---

(١) حسن عثمان ، المجلد في تاريخ مصر ، ص ٢٦٢ .

(٢) نفسه ، ص ٢٦٢ .

(٣) ليلي عبد اللطيف أحمد ، الادارة في مصر ، ص ٣٠٥ .



### الفصل الثالث

دراسة عن بعض جمارك مصر فى القرن الثامن عشر  
(الاسكندرية - دمياط - رشيد - البرلس)

#### موقع مصر الجغرافى :

إمتازت مصر بموقعها الجغرافى الفريد بين القرات الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقيا ، ولقد لعبت الملاحة دوراً مهماً فى ربط مصر بشعوب تلك البلاد عن طريق البحر المتوسط شمالاً ، والبحر الأحمر شرقاً ، ثم بحر النيل الذى يربط بين أجزائها وبين شعوب أفريقيا جنوباً .

وبعد البحر المتوسط منذ أقدم العصور . مركزاً للحضارات الكبرى ، وأداة وصل بينها شرقاً وغرباً . وقد حمل لواءها الشعوب المظلة عليه ، كالمصريين القدماء والفينقيين واليونان والرومان ثم العرب . وساهمت مصر بنصيب كبير فى هذا المضمار ، لطول سواحلها وكثرة قواعدها ، وقوة أساطيلها التى تمخر فى عبابه .

وتطل مصر على البحر المتوسط بساحل يمتد من رفح حتى السلوم<sup>(١)</sup> ورغم طوال السواحل المصرية ، فإن قلة الموانئ الصالحة وملائمة الظروف الطبيعية والإقتصادية للنشاط البشرى وغنى البيئة فى الدلتا والوادي جعلت هذا النشاط البحرى قريباً من منفذ الدلتا إلى البحار ، ويتضح ذلك فى كثير من عهود التاريخ المصرى ، وقد أدت ضرورة توفير هذه المنافذ إلى انشاء ميناء الاسكندرية والعمل على توسيعها وتدعيمها لتلائم احتياجات السفن الحديثة ذات الغاطس الكبير ، فأهملت تبعاً لذلك الميناء الشرقية منها<sup>(٢)</sup> .

ولما جاء الاسكندر إلى مصر اختار موقع الاسكندرية فى مكان راقوده المواجهة لجزيرة فاروس البعيدة عن غرين النيل . وبدأ يشحن منها الإغريق قمح مصر . وقد جعل هذا الميناء من الاسكندرية عاصمة العالم الثقافية فى القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد . أما بعد عهد

---

(١) محمد فاتح عقيل ، أهمية الموقع الجغرافى لسواحل مصر العربية ، فى كتاب تاريخ البحرية المصرية،

عام ١٩٧٤ ، ص ١٩ .

(٢) نفسه ، ص ٤٣ .

الاسكندر فقد برزت قيمة موقع مصر وسواحلها وأصبح تاريخ مصر وحياة مجتمعتها مرتبطاً أشد الارتباط بهذا الموقع وبدأ البطالة في اعداد مصر لان تكون قاعدة صالحة للتحكم في طرق المواصلات العالمية ، ثم التوسع التجارى والثقافى ، والتفتوا نحو فتح طرق التجارة خصوصا طريق البحر الأحمر إلى الشرق والهند ، فأصبحت مصر بالتدريج حلقة الاتصال التجارى فى العالم<sup>(١)</sup> .

وفى العهد الإسلامى إهتم العرب بالبحر الاحمر ، أكثر من أهتمامهم بالبحر المتوسط<sup>(٢)</sup> وعلى البحر المتوسط شهدت سواحل مصر نشاطا كبيرا فى هذه الفترة وكانت التجارة الوافدة من ممالك أوروبا من آسيا الصغرى والشام وجزر البحر المتوسط تصل إلى موانئ مصر الشمالية ثم تنتقل بالقوافل إلى الفسطاط عن طريق النيل وفروعه وترعه .

وظهرت أهمية البحر المتوسط فهو حلقة اتصال بين الشرق والغرب<sup>(٣)</sup> ويتضح من ذلك كله أن مصر كانت بمثابة المحور الرئيسى الذى تتم عن طريقه عملية التبادل التجارية ، والاستثمارات الإقتصادية بين البلدان العربية ، فمنها تخرج القوافل التجارية إلى مختلف المناطق العربية فى الغرب والشرق على السواء ، وفيها تعود هذه القوافل محملة بمنتجات هذه المناطق ، وهى مركز لعمليات التصدير والإستيراد مع كل البلدان الاوربية والاسيوية<sup>(٤)</sup> .

وكانت السلع والبضائع الشرقية الواردة من الشرق الأقصى ومن الصين والهند وغيرها من بلاد شرق وجنوب شرق آسيا فى طريقها إلى أسواق أوروبا الغربية تمر بثلاث طرق رئيسية<sup>(٥)</sup> :

---

(١) محمد فاتح عقيل ، المرجع السابق ص ٤٦ .

(٢) نفسه ، ص ٥٠ .

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . العلاقات الإقتصادية والإجتماعية بين الولايات العربية فى العصر العثمانى ، ١٥١٧-١٧٩٨م ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد التاسع ، المجلد الثالث عام ١٩٨٣ ، ص ١٦ .

(٤) زيجريد هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب ، أثر الحضارة العربية على أوروبا ص ٣٤ .

(٥) أسامه أحمد اسماعيل ، الإسكندرية فى عصر دولتى سلاطين المماليك ، رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب الاسكندرية عام ١٩٨٧ ، ص ٧٨ .

- ١- الطريق المصرى أو كما كان يعرف أيضا بطريق البحر الأحمر .
- ٢- الطريق الشامى ، أو طريق الشرق الأقصى ، الخليج العربى .
- ٣- الطريق البرى ، الذى يشق أواسط آسيا ويمكن تسميته بطريق البحر الاسود .

### أولا : الاسكندرية :

كانت الاسكندرية تتصل بالمغرب اتصالا وثيقا منذ أوائل القرن الرابع الهجرى ، فقد كانت الهدف الاول لحملات الفاطميين الأولى على مصر برا وبحرا ، وبها نزلت جنود هذه الحملات وأساطيلها وأيضاً نزلت جنود الحملة الفاطمية الرابعة التى نجحت فى فتح مصر . ومنذ ذلك التاريخ أصبحت مقر أسطول الخلافة ، وتعرضت الاسكندرية كما تعرضت دمياط لغزوات الفرنج الصليبية ، وقد أتى إلى الاسكندرية أسطولهم فى عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م وأستطاعوا النزول إلى الاسكندرية فى عهد صلاح الدين (١) .

وفى عصر الايوين إرتفعت مكانة الاسكندرية حتى أصبحت ميناء مصر الأولى ، وميناء المرور لتجارة الشرق والغرب . وتحولت إليها أنظار الصليبيين أو بقاياهم فى جزر البحر المتوسط وأوروبا بعد أن منيت حملاتهم على دمياط فى عهد الملك الكامل محمد والملك الصالح نجم الدين أيوب بالهزيمة (٢) .

وأصبحت تمثل مركز الصدارة فى التجارة العالمية فى البحر المتوسط ؛ وكانت معظم الطرق العالمية تمر عليها .

وكان ميناء الاسكندرية من أكبر المراكز التجارية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك ، حيث صدر منها منتجات الشرق الاقصى ، وقد حرص السلاطين المماليك على الترحيب بالتجار الاوروبيين الذين يفدون إلى الاسكندرية ودمياط لشراء الحاصلات الشرقية ، وكان هؤلاء التجار الأوروبيون يفضلون الإقامة دائما بالمدن التجارية بالشغور على شاطئ البحر المتوسط (٣) .

(١) جمال الدين الشبال ، تاريخ مصر الإسلامية ؛ العصران الايوى والملوكى ، ص ٢٢٧ .

(٢) محمد عقيل ، المرجع السابق ؛ ص ٥٤ .

(٣) ابراهيم حسن سعيد ، البحرية فى عصر سلاطين المماليك ، ص ٢٠٤ .

وكانت الاسكندرية بحكم موقعها مع بداية العصر العثماني تفوق القاهرة ويرجع ذلك لاتصالها بأوروبا مباشرة<sup>(١)</sup> وموانئ مصر أبان العصر العثماني هي الاسكندرية ورشيد ودمياط والسويس . وكانت هذه الموانئ . لها إدارة خاصة استقلت عن الباشا ، فكان الباب العالي يرسل إلى مصر ثلاثة قبودنات أحدهم للاسكندرية والثاني لدمياط ورشيد والثالث للسويس<sup>(٢)</sup> .

ويحمل هؤلاء القبودنات رتبة الباشوية بالإضافة إلى حملهم رتبة الصنجدية مثل كتخدا<sup>(٣)</sup> (الباشا فيعتبرون من صنايق المقررة للبكوات الصنايق من مرتب نقدي (ساليانة) ومرتب عيني (جراية وعليق) تصرف لهم من خزينة مصر ولكنهم لم يكونوا أعضاء في الديوان العالي مثل البكوات الصنايق ولادخل لهم بإدارة مصر ، بل كانت مهمتهم الأساسية حفظ القلاع ، وربط البنادر والحكم بين الرعايا بالعدل والشفقة وعوائدهم على طرف الميرى<sup>(٤)</sup> من أصل الساليانات المرتبة وعلى جانب التجارات المحضرة بالبنادر<sup>(٥)</sup> .

(١) ليلي عبد اللطيف أحمد ، الإدارة في مصر في العصر العثماني ، ص ٣٨٧ .

(٢) نفسه ، ص ٣٣٨ .

(٣) كتخدا ، بفتح الكاف وسكون التاء وضم الحاء ، وفي التركية كتخدا من الفارسية كتخدا ، والكلمة فارسية من كلمتين (كد) بمعنى البيت وخدا بمعنى الرب والصاحب ، فالكِتخدا هو الأصل رب البيت ويطلقها الفرس على السيد الموقر وعلى الملك ويطلقها الترك على الموظف المسئول والوكيل المعتمد ، والأمين ، فقد كان يقال مثلاً وزراء كتخدا سى أى أمين الخزانة . (أنظر ، أحمد السعيد سليمان ، تأصيل لما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ، ص ١٢٧) .

(٤) الميرى ، كان المال الميرى يمثل الضريبة الرسمية إلى قدرت على أرض الفلاحة ، وقد حددت الروزنامة مقدار المال الميرى المقرر على كل حصة تبعاً لمساحتها وجودة كل جزء من أرض هذه الحصة ، حيث قسمت أرض كل حصة حسب جودتها إلى (عال) و(وسط) و(دون) أو إلى (عال) و(وسط) أو إلى (دون) و(وسط) (أنظر عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصري في القرن الثامن عشر ، ص ١٠) .

(٥) ليلي عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص ٣٨٨ .

## ١- القابودان (\*)

يعد هذا الشخص على قمة الجهاز الإداري بالإسكندرية ، وكانت الدولة العثمانية تعينه مع غيره من القبودانات الذين يعينون في دمياط ورشيد والسويس . وكان قابودان الإسكندرية أهم هؤلاء القبودانات ، وتتمثل مهمة قابودان الإسكندرية في إمداد الأسطول العثماني بالسفن عند قيامه بالعمليات البحرية في شرق البحر المتوسط وغربه ، وكان من واجباته إرسال الجنود المطلوبين من الأوجاقات العسكرية المختلفة ، مثل مستحفظان ، وعزبان ، وجاوشان إلى أماكن القتال ، وكان عليه أن يتفق مع السفن التي تنقلهم ، وأن يدفع أجور تلك السفن<sup>(٢)</sup> كما أنه كان يقوم باعداد الذخيرة اللازمة لهم<sup>(٣)</sup> وكان من واجبة الاحتفاظ بخمسين سفينة على الأقل في ميناء الإسكندرية بصفة احتياطية يقدمها عند اللزوم<sup>(٤)</sup> .

وكان عليه أيضا أن يشرف على إرسال السلع المصدرة للدولة العثمانية مثل الحبوب والسكر والبقسمات<sup>(٥)</sup> فضلا على تصدير بعض السلع الغذائية إلى الخارج مثل الأرز ، والعدس والحمص والسكر . وكان يساعده في ذلك وكيل خرج السلطنة<sup>(٦)</sup> وكان يحضر الاتفاقات التي تعقد بين السلطات المختصة بالمدينة والسفن الأوروبية لكي يضمن شحن

(١) ليلي عبد اللطيف، المرجع السابق ، ص ٣٨٧ .

(\*) القابودان : "أوقبطان كلمة تركية صحت كتابتها "قبودان" وهي بمعنى آمر رئيس السفينة (قبطان) وتعنى أيضا أمير البحر أوناخوذة . (انظر ، ابراهيم محمد يونس ، المرجع السابق ، ص ١٧٤ .

(٢) أرشيف الشهر العقارى بالإسكندرية ، محكمة الإسكندرية ، سجل رقم ٥٥ ، مادة ٥٦ ، عام ١٠٢٩هـ / ١٦١٩م سأشير إليها بعد ذلك بالعقارى .

(٣) العقارى ، سجل رقم ٦٣ ، مادة ٢٣١ ، ص ١٣١ ، عام ١١٢٨هـ / ١٧١٥م ، سجل رقم ٦٤ ، مادة ٥٤٩ ، ص ٣٠٥ عام ١١٢٩هـ / ١٧١٦م .

(٤) S.J. Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution pp. 80-81; Idem, (٤) The financial and Administrative Organization and Development in Ottoman Egypt, pp. 184-188 .

(٥) العقارى ، سجل رقم ٧ ، مادة ٢٥٨ ، ص ١١٢ ، عام ٩٧١هـ / ١٥٦٣م .

(٦) العقارى ، سجل رقم ١٥ ، مادة ١٤ ، ص ٩ ، عام ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م .

البضائع المصدرة إلى الخارج ، إلى جانب على أنه كان يحدد إجمالى المبلغ المطلوب دفعه ويقف على كيفية تسديد المبلغ الباقي<sup>(١)</sup> .

وبالإضافة إلى اختصاصاته السابقة كان هو المسئول الأول عن الأمن وعن اتخاذ الإجراءات المناسبة لذلك كان يعقد الاتفاقات مع بعض القبائل العربية لكى تقوم بهذه المهمة ، أى مهمة حفظ الأمن فى الطرق ما بين رشيد والاسكندرية ، وفوة ، فتتعهد تلك القبائل بحماية أمن المسافرين والبضائع فى تلك المناطق<sup>(٢)</sup> وقد اطلقت بعض المصادر المعاصرة على هؤلاء العرب المدركين . وكان حاكم ولاية البحيرة يشترك مع هذا القبودان فى هذه المسئولية ويرجع ذلك إلى اشتراك الحدود بين الاقليمين الاسكندرية والبحيرة .

وكان من واجب هذا القبودان أيضا الاشراف على ملء الصهاريج الموجودة بالمدينة بالماء ، وملء السواقي ، وتعيين المختصين للاشراف على تشغيلها وكان هذا القبودان يتابع قيامهم بهذه المهمة بكل دقة وكان عليه أن يمدهم بالمساعدتين من النجارين والحدادين والجياراة والبنائين والمكارين ، كما كان يعين شيخ السقائين . وكانت رواتبهم تصرف لهم من كشاف ولاية البحيرة . ويبدو أن رواتبهم كانت لاتكفيهم لذلك تقدموا بالتماس إلى القبودان يشكون فيه من قلة رواتبهم ، فبادر - القبودان - بإجابة مطالبهم ورفعها بمقدار النصف أى ٥٠٪ كى تتناسب مع العمل الذى يقومون به<sup>(٣)</sup> .

وكان من واجبات قبودان الإسكندرية تعيين الجوريجى فى سردار مستحفظان أوجاوشان<sup>(٤)</sup> وكانت الفرمانات تصل إليه من القاهرة ، لتحديد المسئول ، عن دلالة الجلود فى المدينة وكانوا فى الغالب من اليهود . وكان من واجباته أيضا تحديد قيمة السمسة بين البائع والمشتري<sup>(٥)</sup> كما كان يقوم بإصدار الأوامر إلى القاضى وإلى أغاوات الحوالة وسدادة البلوكات السبعة

(١) دار المحفوظات المصرية بالقلعة بالقاهرة ، سجل محكمة الإسكندرية رقم ٥ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص ٩٥ ، مادة ٥٩٠ عام ١١٤٧هـ / ١٧٣٤م . وكان المبلغ المتفق عليه مائة وعشرون ريالا ، دفع منه خمسة وثلاثين ريالا ، واتفق على أن يدفع كل يوم مبلغ اثنى عشر ريالا . سأشير إليها بعد ذلك بالمحفوظات.

(٢) المحفوظات ، سجل محكمة الاسكندرية ، رقم ٣ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص ٥٣ مادة ١٨٥ ، عام ١١٢٧هـ / ١٧٢٤م .

(٣) المحفوظات ، سجل رقم ٥ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص ٩٥ ، مادة ٢٩٠ ، عام ١١٤٧هـ / ١٧٣٤م .

(٤) المحفوظات ، سجل محكمة اسكندرية رقم ٦ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، عام ١١٩٥هـ / ١٧٨٠م .

(٥) المحفوظات ، سجل رقم ١٣ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، عام ١١٩٦هـ / ١٧٨١م ، ص ١٠١ ، مادة ٣ . السمسة ٢٪ وقد حدد الأمر هذا السمسار .

للاجتماع لمناقشة بعض الأحداث المهمة المتمثلة فى امتناع الحمالين والشيالين والبائعين عن دفع الرسوم المقررة عليهم إلى السلطات المختصة بالمدينة. وكانت هذه المهمة من اختصاص أوجاق المستحفظان<sup>(١)</sup> وقد انتهت المناقشة باتفاق الجميع على اختصاص الأوجاق المذكور بهذه المهمة<sup>(٢)</sup>.

وكان قبودان الاسكندرية يحصل على دخل سنوى قدره (٨٠٠.٠٠٠ ر.بارة من الرسوم التى يفرضها على البضائع الصادرة من ميناء الإسكندرية واسواق المدينة والواردة إليها ، كما كان يحصل على ساليانه سنوية من خزانة مصر قدرها ٣٠٠.٠٠٠ ر.بارة ، كان ذلك فى القرن السابع عشر ، ثم هبطت هذه الساليانه إلى ٩٨٢٢٦ ر.بارة فى السنة ، أسوة بما حدث من تخفيض لساليانات جميع البكوات والصناجق إلى جانب ذلك كان لقبودان الإسكندرية مرتب عينى بلغ ٥١٥ أردب من الغلال كانت تصرف له من الأنبار الأميرية<sup>(٣)</sup>.

وكان يعاونه فى الإدارة ، الديوان ، والقضاة ، والمفتين ، وناظر الأوقاف وأغا الحوالة ، وأمين بيت المال ، وأمين الجمرك ، والأوجاقات العثمانية ، وتنحصر مهمة أمين الجمرك فى متابعة تحصيل الرسوم الخاصة بالديوان والالتزام بتوريدها إلى الجهات المختصة . ويصدر به فرمان من الباشا موجه إليه وإلى جميع المسئولين بالمدينة<sup>(٤)</sup> ، وكان عليه تسجيل مفردات الأمتعة المتحصلة من العشور فى سجله ، وكان من الأفضل أن يُباع النفيس منها فى القاهرة ، فيرسله العامل مع رجل موثوق به إلى القاهرة ، ومعه دفاتر تسجيل المفردات ، وكان ناظر الأموال والأمين (زمين البلد) يقومان ببيعه بالمزاد ، ثم يُرسل ثمنه إلى الخزانة وكان يخصم ذلك من أقساط العامل ، ويدون بالتفصيل مفردات المتاع المشابه الذى يُفضل بيعه هناك ، ويوقع عليها القاضى ، ثم يخطر ناظر الأموال وأمين البلد ، ويُباع فى الميناء ما يكون بيعه هناك أجدى وأنفع بعد أخذ موافقتهم<sup>(٥)</sup>.

أما ميناء رشيد . فقد عرف باسم ميناء رشيد النيلى ، وتحرم السلطات المالية دخوله من البحر المتوسط لصفته الحربية ، ونقلت نشاطه التجارى إلى ميناء بلدة فوة جنوبه ، وهى تتصل بالأسكندرية بقناة ملاحية ظلت تعمل حتى أواخر القرن الخامس عشر<sup>(٦)</sup>.

(١) المحفوظات ، سجل رقم ١٣ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص ٤٢ ، عام ١٢٠٠هـ / ١٧٨٥م .

(٢) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص ٨٣ ، عام ١٢٠٠هـ / ١٧٨٥م .

(٣) ليلى عبد اللطيف احمد ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ٣٨٧ .

(٤) المحفوظات ، سجل رقم ٦ ، ٦٩٤ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص ١٠٥ ، عام ١١٥٠هـ / ١٦٣٦م .

(٥) قانون نامة مصر ، ص ٤٧ .

(٦) نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ص ١٤٣ .

ومن جنوبى رشيد تخرج قناة تصل إلى ميناء البرلس بين رشيد ودمياط وهو مفتوح طول العام، وله مدخلان الشمالى للسفن المسيحية ، والغربى للسفن الإسلامية من المغرب وتتبع الموانى . نائب الاسكندرية الذى يحصل مندبوه رسوم الدخول وشحن وتفريغ السلع . وقد ذكرت البرلس فى وثائق البندقية وفلورنسا فى العصور الوسطى ، وإن كانت لا تظهر على الخرائط ، وكان بها قنصلية للبندقية وفندق لمواطنيهم<sup>(١)</sup>.

وقد ضمت الجمارك فى اسكندرية ورشيد منذ منتصف القرن العاشر الهجرى / منتصف القرن السادس عشر الميلادى ، ثم الحق بها مقاطعه تنظيم الملاحة فى المينائين (مقاطعة تعريف المراكب) ومقاطعة تنظيم وتحصيل الرسوم على التجارة المتجولين الذين يرغبون فى استخدام أسواق هذين المينائين (مقاطعة سرد بازاران)<sup>(٢)</sup> والحققت بهذا الجمرك عام ١١٢٣هـ / ١٧١١م مقاطعة كانت مستقلة من قبل وهى مقاطعة تنظيم أسواق المأكولات والأوزان فى الإسكندرية ورشيد (مقاطعة احتساب فى نظام القبانى ؛ وبالمثل أضيفت اليه أيضا مقاطعة التنظيم والتحكيم فى بوغاز النيل قرب رشيد مقاطعة خدمة رئيس بوغاز رشيد<sup>(٣)</sup> .

واحتلت رشيد مكانة اقتصادية مهمة فى العصر العثمانى نظراً لموقعها وكانت تعد مستودعات للبضائع القادمة من القاهرة ومدن صعيد مصر ، ويتم نقلها بعد ذلك إلى أوروبا ، بالإضافة إلى أنها تستقبل البضائع الواردة من أوروبا التى تنتقل بعد ذلك إلى القاهرة عن طريق النيل . وقد ساهم أهل الذمه هناك فى النشاط الإقتصادى بجانب بعض الأوربيين وبخاصة اليونانيون ؛ وهدفهم من ذلك ممارسة النشاط الإقتصادى<sup>(٤)</sup> .

ولم يكن الغرض من انشاء جمرك رشيد تقرير رسوم جديدة ، بقدر ما كان الهدف منه هو التحقق مما إذا كانت لم ترتكب أية عملية خداع أو تدليس فى جمركى بولاق والاسكندرية . وهناك كان يتم التحقق من أن كميته ونوع السلعة قد جاءتا مطابقتين للمخالصات الجمركية

(١) صبحى لبيب ، التجارة الكارمية وتجارة العصور الوسطى ، المجلة التاريخية مايو ١٩٥٢ ، ص ١٢ ، أسامه أحمد ، المرجع السابق ، ص ٧٨٤ .

(٢) بازاران ، كلمة فارسية وتعنى المشتغل بالمسائل التجارية والبازار كان باشى : هو كبير الموردين للمنسوجات اللازمة للقصر السلطانى فى أستانبول وهو أحد أعوان الباشا ، وقد أختص بشئونه وكان عادة من اليهود ويحضر ضمن حاشيته وتنتهى مدة عمله بانتهاء مدته وكان فى بعض الاحيان يبقى فى مصر ليعمل فى خدمه الباشا الجديد (أنظر هاملتون جب ، هارولد بوون ، المجتمع الإسلامى والغرب ، ج ٢ ، ص ٣٤٢ .

(3) Pceke, A description of the Egypt. P. 116 .

(4) Ibid, p. 171 .

التي كان لابد من إبرازها . وذلك بجعل حمولات السفن القادمة إلى هذا الموقع ، تنتقل من مراكبها إلى مركب أخرى ، وقد توصل رجال الجمارك قبل مجئ الفرنسيين بسنوات قليلة إلى القيام بعمليات المراجعة والفحص هذه فيتم فرض رسوم على كل كميات السلع وإن كان الأوروبيون قد تمسكوا بامتيازاتهم ، ولم يخضعوا مطلقاً لهذه الرسوم ، وفي نفس الوقت سمح مراد بك ، بعد أن غرته المكاسب الهائلة التي سوف تعود عليه من تصدير الحبوب إلى العالم الأوروبي ، مقابل تحصيل رسم قدره زر محبوب<sup>(١)</sup> واحد عن كل أردب<sup>(٢)</sup> ، وأدت عمليات الشحن البحري التي كانت تتم في رشيد إلى نشأة جمرك جنى منه مراد بك . هو الذي كان يديره لحسابه الخاص أموالاً طائلة<sup>(٣)</sup> .

وحيث لم يكن يدفع أى مال ميري إلى الخزينة عن جمركي القصير ورشيد فإن من الضروري أن نشير إليها باعتبارهما عبئاً مضاعفاً على حركة التجارة وليس باعتبارهما يشكلان جزءاً من عوائد السلطان .

(١) الزرمحبوب : هو نقد ذهب تركي ، ضرب في السلطان مصطفى الثاني (١١٠٦-١١١٥هـ/١٦٩٤-١٧٠٣م) وهو يزن أربعين حبة أى ٢٦ جرام ، وقد أطلق عليه في تركيا «طغري التون» وإذا كانت ألون في التركية تعنى الذهب فإن طغريالى نسبة إلى نقش الطغراء أو الطره باسم السلطان على أحد وجهي هذا النقد وقد أطلق الجبرتي على هذا النقد في أسواق مصر أسم «دينار طرلي» سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م والدينار هنا إمتداد للنقود الذهب الإسلامية منذ عهد المماليك أما «الطرلي» فهي بالنسبة إلى «الطره» (الطغراء) ، كما أطلق عليه الجبرتي أحياناً اسم الجنزري أو المحبوب الجنزري نسبة إلى الخافه المششرة لهذا النقد ، وهي أشبه بالإطار أو الجنزير ، وحدد الجبرتي سعره عام ١١٤٨هـ/١٧٣٦م بمائتي نصف فضة ، ويبدو أنه انخفض بعد ذلك فتشير الوثائق إلى سعره في سنة ١١٥٤هـ ، ١١٥٥هـ/١٧٤١ ، ١٧٤٢ بمائة وعشرين نصف فضة . ورغم تعدد هذا النقد الذهبي في الشرق العربي كله سواء أكان من ضرب استانبول أو مصر هو زر محبوب (انظر عبد الرحمن فهمي ، النقود المتداولة أيام الجبرتي ، ص ٥٧٥) .

(٢) أردب ، يستخدم في وزن الحبوب والأشياء الصلبة ، وكان حجمه الحقيقي يختلف تبعاً للحبوب الموزونه وكذلك المكان الذي كان يستخدم فيه عملية الوزن . وفي القرن الخامس عشر كان يقدر بـ ٩٠ لتراً . وفي سنة ١٦٦٥م قدر بـ ١٨٤ بوشل ، وفي القرن الثامن عشر ضعفت قيمته وأصبح يساوي ١٨٤ بوشل ، وفي نهاية القرن الثامن ، كان الأردب ينقسم إلى أربعة وعشرين جزءاً وأحياناً ما كان ينقسم إلى ١٣٠ أوقية .

(أنظر Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the french Revolution, p. 170 .

سميرة فهمي : امارة الحج في مصر العثمانية ص ١٢٠) .

(٣) استيف ، النظام المالي والإداري في مصر العثمانية ، ص ١٧٢-١٧٣ .

## ثانياً : ميناء دمياط والبرلس

ويعتبر هذا الميناء ، ميناء بحرى نهري ، وهو مخرج لتجارة مصر لمدن وموانئ الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، وكريت وقبرص ، والدولة العثمانية ، كما يتصل بالقوافل البرية إلى موانئ البحر الأحمر ، ويسبب شدة التيار من النيل لاتدخل السفن مباشرة دمياط . كما تم ردم جزء من فم البحر عندها . ولذا يخرج من دمياط قناة تصل إلى بحيرة المنزلة حيث تدخلها السفن الكبيرة من البحر المتوسط حتى تنيس على بعد سبعين ميلا منه - البحر المتوسط - ومثلها من قناة دمياط وهى فى الواقع مركز تبادل السلع الواردة والصادرة بين وإلى دمياط . وقد وجد بالمدينة الأوروبيون من يونان وبنادقة وجنوبين وفلورنسيين . وبها قنصلية خاصة بفرسان القديس يوحنا فى رودس ، وظلت هذه القنصلية موجودة حتى الفتح العثمانى لمصر عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ؛ ويقال أن المماليك كانوا يحصلون على الأسلحة عن طريقهم ، ولكن المصادر المعاصرة أكدت عكس ذلك (١) .

وخلفت مدينة الاسكندرية دمياط باعتبارها ميناء مصر الأول على البحر المتوسط منذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر بعد أن هدم المماليك جزءاً من الميناء ورددوا فم بحر دمياط حتى يأمنوا أى غزو أوروبى منه ، لذا لم يعد فى استطاعة السفن الأوروبية الكبيرة الوصول إليها وأصبحت ترسو بالبحر قريباً من مصب فرع دمياط وتستخدم القوارب النيلية بينه وبين الميناء (٢) .

واعتبر ميناء دمياط مخرجاً لتجارة مصر فى العصر العثمانى حيث كانت يرد إليها الواردات القادمة من سوريا وفرنسا وغيرها . وتوفرت لديها التسهيلات اللازمة للنقل والملاحة لوجودها على ثنية النيل البارزة (٣) .

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج٣ ، ص ٩٢ .

(٢) نعيم زكى ، المرجع السابق ، ص ١٣٠ ، حاشية (٢١) .

(٣) عبد الوهاب بكر ، ميناء دمياط ودوره فى العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الليفانت خلال القرن

الثامن عشر ، ص ١٨ .

وكانت دمياط مزدهرة إقتصاديا فى العصر العثمانى ، وظلت محتفظة بذلك حتى مجئ الحملة الفرنسية عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م . هذا بالإضافة إلى شهرتها التى اكتسبتها من كونها مدينة صناعية وخاصة فى صناعة النسيج ، حيث كان يشرف على هذه الصناعة الأقباط (١) .

وكان لها قبودان يشار إليه باسم قبودان بندر دمياط مع رشيد ومهمته امداد الاسطول العثمانى بحاجاته عند مروره بمصر ، كما كان عليه أن يقوم نيابة عن قبودان الاسكندرية بحماية الشواطئ ، عندما يستدعى الأخير للإتضمام للأسطول العثمانى ، وعليه أيضا تنظيم الملاحة فى مينائى دمياط ورشيد ورعاية النظام فيهما .

وتقدم له الخزينة المال اللازم لصيانة صهاريج المدينة التى كانت مخزناً للمياه العذبة التى تمدها بالماء أثناء فيضان النيل وكانت تصرف تحت اسم نفقات سد سدود دمياط ، وقد بلغ المقرر لذلك فى عام ١١١١هـ/١٦٩٦م ، ١٣٢٦ بارة سنويا (٢) .

ويحصل على رسوم يفرضها على الملاحة بين مينائى دمياط ورشيد وقد وصلت تلك الرسوم إلى ١٧٥ بارة عن كل قبطان تمر سفينته بين هذين الميناءين ويحصل على مايقرب ٢٠٠٠ ر. ٢٠٠ بارة سنويا ، كما كان يحصل على مرتب نقدى ساليانة سنوى من خزينة مصر بلغ ٣٠٠٠ ر. ٣٠٠ بارة سنويا ، ومرتب عينى بلغ ٥١٥ أردبا من الغلال سنويا فى القرن الثامن عشر (٣) .

وظل قبودان الاسكندرية وقبودان دمياط يتقاضان مرتباتهما حتى منتصف القرن الثامن عشر أى إلى عام ١١٦٣هـ/١٧٤٩م وبعد أن أعاد حسن باشا القبودانات العثمانيين الا أنهم قد طردوا بعد إستيلاء مراد بك وإبراهيم بك على السلطة مرة أخرى فى عام ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م وما يؤيد خلو الاسكندرية من وجود قبودان ، أن السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية ، كان أمين الجمرك فى عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م (٤) .

(١) جمال الشيال ، مجمل تاريخ دمياط ، ص ٤٧ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ٣٤٩ .

(٣) نفسه ، ص ٣٨٦-٣٨٧ .

(٤) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ج ٣ ، ص ٦٢-٦٣ .

البرلس ، نظراً لموقعها فى الدلتا جنوب دمياط، فكانت تعد فى المقام الأول سوقاً رئيسية لمنتجات وسط الدلتا ، وكانت مركزاً للقوافل الواردة من شمال أفريقيا وفزان ، إلا أن هذه التجارة قد تدهورت فى القرن الثامن عشر<sup>(١)</sup> وقد حقق جمركها الخسائر الفادحة ، ولذلك انضم هذا الجمرك إلى جمرك دمياط<sup>(٢)</sup> وقد كان ضمن إلزام الانكشارية<sup>(٣)</sup> .

وكانت التجارة مع أوروبا تسير وفق اتفاقيات تحدد الرسوم التى يجب أن تدفع ، ولذلك فقد كانت أقدم الاتفاقيات التى عقدت مع البندقية عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م . بين السلطان سليم والبندقية ، ونجد أنه فى هذه الاتفاقية إستمرار نفس الامتيازات التى حصل عليها البنادقة سابقاً فى عهد دولة المماليك الجراكسة<sup>(٤)</sup> . وكان هدف العثمانيين من ذلك هو تشجيع رعايا الدول الأوروبية على توثيق صلاتهم التجارية مع ممتلكات الدولة العثمانية<sup>(٥)</sup> . ومعاهدة أخرى بين السلطان سليمان القانونى مع فرانسوا الاول ملك فرنسا عام ١٥٢٨م ، وفى هذه المعاهدة جددت فيها الدولة العثمانية الامتيازات التى سبق أن منحها سلاطين دولة المماليك الجراكسة للفرنسيين وأهل كتالونيا Le Catalans . ويمكن الحاق معاهدة ١٥٢٨م بمعاهدة البندقية لعام ١٥١٧م من حيث الهدف ، إذ كانت مرادها مقصورة فى الغالب على بلاد الشام ومصر بعامة ومصر بخاصة<sup>(٦)</sup> وعقدت معاهدة أخرى بين فرنسا والدولة العثمانية عام ١٥٣٥م . وعرفت هذه المعاهدة باسم « معاهدة صداقة وتجارة بين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا<sup>(٧)</sup> » .

---

(١) محمد شفيق غريال ، المرجع السابق ص ٣٥ ، S. Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, p. 130 .

(٢) محمد غريال ، المرجع السابق ، ص ٣٥ . Icem, The Fianancial and Adminstrative Organi- zation and Development, of ottoman Egypt p. 113 .

(٣) نفسه .

(٤) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٧٠ .

(٥) المرجع السابق، ج ٢ ، ص ٧٠٧ .

(٦) نفسه ، ص ٧٠٨ .

(٧) نفسه ، ص ٧٠٨ .

واتبعت ذلك أيضا أيضا انجلترا فكانت هناك بعض المحاولات الفردية فى أول الأمر كمحاولة أنطونى جنكنس Anthony Jenkinson الذى استطاع مقابلة السلطان سليمان القانونى عام ١٥٥٣م فى حلب أثناء استعداداته الزحف على فارس ، ونجح هذا الانجليزى فى الحصول على موافقة السلطان له بالاتجار داخل ممتلكات الدولة على قدم المساواة مع البنادقة والفرنسيين وعلى الا يدفع أكثر من الرسوم المقررة . الا أن هذا الحادث الأول من نوعه لم يفتح لانجلترا عهدا تجاريا مهما على الرغم من الامتيازات الواسعة التى منحها سليمان لذلك التاجر الانجليزى<sup>(١)</sup> .

واستقبلت الحكومة العثمانية عام ١٥٧٨م ، بعثة انجليزية واستطاعت هذه البعثة أن تحقق نجاحا كبيرا فى وضع الحجر الاساسى للتجارة الانجليزية فى الدولة العثمانية . وفى عام ١٥٨١م صدر العقد التأسيسى لإنشاء شركة الليفانت The Levant Company وهى شركة انجليزية مارست إختصاصات سياسية وتجارية واسعة . فهى التى كانت ترشح سفراء انجلترا فى استانبول وتدفع لهم مرتباتهم ، وكان جميع قناصل انجلترا وكل موظفيها الدبلوماسيين فى ممتلكات الدولة العثمانية يعدون مستخدمين فى الشركة ويتقاضون منها مرتباتهم . وظل هذا التقليد ساريا أكثر من قرنين من الزمان حتى عام ١٨٠٣م .

وإنتهى الامر بعقد إتفاقية بين انجلترا والدولة العثمانية عام ١٦٧٥م جددت فيها الامتيازات التجارية التى سبق منحها فى معاهدة سابقة وأضيفت إليها مواد جديدة وأطلق على المعاهدة الجديدة اسم «المعاهدة النهائية للامتيازات بين الامبراطورية العثمانية وانجلترا<sup>(٢)</sup> Final Treaty of Capiulation the ottoman Empire and England .

وكان لهذه الاتفاقيات التى عقدتها الدول العثمانية مع الدول الأخرى أثرها الواضح فى دفع الرسوم ، ويكفى أن نقارن الرسوم التى كان رعايا السلطان يدفعونها<sup>(٣)</sup> ، بتلك الرسوم بالغة الاعتدال التى تحصل من الأوروبيين ، لذلك سمح لهم بدفع رسوم أقل بكثير مما يدفعه رعايا السلطان ، فقد كانوا يخضعون لرسوم ثابتة ، بينما يدفع الأوروبيون رسوما أقل<sup>(٤)</sup> .

(١) عبد العزيز الشناوى، المرجع السابق، ص ٧١٥ ، ص ٧١٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧١٦-٧١٧ .

(٣) نفسه ، ص ٧١٨ .

(٤) استيف ، المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

ورغم ذلك تعرضت تجارته الأوروبية للإبتزاز من جانب الأمراء المماليك والمعاملات السيئة عند تقدير الرسوم ، ولقد كان من المتفق عليه أن السفينة الأوروبية التى تسدد الرسوم فى أحد ثغور الإمبراطورية العثمانية تمتع باعفاء كامل فى بقية الثغور بمجرد إبرازها التذكرة التى حصلت عليها من الجمرك السابق ، ولكن لا يؤخذ بذلك ، وتعامل كأنها دخلت الميناء لأول مرة (١) .

### ثالثا : الجمارك

خضعت السفن التجارية لنظام تفتيش دقيق فى جمرك (٢) أو ديوان (٣) الإسكندرية إلى إجراءات حكومية متعددة فى العصر المملوكى ، ونظراً للعلاقات التجارية للمدن الإيطالية فقد أعطى لها مخازن مسقوفة يحمل القنصل مفاتيحها وتتولى هيئة الجمارك حراسة السلع

---

(١) استيف ، المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

(٢) والجمرك من الإيطالية Cmnercio واليونانية Conmerciuni وحرفت إلى جمرك فى العربية وكمرك فى التركية . الجمرك هو الهيئة المختصة بتنظيم وفرض الضريبة على التجارة الصادرة والواردة (أنظر ، أحمد السعيد سليمان ، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتي من الدخيل ، ص ٧٠ ، وأنظر ليلى عبد اللطيف أحمد ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام أبان العصر العثمانى ، ص ١٢١ ، عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ١٧١) وعرف الجمرك بالاسكالة ، وقد ألحقت بالجمارك مقاطعات مدنية أقيمت فى أسواق القاهرة ، وأختصت بجمع رسوم معينة مثل مقاطعة إحتساب ومقاطعة خرده ومقاطعة كباله غلال بولاق . لذا كان يشار إلى الجمارك فى الوثائق دفتر أصول مال أسلكتها ومقاطعات . (أنظر بهذا الخصوص ، سجلات الروزنامة ، بدار الوثائق القومية بالقلعة بالقاهرة) .

(٣) ديوان ، استخدم مصطلح الديوان للدلالة على الإدارة الجمركية فى الميناء وقد أنتقلت كلمة الديوان إلى اللغة الأسبانية Aduana بمعنى الجمرك ، وما زالت تستخدم بهذا المعنى حتى يومنا هذا . (أنظر ، أسامة أحمد ، المرجع السابق ، ص ٨٠٣) وقد أطلق على الإدارات فى العصر العثمانى أيضا لفظ دواوين ، يوجد ديوان الروزنامة ، وديوان الجمارك . (أنظر ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ١٣١) .

الموجودة بها نظير رسم معين يدفعه التجار للحكومة ، وترك التجارة أو نقلها معه إلى الفندق<sup>(١)</sup> وسار نفس النظام المعمول به فى العصر العثمانى أيضا .

### إدارة الجمارك :

تتمثل إدارة الجمارك فى وجود أحد الموظفين وهو من قبل السلطان ومهمته تحديد شراء السلع لمتجر السلطان مثل الخشب والقطران وغير ذلك . مع وجود موظف آخر يقوم باستجواب التجار أو الوافدين أو العابرين عن الحالة السياسية فى أوروبا ووظائفهم ، وأن كان لهذا التاجر أو الوافد أو العابر صفة دبلوماسية ففى هذه الحالة يستجوب عن مقاصده وعن أمراء وملوك أوروبا وعما إذا كان هناك حملات صليبية جديدة . وبعد الانتهاء من هذه الإجراءات يسمح لهم بالمبيت فى فنادقهم وفرز سلعهم . وكان يسمح فقط لقنصل فرنسا حضور عمليات التفتيش<sup>(٢)</sup> .

ولكن الحال يختلف فى ميناء السلسلة فهو مخصص لتجار ومسافرى المغرب والجنسيات الأخرى من أتراك وبنين وهنود وفرس ، وتتخذ معهم الإجراءات فىقوم الموظفين المختصين بحصر أنواع وكميات السلع الموجودة إحضار جميع المسلمين بالسفينة وكتابة أسمائهم وحقيقتهم، وبلادهم ، والإستفسار عن دفع أموال الزكاة على السلع التى بحوزتهم ، ومن كان منهم ذا صفة سياسية فيطاف به على المسئولين تحت الحراسة للقاضى وأهل الديوان والحاشية . وفى كل مرة يستجوب ثم يطلق سراحه ، وانزال السلع للتفتيش عليها ، وتقدير الرسوم الجمركية . وقد لوحظ أن هذه الإجراءات الجمركية تتخذ فى كل جمارك مصر والشام<sup>(٣)</sup> .

(١) نعيم زكى فهمى ، طرق التجاره العالميه فى العصور الوسطى ، ص ٣١٤ ، وكلمة فندق ، أسم مأخوذ من الكلمة اليونانية pandekeion ونقلت إلى اللغة الإيطالية لتدل على المبنى الذى أسفلته مخازن وأعلاه نوم لسكنى الأجانب ، ويعرف فى مصر بأسم فندقى ، وفى بعض الأحيان وكالة . (أنظر ، صبحى ليب ، التجارة الكارمية وتجارة العصور ، الوسطى ، المجلة التاريخية ، العدد ١٤ ، ص ٣٨٢) .

(٢) نعيم زكى فهمى ، المرجع السابق ، ص ٣١٤ ، ٣١٥ .

(٣) أبى العباس بن على القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ج ٣ ، ص ٤٦٤ ، سعيد عاشور ،

العصر المالىكى فى مصر والشام ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

وكانت هذه الإدارة فى منتهى القسوة فى البحث والتفتيش ، على كل ما يحمله التجار والمسافرين من متاع وأموال ولا يفرقون بين مسلم ومسيحي ولم تكن هذه القسوة فى جمارك مصر فقط ، وكانت متبعه فى جمارك مدن غرب البحر المتوسط ، حيث كان يراقب التاجر مراقبة شديدة ودقيقة ، ولا يترك حرية إختيار مسكنه ، بل يوضع فى فندق خاص بالأجانب ، وفيه يصير تخزين سلعه<sup>(١)</sup> .

بالإضافة إلى هيئة الجمارك السابقة ، وجدت هيئة أخرى تشرف على التجارة الخارجية ، وهى هيئة تمثل القناصل التجاريين ومهمتهم تغطية وتسويق وعبر الماتجر الشرقية والغربية ، وكان يعاون القنصل هيئة تتكون من موثق العقود وترجمان كان يحرم عليه - القنصل - الاشتغال بالتجارة لحسابه أو لحسابه غيره<sup>(٢)</sup> ويعاونه مجلس أعلى مكون من إثني عشر مواطنا من مواطنيه<sup>(٣)</sup> .

وقد طبقت الدولة العثمانية نظام الألتزام على الجمارك التى كانت قائمة فى جميع موانئ الدولة<sup>(٤)</sup> وكان يطلق على هذه الموانئ كلمه أساكل<sup>(٥)</sup> dec Eéchlles كما كان يطلق على

(١) نعيم زكى ، المرجع السابق ، ص ٣٢١ .

(٢) نفسه ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(٣) Heyed, Op. Cit., V; 11. pp. 539-546 .

Combe Etiltenne : L'Egypte Ottoman ée la Conaquéte par Sélim 1517 a l'arrivée de Bonaparte (1798) p. 88 .

(٤) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج١ ، ص ٧٠ .

(٥) أساكل ، ومفردها أسكلة ، وأقتبست من الكلمة الإيطالية desce بمعنى أن ميناء أو ثغر ، وهى تكتب فى المصادر والمراجع العربية والتاريخية فى أشكال شتى .

فى صيغة المفرد - أسقالة - سقالة - صقاله - أسكلة

فى صيغ الجمع ، أسقالات ، سقالات ، أساكل ، أساكيل

وتردد أحيانا فى بعض المصادر التاريخية العربية كلمة سكلر ، وهى مقتبسة من اللغة الأسبانية ،

ومعناها ميناء العابرين أو المارين (أنظر ، عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، ج١ ، ص ١٧١) .

إيرادات الجمارك «محصول أسكله» وكانت تباع رسوم كل جمرك إلى الشخص الذى يرسو عليه المزداد مقابل مبلغ من المال يؤديه للحكومة ، ويصبح لقبه الملتزم . ثم يشرف على جبايه الرسوم الجمركية .

وكانت حصيلة الرسوم الجمركية تأتى فى المرتبة الثانية بعد ضرائب الأراضى الزراعيه بالنسبة لإيرادات الحكومة<sup>(١)</sup> ولايدير الملتزم الجمرك بل كانت لديه هيئة من الموظفين يرأسهم موظف يسمى « كمرك أمينى » أى أمين الجمرك ، وأطلق عليه أحيانا الجمركى ، ويكون عادة رجلا يهوديا<sup>(٢)</sup> وكان ذلك قبل عهد على بك الكبير ، وعندما غالوا فى فرض الرسوم على التجار الأجانب ، قبض عليهم وصودرت أموالهم ، وعهد إلى المسيحيين الشوام الكاثوليك الذين هاجروا إلى مصر فى القرن السابع عشر بإدارتها<sup>(٣)</sup> .

وعندما تولى الشوام إدارة الجمارك ، فرضوا رسوما باهظة على البضائع المرسله إلى ليفورنيو وترىستا ، كما خضعت السفن العثمانية والأوروبية التى كانت تشحن فى دمياط بالإضافة إلى ذلك لأداء اتاوة قدرها ٢٠٠ بطاقة<sup>(٤)</sup> ظلت تتضاعف خلال السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، حتى بلغت رسوم الشحن ، وحيث أنه لا تقدم فى أية ذرائع لتبرير مثل هذه المظالم ، فقد كان بمقدور التجار أن يجدوا دوافع حقيقة لإلقاء اللوم على وكلاء الدول الأوروبية فى تساهلهم فى هذه الأمور لولا أنهم يدركون أنه من العسير على هؤلاء أن يصارعوا النجاح ضد رجال الجمارك فى مصر<sup>(٥)</sup> .

(١) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، ص ١٧١ ، ج ١ .

(٢) دار الوثائق القومية ، دفاتر الروزنامة ، سجل أصول مال وأسكلهات ومقاطعات ، رقم الحفظ النوعى ١٢ ، مسلسل ٤١٥٠ ، مخزن تركى رقم (١) عين (٥٣) عام ١١١٠هـ / ١٦٩٨م .

(٣) محمد رفعت . على بك الكبير ، ص ٨٩ - ٩٠ .

(٤) أبو طاقة ، هو الريال النمساوى وكان يعرف (بأبو طيره) نسبة لطائر النسر المنقوش ، وسمى أحيانا بالريال (أبو طاقة) نسبة لرسم النافذة أو الطاقة أو هيئة الشباك الصغير ، (أنظر عبد الرحمن فهمى ، النقود المتداولة أيام الجبرتى ، ص ٥٥٨) .

Shaw, The Fianacial and Adminstrative and , Organization P. 103 .

(٥)

وعمل بعض الإيطاليين فى بعض الجمارك ، وقد ظهوروا بشكل واضح فى جمرک دمياط ، كما أنهم عملوا وسطاء بين التجار الأوروبيين والأهالى (١) .

وقد التزم أحد الشوام بضمان جمارك مصر فى الفترة ١٧٧٤-١٧٨٤م ، وذلك فى عهد كل من على بك الكبير ومحمد أبو الذهب ، وإبراهيم بك ومراد بك وقد رفع بدل ضمانه حينما تولى إدارة الجمارك من ثلاثين كيسا إلى مائة كيس . وإزداد هذا البديل تدريجيا حتى بلغ ألف كيس (٢) وقد استمر التزام الجمارك فى يد الشوام الكاثوليك إلى عهد محمد على (٣) .

وكان اسم الجمرکى فى الولايات العربية يذكر مسبقا بكلمة المعلم الذى يعين وكلاء عنه فى المدن والشغور لجباية الرسوم الجمرکية ، وكان يختارهم بطبيعة الحال من بنى جنسه ، وكانت الحكومة تضع سلطتها تحت تصرفهم (٤) ومعه قاضى الميناء (٥) وأما الحوالة (٦) وأمين الاحتساب وسدادرة البلوكات السبعة (٧) وهؤلاء هم الذين يوجه اليهم الباشا قراراته الادارية

(١) كارستن نيبور ، رحله إلى مصر ١٧٦١-١٧٦٢م ، ترجمة مصطفى عبد لقادر ، ص ١١٤ .

(٢) عبد الله عزباوى ، الشوام فى مصر فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، ص ٣١ .

(٣) نفسه ، ص ٣٤ .

(٤) محمد رفعت رمضان ، على بك الكبير ، ص ٨٩-٩٠ .

(٥) أغا الحوالة ، الأغا من الكلمة التركى من المصدر أغمق ، ومعناه الكبير وتقدم السن وقبل أنها الكلمة الفارسية (أقا) وجرى العرب على إضافة تاء اليها إذا وقعت مضافاً ، تطلق فى التركى على الرئيس والقائد وشيخ القبيلة وعلى الخادم الخصى الذى يؤذن له بوخول غرف النساء . (أنظر أحمد السعيد سليمان ، تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، ص ١٧) والحوالة هو الشخص الذى خولت له السلطات آنذاك جمع الأموال السلطانية من العمال وغيرهم من المكلفين بتحصيلها لتسليمها إلى الميرى . (أنظر قانون نامه ، ص ٤٨) .

(٦) البلك ، أو البلوك ، بلوك من المصدر التركى يولك أى أن يقسم وكلمة البلوك يعنى القسم أو الجزء ، وكان الأوجاق ينقسم إلى وحدال صغرى تعرف باسم البلوكات . ويحمل كل بلوك رقماً منسوبا إلى الأوجاق الذى ينتمى اليه مقرونا باسم الوجاق . (أنظر عفاف مسعد العبد ، دور الحماية العثمانية فى تاريخ مصر ص ١٥٣) .

الخاصة بإدارة الموانئ<sup>(١)</sup> وكانت تلك القرارات تسجل في سجلات المحكمة الشرعية<sup>(٢)</sup> بالإضافة إلى إنه وجدت وظائف أخرى غير رسمية ، وقد اتخذت السلطات الحاكمة الإجراءات الكفيلة لطردهم<sup>(٣)</sup> .

ولابد من الحصول على موافقة الباشا على عملية نقل حق الإلتزام (سواء في الأرض أو الجمارك) من شخص إلى آخر ، فقد أذن له السلطان بالختم والعلامة على جميع التسمkins التي يقع فيها التغيير بالبيع والشراء .

وفي القرن السابع عشر طولبت معظم جمارك مصر المهمة بالإلتزام للباشا الذي كان عليه أن يدفع مال الخراج المقرر عليها بالخرينة ، ويحتفظ بفائض الإيراد السنوى ربحاً له ، وقد كانت الجمارك من أهم مصادر الثروة في مصر بعد الأرض، وأهم الجمارك في مصر العثمانية:

١- جمر ك اسكندرية ورشيد وتوابعها .

٢- جمر ك بولاق ومصر القديمة .

٣- جمر ك دمياط وبرلس وتوابعها .

٤- جمر ك عشور أصناف بهار .

٥- جمر ك سمسارية بحرین وتوابعها .

وقد ألحقت بالجمارك السابقة مقاطعات جمع الرسوم في الجهات الآتية :

١- مقاطعة حمام خاصة الذي أنشأه السلطان سليم في القلعة (لإستخدام الجنود العثمانيين) .

٢- مقاطعة خردة وتوابعها .

٣- مقاطعة كباله أرز بياض در بندر دمياط .

٤- مقاطعة بحيرة سمك بندر دمياط .

٥- مقاطعة إحتساب نفس محروسة مصر .

---

(١) سجلات محكمة اسكندرية ، سجل رقم ١٣ ، ص ١٢٠ ؛ عام ١٢٠٢هـ / ١٧٨٧م .

(٢) قانون نامه ، ص ٥٦ .

(٣) نفسه ، ص ٢٦ ، وسجل رقم ١٣ ، ص ٧٧ عام ١٢٠٢هـ / ١٧٨٧م .

٦- مقاطعة كباله غلال بولاق .

٧- مقاطعة مرتجع سرء بازاران در بندر رشيد<sup>(١)</sup> .

وقد كان للبasha فى القرن السابع عشر التزام أهم جمارك مصر وهو (مقاطعة أسكلة اسكندرية وتوابعها مع تعريف المراكب ورسم جلود بقرى وجاموسى در بندر رشيد) وكان هذا الجمرك مختصاً بالرسوم التى تفرض على التجارة الصادرة من مصر إلى السلطنة العثمانية وأوروبا وكذلك التجارة الواردة إليها من تلك البلاد . بالإضافة إلى هذا لحق تنظيم الملاحة فى المينائين (حق تعريف المراكب) والرسوم المفروضة على تجار الجلود البقرى والجاموسى فى أسواق رشيد<sup>(٢)</sup> .

وقد ظل التزام جمرك اسكندرية وتوابعه من حق البasha حتى أواخر القرن السابع عشر ١١٠٧هـ/١٦٩٥م ، ثم سيطرت فرقة الانكشارية بالإضافة إلى معظم جمارك مصر العثمانية الأخرى<sup>(٣)</sup> ولذلك عندما إستولت الانكشارية عليها - الجمارك - دفعوا عوائد ثابتة للبasha من ايراد هذه الجمارك وتشمل اسكندرية ورشيد ودمياط والبرلس وبولاق ومصر القديمة وقد بلغت تلك الضريبة ٢٠٨٩٠٠٠ ر. بارة فى السنة<sup>(٤)</sup> .

وقد تم تأجير مقاطعات جمارك اسكندرية ورشيد ودمياط وبولاق ومصر القديمة لاختيارية<sup>(٥)</sup> فرقه المستحفظان<sup>(٦)</sup> وتم لهم ذلك حتى عهد على بك الكبير<sup>(٧)</sup> .

(١) دار الوثائق القومية بالقلعة ، دفاتر أصول مال أسكليات ومقاطعات سلسلة تبدأ من ١٠٨٨هـ/١٦٧٧م إلى عام ١٢٢٧هـ/١٨٢١م وهى السنة التى بدأ فيها محمد على إلغاء التزام الجمارك ، وتحتوى تلك الدفاتر أسماء الجمارك والمقاطعات وتكوينها والمال المبرى المطلوب منها للخزينة كل عام .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ٩ ؛ استيف ، النظام المالى فى مصر العثمانية ، ص ١٢٣ .

(٣) دفتر أصول مال اسكليات ومقاطعات تابع قلم شهر عام ١١٠٧هـ/١٩٦٥م برقم ٤١٤٦ .

(٤) محمد شفيق غريال ، المرجع السابق ، ص ٣٤ ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٩٦ .

(٥) اختيارية ، هم المسنون من رجاله ، وأقدمهم الباش اختيار (أنظر محمد شفيق غريال . المرجع السابق، ص ١٨) .

(٦) قانون نامه ، ص ١٥) .

(٧) سجلات الديوان العالى ، رقم ١ ، ٣١٠٢ ، عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م رقم ٢ ، ص ٧٥ عام ١١٨٣هـ/١٧٦٩م .

وحاولت الدولة العثمانية أن تعيد التزام هذه الجمارك إلى الباشا فى القرن الثامن عشر ، ولكنها لم تفلح وإزداد الانكشارية فى دفع المبلغ المطلوب للباشا <sup>(١)</sup> ولوحظ أن إيراد الباشا من الجمارك فى عام ١١٧٣هـ / ١٧٦٠م كان ٢٥٠.٠٠٠ ر. ٢٥٠ ر. ٢٥٠ باره سنوياً وفى عام ١٢٠٠هـ / ١٧٨٥ ، حصل الباشا على ٦٠٠.٠٠٠ ر. ٦٠٠ مليون باره <sup>(٢)</sup> ولكن انخفضت هذه الإيرادات إلى أقل من مليون باره فى عام ١٢١٠هـ / ١٧٩٥م <sup>(٣)</sup> .

وبالرغم من ذلك فقد استطاع الباشا أن يحتفظ لنفسه طوال العهد العثمانى بأغنى المقاطعات للجمارك فى مصر وهى مقاطعة جمرك السويس ومقاطعة عشور أصناف بهار وتوابعها وسمسارية بهار وتوابعها مع مقاطعة قصير شامى <sup>(٤)</sup> ، ونتيجة لذلك أنخفضت إيرادات الباشا من الجمارك فى نهاية القرن الثامن عشر من ١٢ مليون إلى ٧ مليون باره .

وكان على الباشا أن يدفع ضريبة وهى التى تعرف بضريبة الكشوفية الكبيرة على الجمارك ، وهى فى الأصل كانت مقررة للخرينة على جمارك الاسكندرية ورشيد كانت مقررة أساساً على فرقة الانكشارية التى استولت على التزام هذه الجمارك . ولكن لتزايد قوتهم وسلطتهم على الباشا أرغموه على دفع تلك الكشوفية للخرينة وسدادها بدلا منهم وقد بلغ مقدارها من بعد عام ١١٢٦هـ / ١٧١٤م ، ٢٤٩ ر. ٣٣٣ ر. ١ باره سنوياً ، وظل يدفع هذا المبلغ حتى نهاية القرن الثامن عشر <sup>(٥)</sup> .

### الرسوم الجمركية :

كانت السلطات الحاكمة فى عصر دولة المماليك ، تفرض رسومات تتراوح ما بين ٢-٢٥٪ على التجارة العابرة <sup>(٦)</sup> وكانت إجراءات الجمارك تتم على ثلاث مراحل رئيسية :

(١) أحمد كتخدا عزبان ، الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، ج٢ ، ص ٤٤٥ .

(٢) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٩٦ .

(٣) سجل الروزنامه مقاطعات اسكلهات الدفتر رقم ٢٢٦٢ .

(٤) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٥) دفاتر مقاطعات اسكلهات لسنوات ١١٢١هـ برقم ٤١٧٨ ، ١١٣٤هـ / ١٧٢١م برقم ٤١٨٣ ،

١١٧٦هـ / ١٧٦٢م برقم ٤٢٢٣ .

(٦) القلقشندى ، المرجع السابق ، ج١٤ ، ص ٣٩١-٣٩٢ .

فالمرحلة الأولى ، تبدأ بمعرفة جنسية السفينة ، وعدد المسافرين والبضائع التي يحملونها ، وتبلغ هذه المعلومات إلى أمير الإسكندرية الذي يقوم بدوره بتبليغ هذه المعلومات عن طريق الحمام الزاجل (١) .

وتبدأ المرحلة الثانية عند دخول السفينة الميناء ، ترفع عنها أشرعتها ، وبعد إتخاذ الإجراءات المناسبة . يسمح للقبطان والركاب بالنزول ، بموجب تصريح بذلك ، وتتخذ إجراءات في غاية الدقة إذا كانت هذه السفينة لدولة في حالة حرب مع الممالك ، خوفا من وجود أسلحة معهم (٢) .

أما المرحلة الثالثة ، فهي تحصيل الرسوم الجمركية وتشمل دوكتين (٣) لكل فرد وخمسة إذا كان من الحجاج وهي ماتعرف بجزية الرأس ، ٢٪ من قيمة السلع وتعرف برسم الدخول ، ١٠٪ من قيمة السلع وهو ما يعرف بالرسوم الجمركية (٤) ولكن هذه النسبة لم تكن ثابتة دائما بل كانت ترتفع أحيانا إلى ١٥٪ (٥) أو تزيد على ذلك وتصل إلى ٢٠٪ وهو ما يطلق عليه الخمس (٦) .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٣٦٣ .

(٢) Hyed, Histrie éu Con merce ée Levant au Moyen Ages, V; Il P. 39 .

(٣) دوكات ، هى العملة الذهبية لجمهورية الادرياتيک ويرجع ضربها إلى القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى ، وكانت تتميز بالإستدارة التامة وثبات العيار والوزن ، الذى كان يبلغ ٣٤٥ جرام ، وكان ذلك من أسباب انتشارها فى أسواق الشرق الأدنى الاسلامى وبخاصة الاسكندرية المركز التجارى العالمى مع بداية القرن ٨هـ / ٤ م فى وقت اتسمت فيه العملة المملوكية بتذبذب الوزن والعيار والقطر وقد بلغ من ذيوعتها فى الأسواق العالمية أن البندقية قدرت مبلغ ما ضرب فى النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى / النصف الأول من القرن التاسع الهجرى بحوالى مليون قطعة . (انظر عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ماضيها وحاضرها ، ص ٩٥-٩٦) القاهرة ١٩٦٤ .

(٤) نعيم زكى فهمى ، المرجع السابق ، ص ٣١٤ .

(٥) تقى الدين المقرزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٩ ، القلقشندى ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٦٣ .

(٦) نعيم زكى فهمى ، المرجع السابق ، ص ٣٢٢ .

وقد تزايدت هذه الرسوم ، وأدى ذلك إلى إرتفاع أسعار التوابل واستاء التجار الأجانب ، ورفعوا شكواهم للسلطان المملوكى فرج برقوق ، واستجاب لشكواهم وخفض الرسوم<sup>(١)</sup> .

أما إجراءات تحصيل الرسوم الجمركية فى العصر العثمانى ، فكانت تحصل من طائفة التجار الرسوم والعشور ، كما كانت تحصل بموجب العوائد والقوانين المعمول بها منذ عهد قايتباى ، ولا يؤخذ شئ مخالف لها ، وشدد بعدم رفع رسوم الجمارك على أمتعة المسلمين ، أو تخفيضها على التجار . وكان المتبع عند وصول السفينة الخاصة بأية دولة أوروبية ، على قنصل الدولة التابعة لها - السفينة - أن يحضر إلى الجمرک ومعه البيانات الخاصة بالبضائع ويقدم هذه البيانات إلى مجلس القضاء ، ويطلع عليه ناظر وأمين الجمرک . وترسل منها صورة إلى القاهرة والهدف من ذلك القضاء على الاختلاسات<sup>(٢)</sup> .

وكان يدون مفردات الأمتعة التى تحملها السفن التى تقلع بحمولتها فى الدفاتر ، ويحصلوا عليها رسوما ، وعلى قاضى المدينة أن يتابع ذلك بنفسه ، ويكون موجودا عند تحصيل الرسوم أيضا ، وعدم التهاون فى تحصيل هذه الرسوم ، وتورد هذه الرسوم إلى الخزينة مرة كل ثلاثة شهور ، حتى يتمكن الروزنامجى<sup>(٣)</sup> من تسجيلها<sup>(٤)</sup> .

وقد يصاحب بعض جنود السباهى أو أحد من أشرف الحجاج أو الأكابر مع من يلوذ بهم من التجار عند وصول سفينة أو إقلاعها فيخلصون كل من فى السفينة من رسوم الجمارك ولا يأخذون منهم شيئا أو يساعدوا على تقييم أمتعتهم بأبخس الأثمان ، فيدفعوا رسوما زهيدة ، ويلحق الضرر والخسائر نتيجة لذلك بالأموال السلطانية<sup>(٥)</sup> .

أما الرسوم على البضائع ، فكانت تحصل بنسب متفاوتة ، فقد فرضت رسوما جمركية على السلع التى ترد من بلاد السلطان ١١٪ على المشمش والصوفان (الأسفنج الطبى) واللوز ، ٥٪ على الصلب والأبر والشبة ، ومن ٣ر٥٪ على البضائع الواردة من مرسيليا والبندقية

(١) نعيم زكى فهمى، المرجع السابق، ص ٣٢٣ .

(٢) قانون نامه ، ص ٥٣ .

(٣) نفسه ، ص ٥٤ .

(٤) نفسه ، ص ٥٤ .

(٥) نفسه ، ص ٥٤ .

وليفورنيو وترستا و ٥٪ على البضائع الواردة من أوروبا عن طريق أزمير وأيضاً الزئبق ، والأسلحة ، سلفور الرصاص زرنبيخ ، جوارب ، مجوهرات ، أسيبيداج أبيض ، خشب فرنامبوك ، قلنسوات حمراء شمع ، خمارات ، شال أنقرة ، صنوبر ، قرمزية (للصبغة الحمراء) نحاس (جديد ، مصنوع ، خام ، قديم) أوراق مذهبة ، أجواخ ، عقاقير طبية . قصدير ، أقمشة ، زنك ، كتل من الحديد ، سنابك الخيل ، قرنفل ، قطران ، قطع غيار للساعات زيت الصباغة نحاس أصفر ، رقائق فضية وفالصور ، صمغ ، خردوات ، جوز ، ورق ، جلود وفراء ، ورسا ص ، كبريت ، مناشف (فوط) شراب السكر ، حرير ، أحذية ، سجاجيد للأرائك ، لوازم النسيج ، أقمشة من بيروت ، أقمشة حريرية ، أقمشة حريرية منقوشة ، خراطيم النارجيلة<sup>(١)</sup>.

وتفرض رسوما ما بين ١٠ . ١١٪ على الحرير والقطن الواردة من بلاد السلطان ، والبرادق الفخارية من بلاد المغرب والبرنس (معاطف صوف) سمن ، قلنسوات حمراء ، وكراويه وشيلان صوف وحلويات ، جلود فاسى فاصور (عقار طبى) جياقلو (للصبغة) ، أحزمة (حرام) من كل نوع حرام صوف من البربر وبلاد السلطان ، وعسل ، ومناديل سيدات ، خراف زيتون (الملكان) كافورية صوانات البندقية ، سمك مجفف وملح قتيب (عقار طبى) صابون عجين وسائل كبريت ، أحذية قديمة من بلاد السلطان مصنوعات زجاجية ، أقمشة من الهند ، تبغ منفاخ ، السروج والركاب ، عنب طازج ، ذبول الخيول ، شعر الماعز ، أمشاط خشبيه ، بطيخ من يافا ، بيض السمك كافيا ، جوز لصنع النرجيلات ، موسلين ، عسل ، كاب أو قباب للسيدات ، فواكه جافه ، جن فوه (عقار طبى) فناجين ، حديد ملاعق خشبيه ، زغب القطن حبال ، حلويات<sup>(٢)</sup> .

وفرضت رسوما على السلع المصدرة من ميناء الإسكندرية إلى ولايات السلطان فى القرن الثامن عشر كما يلى :

تفرض ٥٪ على القافلة ، شمشم ، ثمار جوز الهند ، كوبال (صمغ للطلاء) ثمرة البوصير (سم السمك) ، بخور ، عقاقير ، عقاقير طبيه من كل نوع ، كركم ، كتان أهليج ، مر ،

(١) أستيف ، النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية ، ص ١٢٧-١٤٧ .

(٢) نفسه ، ص ١٢٧-١٤٧ .

لفل، زعفران ، وملح النوشادر ، خراطيم نارجيلات ، على شكل أعواد جذور الزعفران ، و ١٠٪ على المهم من الهند ، خشب الألوه ، شيلان وأقمشة من الهند ، موسيلين من الهند ، الخزف ، والتبغ<sup>(١)</sup> .

وفرضت رسوما ثابتة على حسب الوزن أو الكمية أو النوع ، فكان يفرض ٣٠ مدينى على قنطار البن ، ٢ مدينى على قفة الرمادا والصودا<sup>(٢)</sup> ، ٣ مدينى على شيلان صوف من الفيوم ، ٤ مدينى لأغطية الرأس الحمراء ، ٤ مدينى للجلد ، وجلود بقر وجمال وثيران ، ٢ مدينى للجلد الواحد ، ٣ مدينى لقفة البلح العجوة ١٢ ، ١٣ لقنطار العجوة ، ٢٥ مدينى للعبد الأسود ٤ ، ٦ مدينى للجوال تبعاً لحجمه وحناء لصبغ أظافر وشعر النساء ، ٢ مدينى للعباءات الصوفية للفلاحين ومدينى واحد لكل جلد ، ٤١ مدينى للسبك المملح للبرميل الكبير ، ٨ مدينى لبرميل السبك المجفف ، ٢ مدينى لقطعة القماش من الكتان للقمصان<sup>(٣)</sup> .

والرسوم التى كانت تفرض على السلع المصدرة إلى بلاد البربر فكانت على النحو التالى :

٨٦٪ على كوبال (صنع الطلاء) أما الألوة فكانت ٢٢ مدينى للقنطار ، ٣٣ مدينى لقنطار الخليليت ، وخيوط وبر ، ٢ مدينى للقطعة ٣٠ مدينى على مشافة (وبر) حرير للقطعة ، وبر صنع القاهرة ١٥ مدينى للقطعة ، ٢٥ مدينى للقطعة وبر عادى وأحمر ، ١٦ مدينى لقنطار البن ، ٣٣ مدينى قنطار القافلة ، ٣٣ مدينى قنطار شمشم ، ٣٣٠ مدينى لقنطار سن سمك ، ٢ مدينى على قطعة ديميتى منقوش وهو أقمشة قطنية تسمى نانكين أو بازان ويسمىها الانجليز ديميتى ، ٣٠ مدينى لقنطار البخور ، ٦ مدينى لقنطار عقاير طبية من كل نوع ، ٨٦ مدينى لقنطار زنجبيل ، ٢٦ مدينى لقنطار الصمغ ، ٣٣٠ مدينى لقنطار ألك

(١) نفسه ، ص ١٢٧ ، ١٤٧ .

(٢) المدينى هو قطعة نقدية بالغة الصغر ، يزن الألف منها ٧٣ درهما أى ٢٢٤٧٦١٠٠ جراما بعبارة قدره ٣٥٠ (من الألف) من الفضة الخاصة على أحد وجهيه توقيع سلطان القسطنطينية أو طفرائه وحدها ويحمل على الوجه الآخر عبارته ضرب فى مصر (أى القاهرة) سنة تنصيب السلطان . (أنظر . سميرة فهمى ، المرجع السابق ، ص ١٦٣) .

(٣) أستيف ، المرجع السابق ، ص ١٥٢ ، ١٦٢ .

(صمغ) ٦ر٥ مدينى لبالة حناء (الصمغ أظافر وشعر النساء) ٣٣٠ لقنطار أصابع هرمس ١٢٥ مدينى لقنطار العاج ، ١١٠ مدينى لقنطار الكنح ، ١١٠ مدينى لقنطار خولان (عقار طبى) ، ٨٦ مدينى لقنطار كركم ، ٢٧ مدينى لبالة الكتان ، ٦ مدينى لآردب الخضروات وحبوب وعلف ، ٤ مدينى لبالة الكتان ، ٦ مدينى للباله الصغيرة ٨٦ مدينى قنطار أهليج ، وقنطار المر ، والفلفل أسود ، ٤ مدينى لآردب الارز ، ٢٧ر٥ مدينى لقنطار الزهور الجافة ، ١٣ مدينى لبالة الزعفران ، ٣٠ مدينى لقنطار ملح النوشادر ، ٢٦ مدينى لقنطار بذور اليسر ، ١ مدينى لقطعة الخيش ، ٦-١٢ مدينى للقطعة مناشف (فوط) ١٨ مدينى لقنطار سكر مكرر تمر هندى ٤٥ مدينى للقنطار ، ، ٣٧ر٥ مدينى لقنطار لوازم النسيج ، ٤ مدينى لقنطار أقمشة همايون ، ١٥ مدينى لقطعة أقمشة عاتكى ، ٣ مدينى لقطعة أقمشة زرقاء ، ٣٠ مدينى لقطعة أقمشة ضابولى من القسطنطينية ، ٥ مدينى للقطعة قماش ضابولى من مصر ، ١٠ مدينى لقطعة القماش التابولى العادية ، ٦ مدينى لقطعة أقمشة ملونة ، ٤٠ مدينى لقطعة القماش فيتلى درجة أولى ، ٣٠ مدينى للعادية ، ٢٠ مدينى لقطعة الأقمشة الجبشية ، ٤٠ مدينى لبالة أقمشة الأرائك ، ٣ مدينى بقطعة أقمشة سهن ، ٣٠ مدينى لقماش العمائم ٢٦ مدينى لقنطار الزعفران<sup>(١)</sup> .

أما الرسوم الجمركية على البضائع المصدرة إلى أوروبا من الإسكندرية وكانت تسمى بلاد النصرى على النحوالتالى :

٣٪ على الآلوة (الصبر) ، وحتليت ، مشاقة (وبر) خرز ، وبر صنع القاهرة ، وبر عادى . كوبال (صمغ للطلاء) ثمرة البوصير (سم السمك) قطن فى شكل رزم ، غزل قطن من الهند ، أغطية حمراء ، جلود جاموسى ، جلود بقر وجمال وثيران ، عجوة بلح مجفف (تمر) سن سمك ، ديميتى منقوش . بخور عقاقير طبية من كل نوع ، صمغ ، أصابع هومس ، عاج ، كركم ، صوف ، كتان ، كتان مغزول ، أهليج ، مر ، ملح النظرون ، جوزة القبى ، ريش النعام ، فلفل زعفران ، ملح النوشادر ، ملح البارود ، بذور اليسر ، سنامكى ، سكر تمر هندى ، لوازم النسيج ، أقمشة زرقاء من القطن ، أقمشة من الكتان ، أقمشة من الهند ، أقمشة ملونة ، أقمشة للأرائك جذور الزعفران<sup>(٢)</sup> .

(١) أستيف ، المرجع السابق ، ص ١٥١ - ١٦٢ .

(٢) نفسه ، ص ١٥١ - ١٦٢ .

وفرضت رسوم على حسب الكمية والوزن والنوع ، ٤٠ مدينى لقفة الرمادا والصودا ، والأرز ١٣٣ مدينى للأردب .

والرسوم التى تفرض على السلع المصدرة عن طريق جمرك دمياط إلى بلاد السلطان والبربر وأوروبا على النحو التالى :

١٠٪ على الآلوة (الصبر) والينسون ، وحتليت ، أطباق من الخزف ، خشب هندى ، خشب عطرى ، وخشب للصباغة ، قاقلة ، شيلان وأقمشة من الهند ، خمارات (خمار) القرمزية ، ثمار جوز الهند ، كوبال (صمغ للطلاء) ثمرة البوصير (سم السمك) قرون الثيران والماعز ، قطن على هيئة لوزات ، قطن فى شكل رزم ، شعر عرفه الخيول ، ماء الزهر ، بخور ، عقاقير طبية من كل نوع ، تصدير أقمشة حريرية من الاسكندرية والمحلة الكبرى ، زنك ، حديد على هيئة قضبان صمغ الك ، أصابع هرمس ، عاج ، كلخ ، خولان (عقار طبى) كركم . صوف ، حواشى جوخ ، قدور فخارية ، وموسلين من الهند ، مر سنامكى كبريت ، سكر ، سكر مكرر ، تبغ ، بودرة تبغ (سعوط) تفتاز . تمر هندى ، مناخل (منخل) ناعة فناجين من الخزف ، أقمشة من الهند ، خراطيم نارجيلات على شكل أعواد ، جذور الزعفران ، ١٢٪ على مسامير حجم كبير ، ٣ مدينى لقنطار البن ، ٢٠ مدينى لكل ١٠٠ اطار (أطواق ٣ مدينى على كل من قطعة شيلان صوف من الفيوم ، جلد جاموسى والبقر والثيران ، ٣ مدينى لقفة العجوة والبلح المجفف (تمر) ٤٥ مدينى ، ٥ مدينى لقطعة الصوف تسمى زعبوط ، ٦٠ مدينى لكل ١٠٠ رطل زنجبيل ، ١٥ مدينى لأردب الكمون ٢ مدينى لكل حمولة خميش<sup>(١)</sup> .

أما الرسوم على السلع الواردة فكانت الآتى :

١٠٪ على المشمش الطازج ، والصلب والأبر ، ١٢٪ على المشمش الطازج ، والصلب والابر ، ١٢٪ (قمر الدين والصوفان (سفنج طبى) واللوز ، والعنبر الأصفر وهلب للمراكب . ولم تكن الرسوم فى جمرك دمياط تتغير مطلقاً تبعاً للأمة التى تأتى منها السلع كما هو الشأن فى الاسكندرية ، وكانت الرسوم التى يحصلها هذا الجمرك والتى تفرض بشكل متساو على سلع أوروبا وآسيا وبلاد البرر تسدد جزءاً منها نقداً ، والجزء الآخر عينا ، كما كانت الرسوم النقدية تتحدد وفق تقييم خاص وقريب من الواقع بالنسبة لقيمة السلع ، وكان يتم ذلك بمجرد إتمام عملية الانزال<sup>(٢)</sup> .

(١) استيف ، المرجع السابق ، ص ١٥١ - ١٦٢ .

(٢) استيف ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

ولذلك فرضت ١٠٪ على بعض السلع مثل الفضة والأسلحة ، وبرادق فخارية ، برنس ، (معاطف صوف) اسبيداج أبيض ، قلنسوات حمراء ، منسوجات خشنة لصنع الملابس ، بن جلود ، خرفان ، ماعز ، لحم ملح ، شيلان ، شيلان صوف ، خمارات شال أنقره ، شموع ، ثمار جوز الهند ، حلويات ، مرجان ، مرجان فالصو ، ملاعق خشبية ، جلود ثيران ، نحاس ، سن الفيل ، أوراق مذهبة ، ماء القرنفل ، مشروبات روحية ، أسفنج ، قصدير أقمشة من الأموى ، أقمشة من تركيا ، فاصور (عقار طبي) حديد ، فناجين ، فواكه جافة ، صمغ من سوريا ، أحرمة من كل نوع ، كاب أو قبعات للسيدات ، العرقسوس ، رقائق فضية ، وفالصوه ، مشروبات روحية ، سلع من الهند ، خردوات ، موسلين ، جوز لصنع الارجيلات ، زيتون ، بطيخ من يافا ، خرف ، خردة وحدايد من كل صنف ، عنب فى صناديق ، مواقد طينية مناشير ، ملح البارود ، السروج ، حرير مطبوع وقيطان حرير ، سجاجيد للأرائك من كل نوع أقمشة من الهند ، أقمشة حريرية ، أقمشة منقوشة ، خراطيم النارجيلة ، مصنوعات زجاجية وكريستال ، أحذية قديمة .

وكانت تفرض ١٢٪ على زئبق بلسفور ، الرصاص ، مجوهرات ، اسبيداج أبيض خشب للوقود ، خشب فرنامبوك ، شمع ، شيلان ، خمارات قلفونية ، حلويات حبال ، زغب القطن ، زرد ، ملاعق خشبية ، جلود فاسى ، عقاقير طبية ، قصدير فاصور (عقار طبي) دوباره ، فواكه جافة ، عفصة ، صمغ من سوريا ، حشيش مفرط فاصوليا ، زيت ، زيت للصباغة . جرار مليئة بالعرقسوس ، صوف ، نحاس أصفر ، عسل ، هاونات ، موسلين مطبوع ، بندق ، جوز ، بصل ، رصاص ، شعر ماعز ، خرف ، رصاص بنادق ، بودرة ، حراص (للصق) عنب جاف ، عرقسوس ، صابون حرير مطبوع وقيطان حرير ، أحذية ، سكر ، ودك (شحم للأمعاء) (١١) .

وتفرض أحيانا على الوحدة أو على عدة وحدات ١٨٠ مدينى العجل الواحد ، ٦٠ مدينى على قطعة الحرير ووبر الحرير والقطن ، ٢ مدينى لكل طروق ، ١٠ مدينى لكل قطعتين الكستناء ، ١٨٠ مدينى على كل حصان ، ١٤٦ مدينى على كل أربعة من قطع الأقمشة الحلبية ٧ مدينى لربع بذور الخيار ، ٨ مدينى لجوال بذور النيلة ١٥٠ مدينى بذور البطيخ ،

(١) استيف ، المرجع السابق ، ص ١٢٦-١٤٧ .

٣ مدينى لأقمشة الحشيش المفرط ، ٨٠ مدينى للقفص الزجاجى ، ١٨ مدينى لقطعة ماء سودوات ، ١٥ مدينى لقفة بيض السمك المسمى كافيار ، ٣ مدينى للقربة الواحدة ٢٠-٣ مدينى لرطل الورق ، ١ مدينى لجلد الماعز الواحد ، ٢٩ مدينى لكل ١٠ ألواح من الرصاص ، ٣٠ مدينى لصندوق التفاح ، ٣٦ مدينى لصندوق العنب ، ٣٠ مدينى للباليه الصغيرة من الصابون السائل والعجين الوارد من سوريا ، ١١-١٢ مدينى المرطل من شراب السكر ، ١٥-٢٥ مدينى للسرج الصوفية ، والتركية ٢-٤ مدينى للاقة الخل ، ٥٠ مدينى للبرميل وحناء (لصبغ أضافر وشعر النساء) ٨ مدينى للباله الصغيرة ، ٨٠ مدينى لقنطار النيله الدرجة الأولى ، ٦ مدينى للدرجة الثانية ٤٠ مدينى لقنطار الدرجة الثالثة ، ١٠٠ مدينى لأردب الخضروات والحبوب والعلف ، ١٨ مدينى لكل ١٠٠ رطل مغزول ٢٦٥٠ مدينى لكل ١٠٠ رطل اهليج ، ٢ مدينى للحصيرة الواحدة ، ٦٠ مدينى لكل ١٠٠ رطل بندق من الهند ومدينى واحد لكل جلد ، ٣ مدينى لكل جلد من الجلود الرقيقة ، ٩ مدينى للأردب الحمص ، ٦٠ مدينى لكل ١٠٠ رطل فلفل أسود ، ٣٠ مدينى لكل ١٠٠ رطل مسحوق لصبغة الخيول ، ٧٠ مدينى لأردب الأرز ، ٣ مدينى لقطعة العباوات الصوفية للفلاحين ، ٦ مدينى لكل ١٠٠ رطل زعفران ، ٢٥ مدينى لكل ١٠ أرادب ملح ، مدينى لرطل ملح النشادر ، ٣٠٠ مدينى للباله الأقمشة ، مدينى لقطعة أقمشة القلاع<sup>(١)</sup> .

وبالإضافة إلى الرسوم السابقة ، فإنه كان يحصل رسوما أخرى ، وخاصة عندما تكون واردة من داخل مصر وتدخل المدن الموضحة فإنها تخضع للرسوم المبينة :

بالنسبة للإسكندرية ، لا يوجد رسوم ، فقد كانت تجبى فيها الرسوم كاملة أما بالنسبة لرشيد فكانت تفرض فيها الرسوم التالية :

الكبريت ٣٠ مدينى للبرميل الكبير ، الأحذية ٤٥ مدينى للباله ، تبغ وارد تركيا ٤٣-٨٠ مدينى للباله ، سجاجيد للصلاة ٩٠ مدينى للباله ، سجاجيد موبرة ومساجد قدم ٤٥ مدينى للباله ، وردى ٩٠ مدينى للبرميل تنباك ٤٥ مدينى للبرميل ، زجاج نوافذ ٣٠ مدينى للصندوق ، أملاح معدنية الصلب ٤٥ مدينى للصندوق والابر والقلنسوات الحمراء ، والحلويات من البندقية ، السكاكين الشعبية ، النحاس سن الفيل ، الأقمشة الصوفية من بلاد البربر ،

(١) استيف ، المرجع السابق ، ص ٢٦-١٤٧ .

الزنك ، جلد فاس أحمر ، وأصفر ، مستكة ، صدف لؤلؤ ، وللصندوق وقرب المياه ٤٥ مدينى ، وللصندوق الفستق ، ١٥ مدينى للباله من الصوفات ، ٢٠ مدينى لقفة اللوز ، ٩٠ مدينى للعنبر ، ٣٠ مدينى سلفور الرصاص ، ٢٠ مدينى لقنطار خشب الصباغة ، ٩٠ مدينى لصندوق الشموع ، ٢٠ مدينى للأساور الزجاجية ، ١٠ مدينى لقفة الخروب ، ٩٠ مدينى للباله الصغيرة لشال صنع أنقرة ، كستناء ٣٠ مدينى للبرميل الكبير ، ٩٠ مدينى لبرميل القرمزية ٩٠ مدينى لصندوق البوصيرى ، ٢٠ مدينى لبرميل بوتقات الصاغة ، ٦٠ مدينى لباله سن الفيل ، ٩٠ مدينى لباله أجواخ الصغيرة ، ٩٠ مدينى لبرميل القصدير ، ٥ مدينى لسلة الفوانيس الزجاجية من البندقية ، ٢ مدينى لقضيب الحديد فى شكل قضبان ، ٣٠ مدينى ورد اللاوندة ، ٦٠ مدينى لقفص الزنجيل ، ٩٠ مدينى لبرميل القرنفل ، ٢٠ مدينى صنع الكثير ، ٦٠ مدينى للصنع العربى ، ٩٠ مدينى لصنع الطلاء ، مدينى لجرة زيت الزيتون ، المحالب ٣٠ مدينى للباله ، ٢ مدينى للرخام للصنوق ، مدينى متر مربعات الرخام ، ٩٠ مدينى لسلع فى صناديق ، ٤٥ مدينى لصندوق المستكة ، ٩٠ مدينى لصندوق المرايا ، ٦٠ مدينى لقفص المر ، ١٥ مدينى لجوال البندق ، ٢٠ مدينى لقفة الجوال ، ٩٠ مدينى لباله ذهب البراق ، ٤٥ مدينى لصندوق قرب المياه ، ٢٢ - ٤٥ مدينى لباله الورق وارد جنوه وأيضاً البندقية ، ٢٠ مدينى لكوم الجلود المصبوغة ، ٢٠ مدينى لبرميل قداحات البنادق ، ٤٥ مدينى لصندوق الفستق ، ٥ مدينى لسبيكة الرصاص ، ٩٠ مدينى لصندوق ريش العام ، ٩٠ مدينى لصندوق القفل ، ٩٠ مدينى لباله الخزف ، ٢٠ مدينى لجوال جذور نبات القوة ، وجذور السحلب ، ٢٠ مدينى لصندوق العنب الجاف ، ٣٠ مدينى لباله عنب لصنع الخمر ، ١٣ مدينى لكل ١٠ أقراص راتنج<sup>(١)</sup> .

أما بالنسبة لجمرك دمياط ، فكانت تفرض رسوم ٦٪ على آبا قدار (نوع من البذور) عجين المشمش (قمر الدين) الصلب ، الابر الصبار ، الصوفان ، اللوز ، العنبر ، هلب مراكب ، فضة سبائك ، طباشير ، خشب للوقود ، اللوز ، العنبر ، هلب مراكب ، فضة سبائك . طباشير ، خشب للوقود ، خشب للصباغة ، شموع ، أساور زجاجية ، زفت ، أحزمة مطرزة ، خمارك ، فحم مقصات ، مسامير ، مسبحات ، خشب قرمزية ، جوز الهند ، حلويات ، مرجان

(١) استيف ، المرجع السابق ، ص ١٧٢ - ١٨٢ .

حبال ، حاس مطهر للاذن ، سن الفيل ، أجواخ : ماء قرنقل ، دبابيس ، أسفنج ، قصدير زنك ، حديد فى شكل قضبان ، بنادق ، صمغ عربى ، قطران ، زيت زيتون ، مصابيح زجاجيه ، مشروبات روحيه ، جلد فاسى أحمر وأصفر ، مستكة ، زئبق ، رحي طاحون ، مرايا ، هاودنات ، موسلين ، صدف لؤلؤ ، بندق ، جوز ، زيت ، ذهب خام ، شباشب ، وارد القسطنطينيه ، رصاص ، ريش النعام ، خزف منافىخ ، تبغ وارد سورا ، سجاجيد للصلاة ، خراطيم للنارجيلة ، أكواب والرسوم الأخرى فكانت ١٦ مدينى لعلبة القلنسوات الحمراء ، ٣٠ مدينى لقنطار البن ، إذا لم يدفع فى بولاق ، ١١/٢ مدينى لرزمة الورق وارد جنوة ، ٦ مدينى لرزمة الورق وارد البندقية ، ٥ مدينى للجرة رصاص البنادق ، ٣٠ مدينى برميل راتنج ، ٩٠ مدينى لجرة الزعفران ، ٩٠ مدينى لبالة فشاغ ، ٢ مدينى لصندوق الصابون ، ٩٠ مدينى لبالة الحرير ، ٩٠ مدينى لصندوق الأحذية ، ١٨ مدينى لكل ١٠٠ رطل كبريت ، ١١٢ مدينى لزوج الأحذية ، ٤٨ مدينى للقفعة تبغ وارد سوريا وأيضاً تركيا ، والنشوق ، ٤٠ مدينى لكل ١٠٨ رطل تمر هندى<sup>(١)</sup> .

وعندما تخرج السلع من المدن الموضحة ، وتكون مخصصة للاستهلاك المحلى فانها تخضع للرسوم التالية :

بالنسبة لجمرك اسكندرية فانها كانت تفرض رسوما على البن من ٢٢-٥٠ مدينى للباله ، ولم تفرض أية رسوم أخرى .

وبالنسبة لرشيد . فكانت على الصبر ٦٠ مدينى للباله ، وحتليت ٦٠ مدينى للبرميل بوصيرى ، ومن ٣٠-٦٠ لبالة ماء القرنفل ، ولا نرى رسوما خلاف ذلك ، ولم تفرض أية رسوم فى دمياط خلال القرن الثامن عشر<sup>(٢)</sup> .

وكانت السلع التى تصل إلى رشيد تودع فى وكالة الباشا وتخضع لدفع رسم يسمى رسم إقامة لصالح ملتزم هذه المنشأة<sup>(٣)</sup> .

(١) استيف ، المرجع السابق ، ص ١٥١-١٦٢ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ، ص ١٥١-١٦٢ .

وكانت حصيلة الرسوم الجمركية التى يتم تحصيلها من كل جمرك تخصص لها جهة ، مثل مرتب الباشا العثمانى ، ضباط الحامية ، الصرة ، وهى الأموال التى ترسل إلى الحجاز كل سنة مع قافلة الحج المصرى ، وجزية السلطان<sup>(١)</sup> .

ونظراً للظروف السياسية التى مرت بها مصر فى القرن الثامن عشر ، طبق نظام الالتزام على الجمارك تطبيقاً سليماً ، فقد أشرف الملتزمون وأعوانهم فى ابتزاز الأموال من المشتغلين فى تجارته الاستيراد والتصدير ، وكانت غالبيتهم من الأجانب مثل البنادقة واليونانيين والفرنسيين وبعض الانجليز<sup>(٢)</sup> .

ولما تم للاتكشارية الإستيلاء على الجمارك وإيراداتها فقد أدى هذا إلى تقوية مراكزهم والتحكم فى إدارة مصر خلال هذه الفترة ، وقد حصل الانكشارية فى عام ١١٥١هـ / ١٧٣٨م من إيرادات الجمارك مبلغ ٢٢٥٠٠٠ ر ٢٢٠٠٠ بارة من جمارك الاسكندرية ودمياط والبرلس وبولاق ومصر القديمة دفعوا منها للخزينة السلطانية مبلغ ٨٥٢ ر ٦٤٨ ر ١٤ بارة ، ومبلغ ٦٧٠٠٠ ر بارة كشوفية صغيرة للباشا ، والباقى قدره ٧٢٦ ر ١٤٨ بارة صافى ربحهم<sup>(٣)</sup> .

واحتفظ الانكشارية طوال القرن الثامن عشر بأرباح هذه الجمارك الأربعة فيما عدا بضع سنوات قليلة ، عندما أنفرد على بك الكبير بحكم مصر (١٧٦٨-١٧٧٣م) حاول القضاء على بعض عيوب تطبيق الالتزام على الجمارك . ولكن بعد وفاته عادت عيوب تطبيق نظام الإلتزام تطل برأسها ، وفى عهد محمد بك أبو الذهب<sup>(٤)</sup> .

وفى أواخر القرن الثامن عشر ، إستولى مراد بك وإبراهيم بك على مقاليد الأمور فى مصر ، واقتسما دخول كل الجمارك فيما بينهما بالتساوى فيما عدا جمرك القصير فقد ترك لبكوات الصعيد<sup>(٥)</sup> .

(١) حسن عثمان ، المجلد فى تاريخ مصر ، ص ٢٧٠ .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

(٣) سجلات الروزنامة ، دفاتر الجمارك أرقام ٤٢٤٢ ، ٤٢٤٣ ، ٤٢٤٤ ، لسنوات ١١٨٦هـ ، ١٧٧٢م ، ١٧٨٦هـ / ١٧٧٢م ١١٨٧هـ / ١٧٧٣م .

(٤) سجلات الروزنامة ، المرجع السابق .

(٥) على مبارك ، المخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، ج ٧ ، ص ١٥٦ .

ولقد إحتفظ مراد بك لنفسه بديوان القاهرة المكون من مكتبى مصر العتيقة وبولاق ، وكذلك بجمارك دمياط ورشيد والاسكندرية ، ولم يحتفظ ابراهيم بك إلا بجمرك السويس<sup>(١)</sup> وأتضح أن جمرك دمياط كان ألزاماً لابراهيم بك فى عام ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م<sup>(٢)</sup> وأستمر ذلك الوضع إلى عام ١٢٠٠هـ / ١٧٨٥م وفيه أعيد التزام الجمارك إلى الانكشارية<sup>(٣)</sup> .

وكان الملتزم العام أو المدير العام لجمارك مراد بك يختار ويضع تحت امرته ، مأمور الجمارك الرئيسية لمكاتب بولاق ورشيد والاسكندرية ، وكان كل من هؤلاء يرأس عددا من الموظفين يتناسب مع حجم السلع التى تصل إلى كل من هذه الأماكن والتى تتحكم المرور عليها من هناك .

وبالنسبة لعدد العاملين بجمرك الاسكندرية ، فقد كان كثير العدد ، ويرجع ذلك لضخامة العمل فيه ، ويليه مباشرة دمياط ثم رشيد ؛ حيث كان بجمرك الاسكندرية اثنا عشر كاتباً وستون رؤساً ، ودمياط ثمانية كتبه وخمسون رؤساً ورشيد ثلاثة كتبه وعشرون رؤساً<sup>(٤)</sup> .

أما رواتبهم فكانت على النحو التالى :

مرتب المأمور العام لجمرك الاسكندرية يحصل سنوياً على ٤٠٠٠ ريالاً<sup>(٥)</sup> بوظيفة .

مرتب المأمور العام لجمرك دمياط يحصل سنوياً على ٤٠٠٠ ريالاً بوظيفة .

مرتب المأمور العام لجمرك رشيد ، يحصل سنوياً على ٤٠٠٠ ريالاً بوظيفة .

من الملاحظ هنا أن مرتب مأمور الاسكندرية يتساوى مع مرتب مأمور دمياط ، علماً بأن العمل فى جمرك الاسكندرية مضاعف ، ويرجع ذلك إلى أهميتها فى التصدير والاستيراد .

(١) ب.س جيران ، الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر ج ١ ، ص ٣٥٢-٣٥٤ .

(٢) دفتر أصول مال اسكليات ومقاطعات ، رقم ١١٣ ، عين ٥٤ ، مخزن تركى (٢) مسلسل رقم

٤٢٥١ .

(٣) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ١٨٨ .

(٤) ب . س جيران ، المرجع السابق ، ج ، ص ٣٥٤ .

(٥) الريال ، اللفظ مقتبس من Royal بمعنى ملكى ، وقد كان الاسبان أول من تداولوا هذا النقد فى الاسواق التجارية ، وهو عبارة عن النقد الفضى المسمى (بيزو) وأطلق الريال فى العالم العربى منذ القرن السابع عشر الميلادى على نقود فضية كبيرة . فرنسية ، وأسبانية وهولندية وألمانية ونمساوية . (أنظر عبدالرحمن فهمى ، المرجع السابق ، ص ٥٨٧) .

ويحصل الكاتب على ٦٠ - ٣٠٠ بارة فى اليوم ، ويصل راتبه السنوى إلى ٧٣٠ ريالا بوطاقة ، ويحصل كل الموظفين المرؤسين عادة على ٤٥ بارة فى اليوم أى ١٨٢ بوطاقة فى العام .

ولم يكن مأمورا الجمارك أو أى تابعيهم يحصلون على مكافآت عن الحصيلة التى يجمعونها ، ومع ذلك فلم يكن من النادر أن يحصلوا على بعض الهدايا البسيطة من جانب التجار ، أما بالنسبة للملتزم فانه بالإضافة إلى الديون المستحقة له ، والتى تضيع عليه ، وهو أمر يحدث له بصفة دائمة ، وبالإضافة كذلك إلى بعض الترتيبات والتسويات الخصوصية، والتى تتم بين المتعاملين مع الجمارك ، وبين مأمورى هذه الجمارك ، فقد كان يقوم بنفسه من وقت لآخر بتقديم هدايا تتفاوت قيمتها إلى مراد بك وإلى المقربين اليه<sup>(١)</sup> .

وكان لابد أن يفيد هذا الملتزم فى كل الأحوال بين كل المنافع التى تنتج عن ذلك ، ومع هذا فحين تصل هذه المنافع إلى مبالغ يفوق ما هو معتد من هذا الأمور يتعرض الملتزم لمظلمة تتنزع عنه إما حق من كسب ، وبهذه الطريقة حطم مراد كثيرا من رجال جماركه واحدا بعد الآخر<sup>(٢)</sup> .

وكان الملتزم العام للجمارك يدفع إلى مراد بك نحو ٢١٠٠٠ ر بوطاقة فى الشهر ، وبذلك يبلغ جملة ما يدفعه فى العام ٢٥٢٠٠٠ بوطاقة .

وبالنسبة للمصاريف التى كان على الملتزم أن ينفقها هى :

حوالى	١٢٤٠٠٠ بوطاقة
ثمن التزامه	٢٥٢٠٠٠ بوطاقة

مجموعة المصاريف ٣٧٦٠٠٠

فى حين تبلغ حصيلة الرسوم ٤٨٠٠٠٠

١٠٤٠٠٠

(١) جيرار ، المرجع السابق ، ص ٣٥٥ .

(٢) على مبارك ، المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ١٥٧ .

ويعتبر هذا المبلغ شديد الضخامة لدرجة أكبر مما ينبغى الأمر الذى يشير لعاب جشع البكوات ونهمهم ، فيجاب الكثير من المغارم والمظالم التى كانت تضيع على الملتزمين العاملين للجمارك<sup>(١)</sup> .

وكانت كل الرسوم التى تحصل عن مختلف السلع الواردة إلى مصر تنظم تبعاً لتعريفات لم تناولها سوى تعديلات طفيفة منذ وضعها ، ومع ذلك فقد كان البن الذى يصل عن طريق السويس مثقلاً برسوم كانت ترتفع بصفة مستمرة حتى بلغت ٢٢ بطاقة من الفردة الواحدة .

وكانت الرسوم التى تحصل فى جمرك السويس تبلغ فى السنة الاعتيادية وتبعاً للأحوال ٤٠٩٣٦٥١ بطاقة أى أنها كانت تعادل حصيلة الجمارك الأربعة فى القاهرة ودمياط ورشيد والاسكندرية . فى حين كانت مصاريف التحصيل (فى جمرك السويس) أقل منها بكثير (منها فى هذه الجمارك) وهذا مايفسر لماذا إكتفى إبراهيم بك وهو الذى كان يقسم السلطة مع مراد بك بعائد جمرك السويس وحده تاركاً لزميله عوائد الجمارك الأخرى<sup>(٢)</sup> .

وكانت هناك ظاهرة تكررت ، وهى أنه كلما إحتاج هذا الأميران المملوكيان إلى أموال وفيرة تصل قيمتها فى كل مرة إلى خمسمائة ألف بارة ، كانا يستدعيان ملتزم الجمارك لتقديم المبلغ ، فلا يتردد الملتزم فى أداء ما يطلبان ، وارتاح الملتزم إلى أمثاله فى رفع الرسوم الجمركية بصورة غير رسمية تعويضاً له عن المبالغ التى دفعها . وهكذا كان الملتزم لا يتقيد بالتعريفه الجمركية . وكان يفرض ما شاء له جشعه من رسوم إضافية لاتغطى المبالغ التى يدفعها للأمرء المماليك فحسب ، بل لتحقيق له مزيداً من الأرباح . وعلى هذا النحو تلاقى أو التحقت مصالح ملتزمى الجمارك مع مصالح الأمرء المماليك ، وقد شخصوا بأبصارهم إلى الرسوم الجمركية باعتبارها مورد مالى لاينضب معينه وقد إرتفعت أصوات التجار بالشكاوى من تصرفات ملتزمى الجمارك ، وتظاهر مراد بك برغبته فى القضاء على عيوب نظام إلتزام الجمارك وقرر أن ينفرد هو دون سواه بالإشراف على الجمارك وإزداد الموقف تدهوراً ، إذ لم يكن هدفه الإصلاح وإنما الاستيلاء على حصيلة الرسوم الجمركية ، دون أن يشاركه فيها زميله فى الحكم المملوكى إبراهيم بك<sup>(٣)</sup> .

(١) جبرار ، المرجع السابق ، ص ٣٥٥ .

(٢) جبرار ، المرجع السابق ، ص ٣٥٦ .

(٣) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

ونتيجة للتدهور قامت بعض الدول الأوروبية مثل فرنسا والمجترات لحسم الموقف مع مراد بك وإبراهيم بك ، وعقد إتفاقيات لأجل هذا الغرض فعقدت فرنسا مع مصر ثلاث معاهدات فى يناير عام ١٧٨٥م ، الأولى مع مراد بك ، وفيها تعهد بصيانة التجارة الفرنسية عند مرورها بمصر ، وحدد الضرائب على متاجر الهند بمقدار ٢٪ للوالى فى مصر ، ٤٪ للبيك الحاكم ، ٣٪ فقط إذا كانت هذه المتاجر مصدرة لفرنسا ، وتعهد . يوسف بعدم زيادة الرسوم على المتاجر الفرنسية ، وتحصيل ٥٪ من قيمة المتاجر المفرغة إلى السويس ، وكانت المعاهدة الثالثة مع الحاج ناصر شديد أحد شيوخ الأعراب وفيها تعهد بنقل المتاجر الفرنسية بأمان فى طريق القاهرة مقابل مبلغ معين عن كل جمل (١) .

على أية حال فقد كان لهذه المعاهدات رد فعل مهم ، فلما علمت الحكومة الانجليزية بعقد هذه المعاهدات ، وبدأت تهتم بالمخططات الفرنسية بمصر . وتفاوضت عن طريق قنصلها بمصر مع البكوات الماليك لابرار معاهدة تجعل الرعايا الإنجليز على قدم المساواة مع الفرنسيين . وعقدت معاهدة مع مراد بك وإبراهيم بك على نمط المعاهدة الفرنسية . ولكنها لم تهتم بالمعاهدة لانشغالها بقيام الثورة فى فرنسا (٢) .

هكذا سلطت الدراسة الأضواء على نظام الجمارك فى مصر العثمانية وإدارتها . والعناصر المشتركة فى إدارتها ، ونظام التفتيش الدقيق الذى كان يطبق فيها ، والمراقبة المحكمة من جانب هذه الأجهزة والرسوم الجمركية المختلفة التى كانت تفرض على الأشخاص والبضائع التى اختلفت رسومها أما بالنسبة المثوية أو بالقطعة وغير ذلك .

وأبرزت الدراسة الوظائف التى كانت موجودة والنقود المستخدمة وتم شرحها من واقع المراجع المتخصصة . ونظراً للأحداث السياسية التى شهدتها مصر خلال القرن الثامن عشر ، فقد لوحظ أن هذا أدى إلى تذبذب الدخل فى تلك السنوات .

وبالنسبة لإيراد جمرك الاسكندرية ورشيد ، فنجد أن إيراده ظل ثابتا فى القرن الثامن عشر ، فقد كان إيراده الإجمالى هو ٧٠٥ ٤٠٥ رة فى السنة . بخضم منه مصاريف ثابتة

(١) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ص ٩٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٣ .



الشرفين والمرتبات التى تدفع للعلماء والمشايخ ، واللحم الضانى ومرتبات القلاع<sup>(١)</sup> ومنذ عام ١١٢٣هـ/١٧١١م ، زاد الإيراد فأصبح ٤٩٦ر٢٩٦ر١ بارة وإزدادت معه قيمة خصم المصروفات فأصبح ٣٠٨ر٣٥٩ر٠ بارة فأصبح الصافى ٨٨ر٩٣٧ر٠ بارة<sup>(٢)</sup> وأصبح منذ عام ١١٣٣هـ/١٧٢٠م مبلغ ٤٩٦ر٤٤٦ر١ بارة ، وإزداد معه قيمة الخصم فأصبح ٨٨ر٠٨٧ر١ بارة . الصافى ٤٠٨ر٣٦٩ر٠ بارة<sup>(٣)</sup> وإنخفض فى عام ١١٥٤هـ/١٧٤١م إلى ٤٩٠ر٤٤٦ر١ بارة وترتب على ذلك تخفيض قيمة المصاريف إلى ٩٨٢ر٢١٩ر٠ بارة فصار الصافى ٥٠٨ر٢٢٥ر٠ بارة<sup>(٤)</sup> وإزداد عام ١١٥٩هـ/١٧٤٦م إلى ٣٥٦ر٥٠٤ر١ بارة ، يخصم منه ٥٨٢ر٢٢٦ر٠ بارة فيصبح الصافى ٧٦٤ر٣٧ر١ بارة<sup>(٥)</sup> ، وإبتداء من عام ١١٧٩هـ/١٧٦٥م ، إرتفع الإيراد إلى ٥٣٠ر٥٦٤ر١ بارة يخصم منه ١٥٤ر٢١٩ر٠ بارة فيصبح الصافى ٣٧٦ر٣٤٥ر١ بارة<sup>(٦)</sup> وفى عام ١١٩٠هـ/١٧٧٦م . أصبحت قيمة خصوماته ٦٦٢ر٢٢٨ر٠ فأصبحت قيمته الصافية مبلغ ٨٦٨ر٣٥ر١ بارة<sup>(٧)</sup> .

وإبتداء من عام ١١٩٤هـ/١٧٨٠م أصبحت قيمة الخصومات هى ٤٧ر٢١١ر٠ بارة فأصبح الصافى ٤٨٣ر٣٥٣ر١ بارة وإستمر ذلك حتى عام ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م<sup>(٨)</sup> .

أما جمرك البرلس فكان إيراده حتى عام ١١٢١هـ/١٧٠٩م هو ٢٨٨ر١٤٥ر١ بارة يخصم منه ٤٠٨ر٢٩٩ر٠ فيصبح الصافى ٨٨٠ر٩٤٦ر٠ بارة<sup>(٩)</sup> ومنذ عام ١١٢٤هـ/١٧١٢م قل إيراده إلي ٨١٨ر١١٧ر٠ بارة يخصم منه ٥٨٣ر٩٧٥ر٠ بارة فيصبح الصافى ٢٣٥ر٢٠ر٠ .

(١) دفتر رقم ١٤٧١ عام ١١٢٣هـ/١٧١١م .

(٢) دفتر رقم ٤١٧٢ عام ١١٢٣هـ/١٧١١م .

(٣) دفتر رقم ٤١٨٢ ، عام ١١٣٣هـ/١٧٢٠م .

(٤) دفتر رقم ٤٢٠٢ عام ١١٥٤هـ/١٧٤١م .

(٥) دفتر رقم ٤٢٠٥ ، عام ١١٥٩هـ/١٧٤٦م .

(٦) دفتر رقم ٤٢٢٥ ، عام ١١٧٩هـ/١٧٦٥م .

(٧) دفتر رقم ٤٢٥٩ ، عام ١١٩٠هـ/١٧٧٦م .

(٨) دفتر رقم ٤٢٩٠ ، عام ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م .

(٩) دفتر رقم ٤١٧٢ عام ١١٢١هـ/١٧٠٩م .

بارة (١) ، وظل ذلك ثابتا حتى عام ١٢٩هـ/١٧٦م ، فأصبح إيراده ٣٥٧٥ر٥٠٤ يخصم منه ٧٥٨ر٠٠٩ فأصبح صافى إيراده ٧٧٦ر٦٠٤ بارة (٢) وإنخفض الإيراد مرة أخرى عام ١١٥٩هـ/١٧٤٦م إلى ٨١٨ر١١٧٠ بارة يخصم ٥٨٣ر٩٧٥٠ بارة فأصبح الصافى ٩٧٨٥ بارة (٣) وإزداد منذ عام ١١٦٣/١٧٤٩م ، إلى ١٢٢ر٥٣١ بارة يخصم من ٩٧٥ر٥٨٠ بارة فيصبح الصافى ٩٥١ر٢٤٩ بارة (٤) ، ومنذ عام ١١٧٣هـ/١٧٥٩م أصبح الإيراد ١٤٢ر٤١٢٠ ويخصم منه ٩٧ر٥٨٠ فيكون الصافى ٣١٤ر٥٦١ بارة (٥) وإستمر ذلك حتى عام ١١٨٨هـ/١٧٧٤م ، فأصبح إيراده ٤٦٦ر١٨٦٠ بارة يخصم منه ٢٧ر٢٥٢ بارة فيصبح الصافى ٢١٤ر١٣٩ بارة (٦) .

وإبتداء من عام ١١٩٠هـ/١٧٧٦م ، وإزداد الإيراد إلى ٩٦٦ر٢٤٨ بارة يخصم منه ٢٥٢ر٠٥٧ بارة فيصبح الإيراد ٧١٤ر٩١٩ بارة (٧) وفى عام ١١٩٥هـ/١٧٨٠م إزداد الإيراد إلى ٩٦٦ر٢٧٣ بارة يخصم من ٥٧ر٥٢٥ بارة فيصبح الصافى ٧١٤ر٢١٦ بارة (٨) . وظل ذلك ثابتا إلى أن إنتهى به الأمر وضم إلى جمرك دمياط .

- 
- (١) دفتر قيد رقم ٤١٧٣ عام ١٧١٢م .  
 (٢) دفتر رقم ٤١٧٨ عام ١١٢٩هـ/١٧١٦م .  
 (٣) دفتر رقم ٤٢٠٣ عام ١١٥٩هـ/١٧٤٦م .  
 (٤) دفتر رقم ٤٢١٢ عام ١١٦٣هـ/١٧٤٩م .  
 (٥) دفتر رقم ٤٢٢٥ عام ١١٧٣هـ/١٧٥٩م .  
 (٦) دفتر رقم ٤٢٤٦ عام ١١٨٨هـ/١٧٧٤م .  
 (٧) دفتر رقم ٤٢٤٩ عام ١١٩٠هـ/١٧٧٦م .  
 (٨) دفتر رقم ٤٢٥٣ عام ١١٩٥هـ/١٧٨٠م .



## الفصل الرابع

### التعليم فى مصر فى القرن الثامن عشر

#### أولا : الحياة العلمية فى العصر العثمانى :

أصبحت مصر مركزاً للنشاط العلمى فى عصر المماليك، ويرجع ذلك لإحيائهم الخلافة العباسية فى القاهرة، بالإضافة إلى أن السلاطين المماليك أنفسهم كانوا يشجعون العلم والعلماء ، وأشتهر فى عهدهم بعض العلماء والمؤرخين أمثال محى الدين بن عبد الظاهر ، وابن خلكان وجمال الدين بن واصل<sup>(١)</sup>.

كذلك حرص السلطان قانصوه الغورى على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة أو مرتين كل أسبوع . واشتغل بعض أمراء المماليك وأبنائهم فى مصر بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية ، بل تصدى بعضهم لإقراء الطلبة والتدريس لهم<sup>(٢)</sup>.

وعندما خضعت مصر للحكم العثمانى، أصدر السلطان سليم مرسوماً عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، بعدم التعرض للأوقاف الموقوفة على أوجه الخير ومنها الخاصة بالجوامع والمدارس والتكايا والزوايا والمعابد التى تمت فى عهد السلطان الأشرف الغورى، والصرف عليها نقداً أو عيناً ونبه على الإدارة العثمانية بضرورة مراعاة ذلك<sup>(٣)</sup>.

كما أمر السلطان سليم أثناء إقامته بمصر بترحيل بعض علماء الأزهر إلى استانبول ، وكان من بينهم صفوة علماء الفقه ومذاهبه وعلوم القرآن الكريم والحديث والموارث والافتاء ونواب القضاء على المذاهب الأربعة ، فضلاً عن الصنائع المهرة، وكان ترحيلهم مادة خصبة استند إليها بعض الباحثين للتشهير بالدولة العثمانية<sup>(٤)</sup>.

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٣٢٩-٣٣٠ .

(٢) نفسه ، ص ٣٣١ .

(٣) دار الوثائق القومية بالقلعة ، دفاتر رزق القوصية ، مخزن تركى رقم (١) مسلسل رقم ٤٦١٦ ، تاريخ ٢٤ ربيع آخر عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م.

٤- عبد العزيز الشناوى، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٢٩٠-٦٩٦ ؛ حسين مؤنس ، الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ، ص ٣٣-٣٥ .

ولاجدال فى أن هذا القرار قد أدى إلى حرمان الأزهر من فريق خيرة علمائه. ولكن هذا الحرمان وقتياً استمر ثلاثة أعوام. فقد توفى السلطان سليم عام ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م، ورأى ابنه السلطان سليمان القانونى، إعادة جميع المصريين الذين أخرجوا من بلادهم فى عهد والده، ومن ثم أصدر فرماناً عام ٩٢٧هـ / ١٥٢١م بهذا المعنى. ولما وجد أن بعض المصريين يتأخرون فى العودة أصدر فرماناً لاحقاً فى نفس العام أنذر فيه بالشنق لكل من يتباطئ فى العودة إلى بلاده. وعقب ذلك وصل العلماء وغيرهم إلى مصر أفواجا، حتى أخذت عودتهم شكل ظاهرة طرأت على المجتمع المصرى فى ذلك الوقت<sup>(١)</sup>.

وتميزت الإدارة العثمانية فى مصر بأنها كانت إدارة تقليدية تنحصر وظائفها فى تحقيق الأمن العام والصحة العامة والدفاع عن البلاد. وكانت تترك فيما عدا ذلك من الشئون الإدارية لنشاط الأفراد فلم توجه عناية خاصة لشئون الزراعة أو الصناعة أو الصحة أو التعليم، تلك المهام التى تطلع بها الإدارة الحديثة. وكان هذا نابعاً من فلسفة العثمانيين فى حكم الدولة حتى القرن التاسع عشر، فقد قامت تلك الفلسفة على أساس أن تتخفف الدولة بقدر ما تستطيع من أعباء الإدارة المباشرة فتترك الرعية يديرون شئونهم بأنفسهم، فإذا احتاجوا إلى شئ من التعليم التمسوه عند من يحسنونه، وإذا استبد بهم داء التمسوا له الطب عند بعض العارفين، والتعليم فى الأزهر والمساجد يسير على مألوف ما اعتاد العلماء والمجاورون من الطلاب<sup>(٢)</sup>.

واستأنف علماء الأزهر وغيرهم نشاطهم العلمى والفنى، وقد تكون المدة التى قضوها فى استانبول وهى ثلاث سنوات ذات أثر على حياة الفرد ولكنها لا تكون بأى حال من الأحوال ذات أثر على مسيرة الأزهر العلمية لأن الشعب المصرى لم يبدأ من فراغ، وإنما هو ذو ماضى حضارى بطول الزمان وجوداً، ولما جاء نابليون بونابرت إلى مصر بعد قرابة ثلاثة قرون وجد الأزهر يروج بنشاط علمى كثيف<sup>(٣)</sup>.

وقد اشتهر بعض باشوات مصر العثمانيين بالعدل وتكريم أهل العلم مثل داود باشا الخادم (٩٤٥-٩٥٦هـ / ١٥٣٨-١٥٤٩م) فقد كان على درجة كبيرة من العلم، وقد اهتم بجمع

(١) محمد بن اياس الحنفى، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ٥، ص ٣٩٧.

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد، الإدارة فى مصر العثمانى، ص ٤٣.

(٣) عبد العزيز الشناوى، الأزهر جامعاً وجامعة، ج ١، ص ١٨٣.

الكتب العربية ونسخ له النساخ كثيراً منها فتكونت لديه مكتبة كبيرة، كان مواظباً على الإطلاع فيها، وعلى باشا الخادم (٩٦٦-٩٦٧ هـ / ١٥٥٨-١٥٥٩ م) وسان باشا (٩٧٦ هـ / ١٥٦٩ م) كان حكيماً محباً للرعية فرفع الضرائب عن الفقراء والعاجزين والقسم الأعظم من طلبة العلم، وكان شديد التعليم بالعلم وبنوهِ<sup>(١)</sup>. ومحمد باشا الصوفي (١٠٢٠-١٠٢٤ هـ / ١٦١١-١٦١٥ م) الذي كان محباً لأهل العلم<sup>(٢)</sup>، وجعفر باشا (١٠٢٨ هـ / ١٦١٨ م) الذي كانت له اليد الطولى في غالب العلوم خصوصاً علم التفسير<sup>(٣)</sup>، وظهر بعض العلماء مثل ابن سهراب أفندي والذي كان عارفاً بعلم الرمل والزائرجية والروحاني والنجم والميقات والكيمياء إبان تولية عمر باشا (١٠٧٤-١٠٧٧ هـ / ١٦٦٤-١٦٦٧ م)، وعبدالله باشا الكبورلى (١١٤٢-١١٤٤ هـ / ١٧٢٩-١٧٣١ م) الذي كان ميالاً للأدب، وأحمد باشا كور (١١٦٢-١١٦٣ هـ / ١٧٤٨-١٧٤٩ م) ومحمد باشا ملك (١١٩٥-١١٩٦ هـ / ١٧٨٠-١٧٨١ م) وكان من أفاضل العلماء متضلعا في سائر الفنون ويحب المذاكرة والمباحثة والمسامرة وأخبار التواريخ وحكايات الصالحين وكلام القوم<sup>(٤)</sup>.

وإذا كان بعض باشوات مصر قد اهتموا بالعدل وتكريم أهل العلم فإن بعضهم كان عكس ذلك مثل خضر باشا (١٧ ذى الحجة عام ١٠٠٦ هـ / ٢١ يوليو ١٥٩٨ م) أمر بقطع الأعطيات والجرايات التي كانت توزع على العلماء والفقراء من الخنطة، ولم يقتصر على الإيقاع بهؤلاء الضعفاء، بل تجاوزهم إلى الضابطة فأحرمهم زادهم، فتجمعوا في ٢٠ رمضان سنة ١٠٠٩ هـ / ١٦٠١ م وساروا إلى قاضى العسكر ثم اتحدوا والقاضى فى مقدمتهم وتوجهوا إلى الديوان يريدون الانتقام، فقتلوا كخيا باشا وأمراء آخرين، فخاف الباشا فسلم لهم بما كانوا يطلبونه وأعاد الأعطيات كما شاءوا وخمدت الثورة وعادت الحياة إلى مجاريها، إلا أن الباشا لم يلبث هينة حتى جاءه الأمر بالاقالة<sup>(٥)</sup>.

(١) جرجى زيدان، مصر العثمانية، تحقيق ودراسة وتعليق محمد حرب، دار الآفاق العربية، القاهرة ٢٠٠١ م، ص ٩٢.

(٢) محمد سيد الكيلانى، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى، ص ١١.

(٣) أحمد شلبى عبد الغنى، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر من الوزراء والباشوات، ص ١٦٣.

(٤) توفيق الطويل، التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، ص ٣١.

(٥) جرجى زيدان، مصر العثمانية، ص ١٠٠.

وبالإضافة إلى ذلك فقد ظهر بعض العلماء الذين تفوقوا فى بعض العلوم مثل الشيخ حسن الجبرتى عالماً من أكبر علماء عصره فى العلوم الشرعية والرياضية ، تعلم الحظ فأجاده والنقش على فصوص الخاتم، فأحكمه، وتعلم اللغة التركية، واللغة الفارسية فأجادهما . ثم اشتغل بالعلوم الرياضية فأتقن منها الفلك، والهندسة والحساب والجغرافيا ، والمساحة والأوقاف ، وحل الرموز، وفتح الكنوز ، وانتهت إليه الرئاسة فى الصناعة، وأذعنت له أهل المعرفة بالطاعة.

ونزل القاهرة عالم متضطلع فى الرياضة والحكمة والفلسفة ، اسمه الشيخ حسام الدين الهندى، واستقر بمسجد بمصر القديمة، فقصده الشيخ وأعجب كلاهما بصاحبه وأحبه، فلم يزل بالشيخ الهندى حتى نقله إلى داره، وأفرد له مكاناً وأكرم نزله وأنفق عليه ، وظل مقيماً عنده حتى رحل إلى بلاده (١) .

وأخذ معارف الصوفية على الشيخ العارف عبد الخالق بن وقاد، وكانت له فيها قدم، وسلك طريق السادة النقشبندية ، وحفظ القرآن فى العاشرة (٢) .

وكان يدرس فى الأزهر علوم الحكمة والهيئة والهندسة والتوقيت ، وهو آخر من درسها فيه . وكان طلابه وتلامذته يقصدون إليه فى بيته لتلقى الدرس بالصناديقية ، وكان بعض تلامذته يقيم فى بيته طاعماً كاسياً ليتعلم ويراجع ما يشاء فى مكتبة الشيخ العامرة ، التى جعلها مباحة ميسرة لمن يشاء القراءة والمراجعة والاستفادة ، ونظراً لمكانته راسله السلطان العثمانى مصطفى ( ١١٧١-١١٨٧ هـ / ١٧٥٧-١٧٧٣ م) وأرسل إليه الهدايا والصلوات والكتب . وكانت لهذا السلطان معرفة وعناية بعلوم الرياضة والنجوم، وكذلك أهديت للشيخ الهدايا من ولاية تونس والجزائر ، وأكابر الدولة العثمانية (٣) .

وكان الشيخ حسن محباً للكتب جماعاً ، يبذل فى اقتنائها المال الكثير، فكانت داره عامرة بالكتب النادرة وبعضها باللغة التركية والفارسية مثل الشاهنامة وتواريخ العجم ، وفيها آلات فلكية وهندسية ، وأفرد فى بيته مكاناً خاصاً جمع فيه الكتب المتداولة بين علماء عصره فى الفقه، والحديث والتفسير والتوحيد والمنطق واللغة وغيرها، فكان العلماء والطلاب يجيئون

(١) محمود الشرقاوى ، مصر فى القرن الثامن عشر، ج ١ ، الطبعة الثانية، الأنجلو، القاهرة ١٩٥٧ ،

ص ٥ .

(٢) المرجع السابق، ج ١ ، ص ٦ .

(٣) نفسه ، ج ١ ص ٨٠٧ .

هذا المكان ويأخذون ما يشاءون من الكتب بغير استئذان، وكان منهم من يأخذ الكتاب ولا يرده ومنهم من يأخذ كتاباً ويرد غيره والشيخ سمح لا يمنع<sup>(١)</sup>. وكان يجمع الحاذقين من أهل الصناعات عنده ليتعلم منهم، ويعلمهم، حتى تعلم خدمه عنده بعض هذه الصناعات وجاءه طلاب من أوروبا ليتعلموا علم الهندسة، والطب، والموازين ... الخ<sup>(٢)</sup>.

أما مؤلفاته فهي: نزهة العين في زكاة المعدنين، والأقوال المعربة عن أحوال الأشرية، وكشف اللثام عن وجوه محذرات النصف الأول من ذوى الأرحام، وبلوغ الآمال في كيفية الاستقبال، ومؤلفات أخرى في العروض، وشرح الدر المختار، ومناسك الحج، وتقييدات على العصام والحفيد والمطول والمواقف والهداية، وحاشية على شرح قاضى زاده على الجفمينى، وبراهين هندسية شتى وغير ذلك<sup>(٣)</sup>.

ومحمد بن زين العابدين بن محمد بن أبى الحسن بن أبى السرور البكرى (ت ١٢ ربيع الأول ١٠٨٧ هـ / ٢٥ مايو ١٦٧٦) عاش حياة علمية حافلة، فقد اشتغل بعلوم الحديث والتفسير وعلوم القول، وأصول التصوف والتاريخ، واشتغل بالتدريس فى الجامع الأزهر، وله مؤلفات عديدة، تعالج تاريخ مصر منذ بداية الحكم العثمانى وحتى الفترة التى عاصرها<sup>(٤)</sup> ولما تقدمت به السن اعتزل التدريس فى الجامع الأزهر، واشتغل بالإفادة فى منزله، وآلت إليه رئاسة البيت البكرى. وحج إلى بيت الله الحرام فى عام ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م. وكان مسموع الكلمة عند العامة والخاصة وشفاعته مقبولة عند الكبراء والوزراء<sup>(٥)</sup>.

(١) محمود الشرقاوى، المرجع السابق، ص ٩.

(٢) نفسه، ص ١٠.

٣- محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى، كشف الكربة فى رفع الطلبة، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، المجلد ٢٣، القاهرة ١٩٧٦ م، ص ٣٠٤، ٣٠٥ ومن مؤلفات:

- الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة.

- اللطائف الربانية على المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية .

- المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية .

- النزهة الزهية فى ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية.

- الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة.

(٤) نفسه، ص ٣٠.

الشيخ عبدالله الشرقاوى ، كان من كبار الرجال فى ذلك العصر ، ورئيساً ثلاث مرات للديوان الخصوصى الذى انشأه نابليون وخلفاؤه ، وقد كتب الشيخ رسالة فى تاريخ مصر سماها « تحفة الناظرين فى من ولى مصر من الولاة والسلطين » . ونستطيع أن نعرف مستواه الذهنى ، ومدى فهمه للتاريخ وذلك من ثنايا صفحاته ، قيمة ادراكه الوطنى واحساسه أو رأيه فى أهل مصر <sup>(١)</sup> ، وتولى مشيخة الأزهر .

والإدكاوى وقد عرف بالعمدة الفاضل الكامل ، والأديب الماهر ، الناظم الناثر الشيخ عبدالله بن عبدالله بن سلامة الإدكاوى ١١٠٤ هـ / ١٦٩٢ م ، ثم قدم القاهرة فحفظ القرآن وحضر دروس العلماء وأدرك الطبقة الأولى ، كالسيد على برهان زادة ، نقيب الأشراف ، وكبير أدباء عصره ، والشيخ الشبراوى ، والشيخ الحفنى . وكان إلى تبريزه فى الشعر والنثر ، جيد الخط ، له فيه قاعدة اشتهرت باسمه ، وتدارسها الناس فى مصر .

وقد صار ، فى الشعر ، والنثر والخط ، أوجد زمانه ، حتى توفى شيخه الحفنى فتغير حاله ، واعتلته الأمراض ، ومرض أيام ثم مات ، فى اليوم الخامس من جمادى الأولى سنة ١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ م <sup>(٢)</sup> .

اسماعيل أفندى ابن خليل الظهورى ( ت ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ م ) وهو شاعراً اشتغل بالموشحات الأندلسية فجاد منها بشئ ما . كان رجلاً قانعاً يتكسب بالكتابة ، جيد الخط ، حسن الذوق فيه ، كان له متجر يبيع فيه البن بوكالة البقل ، بالقرب من خان الخليلى . وهو إلى ذلك له معرفة جيدة بعلم الألحان والموسيقى وضرب العود <sup>(٣)</sup> . وللظهورى بعض من الشعر يدل على أنه كان على شئ من الثقافة العلمية ، استخدم فيه علم الفلك ، على وجه لا بأس به <sup>(٤)</sup> .

وعامر الأنبوطى ، وهو شاعر ماجن ظريف ، كان هجاءً وكان يجيئ من بلده إلى القاهرة فيزور العلماء والأعيان ، ويتلقى ما يتداولونه من شعر فيضع ، على وزنه وقافيته شعراً آخر هازلاً ، يتناول فيه الطعام ، وأصناف المأكولات وكان الشعراء يكرهون ذلك منه ، ويتحامونه حتى لا يحيل شعرهم إلى سخرية ، وكان الشيخ عبدالله الشبراوى يكسوه ويكرمه ، ثم يقول له

(١) محمود الشرقاوى ، مصر فى القرن الثامن عشر ج ١ ، ص ٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، ج ١ ص ٦٠ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٧٨ .

(٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٨٠ .

بالله يا شيخ عامر لا «تزفر» قصيدتي ، وهذه جائزتك ثم يعطيه . وكان الشيخ الحفنى يكرمه أيضاً ، ويغدق عليه يستطيب الاستماع له وكان الشاعر الأنبوطى شيخاً كبيراً صالحاً ، يحل عينيه ، ويعنى بهيئته وهندامه . وصنع الشيخ الأنبوطى الفية فى الطعام، على وزن ألفية ابن مالك فى النحو<sup>(١)</sup>.

ومصطفى اللقىمى الدمياطى، كان واحداً من أخوة أربعة كلهم شعراء وألف مقامة طويلة سماها «المدامة الأرجوانية فى المقامة الرضوانية» ألفها فى مدح الأمير رضوان الجلفى، وضمنها كثيراً من شعره ووصف فيها قصور هذا الأمير. وصفاً شائقاً بارعاً<sup>(٢)</sup>.

وقد نشطت بصفة رئيسية «مدرسة التراجم» مثل ابن آياس (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) والإسحاقى (ت ١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م) وقد يكون أكثر مؤرخى مصر إنتاجاً فى هذه المرحلة محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى (ت بعد ١٠٧١هـ / ١٦٦١م) وأحمد شلبى عبد الغنى (ت ١١٥٠هـ / ١٧٣٧م) ونختم هذه المرحلة بأكبر مؤرخيها وهو الجبرتى (ت ١١٨٨هـ / ١٧٧٤م) الذى هو فى الواقع بداية المرحلة الثانية من تاريخ الحياة الفكرية فى العصر العثمانى فى الولايات العربية<sup>(٣)</sup>.

كذلك فإن «العلوم الرياضية» من حساب وهندسة وفلك، فقد جذبت هى الأخرى الكثير من العلماء والمدرسين والمؤلفين فى علم الحساب مثلاً له صلة بحاجة الناس وهو أساس فى «علم الفرائض» أى توزيع التركات على وراثيها . وعلم الهندسة أيضاً تستند إلى هندسة الأبنية المتنوعة، ولاسيما الحربية وإقامة الجسور، وباختصار عملية العمران بصفة عامة. وكان هذا العمران نشيطاً خلال هذه المرحلة ، سواء أكان فى ميدان المؤسسات الدينية التعليمية أم فى حقل القلاع والقصور وغيرها فى جميع الولايات العربية. أما «علم الفلك» فصلته الوثيقة بالتوقيت وعبادات المسلم، ناهيك عن علاقته بأسفاره وحياته اليومية العملية واضحة ويلاحظ أن بعض من عمل فى ميدانها عمل أيضاً فى علوم أخرى، كالعلوم الشرعية واللغوية والتصوفية والتاريخية وغيرها. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر . الشيخ أبوبكر بن على المعروف بالجمال المصرى المقيم فى مكة (ت ١٠٠٦هـ / ١٥٩٧م) الذى عمل فى ميدان

(١) محمود الشرقاوى ، مصر فى القرن الثامن عشر ج ١ ، ص ٨٠ .

(٢) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٨٢ .

(٣) ليلى الصباغ، معالم الحياة الفكرية فى الولايات العربية فى العصر العثمانى، ضمن كتاب الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، اشراف وتقديم أكمل الدين احسان أوغلى، نقله إلى العربية صالح سعداوى، استانبول، ١٩٩٩، ج ٢، ص ٣٥٤ .

الحساب والفرائض والجبر والمقابلة وأعمال المناسخات بالصحيح والكسور والحل إلى جانب مشاركته التامة في العلوم اللغوية والشرعية والشيخ حسن الجبرتي (ت ١١٨٨ هـ / ١٧٧٤ م) الذي درس علم الفلك والهيئة ، ودرسها وأخذ عنه عدد من العلماء هذا إلى جانب شهرته بعلوم الموازين والرياضيات والعلوم الشرعية والفلكية (١).

ورضوان المصري (ت ١١٢٢ هـ / ١٧١٠ م) وله عدة مؤلفات هامة في الفلك منها (الزيج الرضواني على أصول الجديد للسمرقندي).

وفي ميداني علمي الحيوان والنبات، فإن علماء هذه المرحلة لم يغفلوها ، فأحيوا ما كان أسلافهم قد تدعوه في جعليهما شرحاً وتلخيصاً وتحشية وانتقاء . وقد ألف عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١ هـ / ١٦٢١ م) عدة رسائل عن الحيوان والنبات (٢).

وكانت مهنة الطب والجراحة في أيدي الحلاقين والمشايخ الذين تخصصوا في إعطاء العلاج لبعض الأمراض عن طريق عمل الأحجية والتسمائم ضد الأمراض ، ولم يكن شائعاً أن نجد قاضياً أو عالماً على رأس رابطة أطباء أو رجال الدين يمارسون الطب. وكان الطب في تلم الآونة يعتبر تجارة أكثر منه علماً من وجهة النظر الأكاديمية، ولم يلق الاهتمام الكافي (٣). وكان اليهود أكثر إقبالا على الاشتغال بالطب من المسلمين (٤) وأيضاً بعض الأقباط ولسيما الرهبان (٥).

ومن الأطباء تدين القوصوني المصري ( المتوفى بعد ١٠٤٤ هـ / ١٦٣٤ م) وله قاموس الأطباء من تجارب وفوائد في الطب والتشريع مرتباً حسب حروف المعجم . وأحمد القليوني المصري (ت ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م) وله مؤلف «الطب والعلاج العربيان» وقد ترجم بعض فصول منه إلى الفرنسية ونشرها المستشرق الفرنسي «بنيامين رفائيل سجنتي

(١) ليلي الصباغ ، المرجع السابق، ج ٢ ، ص ٣٤٩-٣٥١ .

(٢) نفسه ، المرجع السابق ج ٢ ، ص ٣٥٢-٣٥٣ .

(٣) G. El Din Shayyal, Some Aspects of Intellcuall and Socia life Eghteenth Century in Egypt; p. 199 , Lane pool . Soical life in Egypt, p . 89 .

(٤) أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية ، سجلات محكمة الإسكندرية ، سجل رقم ١١ مادة ١٤٧١ ، ص ٣٦٦ بتاريخ ٨ صفر عام ٩٧٩ هـ .

(٥) El Shayyal, Op. cit., p. 199 .

(٦) ليلي الصباغ ، المرجع السابق، ج ٢ ، ص ٣٥٢-٣٥٣ .

(١٨١١-١٨٣٣م) فى باريس سنة ١٨٦٦ ، مع معجم المصطلحات الطبية، وله أيضا مؤلف بعنوان «المصابيح السنينة فى طب البرية وقد حققه حديثاً مصطفى هاشم محمد من مركز احياء التراث ببغداد (١) .

وهناك موضوعات طبية حظيت بالاهتمام والتأليف «وياء الطاعون» وطرق التغلب عليه لكثرة ما أصاب البلاد العربية منه . وقد ألف فى ذلك الكثير من الأطباء بل من الأدباء . ومن بعض كتب فيه على سبيل المثال لا الحصر «عبد الرؤوف المناوى ( ت ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢م) فى كتابه منحة الطالبين لمعرفة أسرار الطواعين (٢) .

وبالرغم من ذلك كله فقد وجد فى القاهرة خلال هذه الفترة مدرسة للطب فى المارستان المنصورى الذى استخدم كمستشفيات عادية وللأمراض العقلية ويوجد بمستشفى السلطان قلاوون (بيمارخانه) مدرسة لتعليم الطب حيث يمارس دراسة الطب ، مع الأطباء وتلاميذهم ويحضرون لكل مريض ما يوافق طبعه من الطعام والدواء . وللحكماء أتباع من الممرضين لهم الجرأة وطبع الجلادين، يطعمون بعض المرضى الفاقدى العقل خسافاً من عصا الشوم فيعقلون . وقد لاحظ بعض الرحالة إذا قدم إلى مستشفى قلاوون مريض مضى عليه ثلاثة أعوام أفاق فى أربعين يوماً . لأن فيه حكماء كبقرات وسقراط وأفلاطون وفيثاغورث والتوحيدى وأبى على بن سينا، لكل منهم حكيم كالسيح يحيى الموتى . والحكماء معظمهم من المصريين والعرب . وكان الدواء يحضرونها من الصعيد والواحات والحيش وبلاد الفنج وجبل القمر أنواعاً من النبات والأعشاب والحيوان لا يوجد فى الهند أمثالها . فتزد تلك العقاقير إلى القاهرة فيستعملها الحكماء فى علاج المرضى ، فلهذا اشتهر مستشفى قلاوون فى بلاد الترك والعرب والعجم .

وخصص جانب من هذا المستشفى لعلاج النساء، وجميع خدمه من النساء، وليس به رجال غير الحكماء وهم من المحارم، فلذا يدخلونه بلا خوف ويعالجونهم (٣) .

(١) ليلى الصباغ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

(٢) محمد المحبى، خلاصة الأثر ، ج ٢ ، ص ٤١٦ .

(٣) أوليا جلى ، سياحة نامة مصر، ترجمة محمد على عونى، تحقيق عبد الوهاب عزام، أحمد السعيد سليمان ، تقديم ومراجعة أحمد فؤاد متولى، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٣٤٧، ٣٤٨ .

وقد انحطت علوم الصيدلة ، وخاصة بالنسبة للعقاقير المستخدمة فى هذا العصر، كان ينقصها التكوين الطبى، وكانت تصنع من النباتات فى أغلب الأحيان، ومن تلك زيت اللوز المر<sup>(١)</sup>. ولعلاج بعض الأمراض يستخدم ما يعرف بالقرص من جسم الحية . ولأوقاف السلطان قلاون أربعون مستخدماً يقيمون بقرية ابن الخبير من قرى الجيزة ويقومون بالخدمة مرة فى كل عام. وتلك الخدمة هى صيد الحية التى يصنع منها «ترياق الفاروق» ، وإذا حان وقت صيد الحيات وهو شهر يوليو، اجتمعوا فى موضع ولبسوا ثوباً مصنوعاً من اللباد الغليظ ، فلم يبق من أجسامهم عارياً إلا العيون، وربطوا بطرف عصى طويلة لباداً أبيض وذهبوا إلى جهات بهنسا والفيوم والجبل الأخضر، ثم قصدوا مبكرين الأماكن التى تعيش فيها تلك الحية ، وذلك لأن الحيات تكون مخدرة قبل اشتداد الحرارة ومع ذلك تقاتل الصيادين قتالاً شديداً حتى يصطادوا منها الآلاف ويضعونها فى قفص مدهونة بالفاروق فتنام ويخيطوا فتحاتها. وقد يحدث أن تثب حية فلتدغ الصياد من عينه فتقتله . وبعد ذلك تدخل هذه الحيات فى مكان يعرف بالفارقخانة وهى مدرسة عظيمة كسيت جدرانها الداخلية وأرضيتها بالواح من الرخام . ولا يدرس فيها غير الطب ، وحول حرمها أروقة ، وكانت الأروقة مفروشة ويوجد بها رئيس الحكماء (حكمباش) ثم الناظر وكاتب الأوقاف ومرشدها ، وعشرة من مساعدي الحكيمباش ، والداعى واثنى عشر نقرأ من الصيادين والطهارة والجزارين . ويتم فرز الصالح من الحيات لعمل العقاقير المطلوبة<sup>(٢)</sup>.

## مراحل التعليم

وتشمل مراحل التعليم المختلفة فى تلك الفترة، فالمرحلة التعليمية الأولى وتشمل الكُتُاب<sup>(٣)</sup> سواء بالنسبة للمسلمين والأقباط واليهود، والمواد التى تدرس فى كل منهم والمدرسة والمؤسسات التعليمية الأخرى مثل المساجد والربط والتكايا والزوايا والترب، وتشمل المرحلة الثانية من التعليم ، أما المرحلة الثالثة فهى التعليم العالى.

(١) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، ٢ ، ص ٤ .

(٢) أوليا جلى، سياحة نامه ، ص ٣٤٨-٣٤٩ .

(٣) والكتاب : موضع تعليم الكتاب أى الكتابة، ولكن استخدام الكتاب للقراءة والكتابة ولاشئ سواهما ، ولما كان الصبيان هم الذين يتعلمون فى هذا الكتاب وهم الذين يتعلمون فى المعهد الآخر الذى كان مخصصاً لتعليم القرآن والدين، فقد كان ذلك سبباً فى أن أطلق اسم الكتاب على المعهد الثانى أيضاً ، =

## ١- الكتاب :

والكتاب يقوم مقام مدارس المرحلة الأولى فى وقتنا الحاضر، حيث يبدأ الطفل مرحلة التعليم الأولى، وقد عرفت مصر نوعين من الكتاب هما، الكتاتيب الخاصة ، وهى التى يدفع والد الطفل أجرة تعليمه ، والمكاتب العامة، وهى التى أنشئت بهدف تعليم الإيتام والفقراء ، ويصرف عليها من الأموال الموقوفة وتصرف منها على حسب شروق الواقف<sup>(١)</sup>.

ومنذ قيام الدولة العثمانية ، أن لم يكن قبل ذلك كان النمط الوحيد من التعليم فى البلدان الإسلامية يكاد يقتصر على التعليم الدينى. وكانت مكاتب تحفيظ القرآن هى الأساس العام لكل أنواع التعليم، سواء أكان مدنيًا أم إداريًا أم فنيًا أم دينيًا. ومن المحتمل أنه لم يوجد إلى جانب هذه المكاتب أى تنظيم اجتماعى آخر، نجح فيه الروح العالمى للإسلام نجاحًا كاملاً فى فرض التماثل على كافة أرجاء العالم الإسلامى الذى انتشرت فيه موضوعات هذا التعليم الابتدائى وطرائقه التقليدية المتبعة<sup>(٢)</sup>.

وقد أنشئ فى وقفى أمير الأمراء خاير بك والأمير جانم الحمزاوى مكاتب لتعليم يتامى المسلمين القرآن الكريم، والعبادات والخط العربى<sup>(٣)</sup> وقام بعض الولاة بإنشاء بعض المكاتب لنفس الغرض مثل مسيح باشا الخادم (٩٨٢-٩٨٨ هـ / ١٥٧٥-١٥٨٠ م)<sup>(٤)</sup> وأيضاً أبو النور

---

= ثم شاع هذا الإطلاق ، وأصبح اسم الكتاب يطلق على المعهد الذى يتعلم فيه الصبيان أيا كان الموضوع الذى يعلمونه قرآنًا كان أو قراءة وكتابة (انظر : ابن منظور ، لسان العرب، مادة كتب، ج ٢ ، ص ١٩٢ ، وانظر: أحمد شلبى ، تاريخ التربية الإسلامية، ص ٤٨) .

ووجد هذا النوع من الكتاتيب قبل ظهور الإسلام ، ولو أنه كان قليل الانتشار ويقال أن أول من تعلم الكتابة بالعربية من أهل مكة هو سفيان بن أمية ابن عبد شمس ، وأبوقيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وقد تعلمها من بشر بن عبد الملك الذى تعلمها من الحيرة . والذى تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية، ويقال حرب بن أمية ، وأخذها من أسلم بن سدره ، (انظر : أحمد شلبى، المرجع السابق، ص ٢٤) .

(١) عبد الغنى محمود عبد العاطى، التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، ص ٩٩ .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى، حفاظ العثمانيين على التراث الإسلامى، المجلة العربية للعلوم الإنسانية العدد ٣١، المجلد ٨ ، صيف ١٩٨ ، ص ١٣٧-١٣٨ .

(٣) جميل عرفة منتصر ، دور علماء الأزهر فى مصر العثمانية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، ص ١٣٤ ، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب الاسكندرية ١٩٨٣ م .

(٤) يوسف الملوانى ، تحفة الأحياب بمن تولى مصر من الملوك والنواب، ص ١٤٦ .

محمد باشا (١٠٦٣-١٠٦٦هـ / ١٦٥٣-١٦٥٦م)<sup>(١)</sup> وقرّة محمد باشا (١٠١١-١١١٦هـ / ١٦٩٩-١٧٠٤م) الذى أنشأ مكتباً للفقراء يقرؤون فيه القرآن الكريم، وجعل لهم من الجرايات من يكفيهم<sup>(٢)</sup>، وكان للأمراء المماليك جهود فى هذا المجال مثل مصطفى جوريجى<sup>(٣)</sup> مستحفظان ، الذى أنشأ مكتباً فى عام (١١٦١هـ / ١٧٠٠م) وعين له فقيه مؤدباً للأطفال وعريف ليّعين ذلك الفقيه، وخصص له راتباً شهرياً يصرف من الوقف المخصص له<sup>(٤)</sup>.

ويتعلم الأطفال كتابة الحروف الهجائية والكلمات ، فى نفس الوقت الذى يتدربون فيه على نطقها . وينحصر تعليمهم الأولى فى هذا ويردد التلاميذ بصوت عال، وهم مجتمعون داخل فناء الدروس التى سبق أن تلقوها. وهنا يحدث ضجيج ، وعلى المؤدب أن يكون متعوداً عليه، فكان الأطفال يستذكرون دروسهم بطريقة الغناء<sup>(٥)</sup> أما الحساب فيتعلمونه فى مرحلة لاحقة ويتعلمها عند قبائى القرية أو أحد أصحاب حوانيتها<sup>(٦)</sup>، ويحفظون بعض الآيات القرآنية<sup>(٧)</sup> وأصبح القرآن نقطة الارتكاز فى هذه الدراسة<sup>(٨)</sup>.

(١) يوسف الملوانى، المرجع السابق، ص ١٤٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .

(٣) جوريجى : أو شوريجى حرفياً رجال الشورية أو ممونوا الشورية وهو المسئول عن طعام الأورطه لأن القوات الإقطاعية لم تكن تقبض رواتب من الدولة ، بل أيضاً لاتلقى منها مؤنتها اليومية . ويبدو أن الألقاب المخلوعة على كثير من رتب سلك الضباط توضع أن المهمة الرسمية لأصحابها هى مواجهة هذه المشكلة قبل كل شئ (انظر : هاملتون جب، هارولد بوون ، المجتمع الإسلامى والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصطفى الحسينى، ج ٢ ، ص ١٧٦) . وكان هذا الاسم يطلق فى الاستعمال العثمانى على ضباط الانكشارية وعلى مختارى القرى المتقدمين فيها أو بعبارة أخرى على أعيان الجهات (انظر : محمد شفيق غربال، مصر عند مفترق الطرق، ص ٢١ ، هامش رقم ١) .

(٤) جميل عرفة منتصر ، المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٥) H. Dunne : An Introduction to the History of Education in Modern Egypt , p. 3 .

(٦) أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم فى عهد محمد على، القاهرة ١٩٣٨، ص ١٣ .

(٧) ج. دى شابرول ، دراسات فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، المجلد الأول، ترجمة زهير الشايب، ص ٦١ ، جومار وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة أيمن فؤاد، ص ٢١٣، إدوارد لين، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم ، ترجمة عدلى طاهر نور، ص ٥٦ .

(٨) P. J. Valikitis, The Modern history of Egypt , p. 22 .

ويرى أحمد عزت عبد الكريم أن هذه لاشك طريقة حسنة في التعليم ، لا يخرج عنها كثيراً مبدأ التعليم الفردي الذي تنادى به التربية الحديثة الآن ، ذلك المبدأ الذي يبت في التعليم روحاً من المرونة يلائم قدرات الطفل وميوله . وكان أحراراً نحن تتبع هذه الطريقة ثم نلائم بينها وبين ما يقتضيه العصر من اصلاح لولا أنا درجنا على أخذ تقاليدنا عن أوربا بعد أن تصبغها هذه بصبغتها العلمية الحديثة.

غير أن هذه الطريقة المثلى في التعليم قد شوهدا الحفظ والاستظهار وإهمال التهذيب العقلي للناشئ ، فكانت نتيجة ذلك أنه لم ينبت شئ مما بذر وإن نبت فإنه لم ينضج وكلما كبر الولد نسي القراءة والكتابة لأنه كلما تسنح له فرصة لدوام المران عليها ولأنها كانتا مرتبطتين أكبر ارتباط بحفظ القرآن<sup>(١)</sup>.

وعندما يحرز الأطفال تقدماً في القراءة والكتابة، يبدأ التعليم بطريقة الإملاء . ولا يكلف المعلمون أنفسهم مطلقاً عناء تعليم تلاميذهم لا الصلاة ولا القوانين التي فرضها الرسول ﷺ، ويلتزم الآباء بتعليم قواعد الشريعة فعندما يقترب الابن من سن البلوغ يبدأ الأب دروسه الأولى<sup>(٢)</sup>.

ويكتب الدرس عادة على ألواح<sup>(٣)</sup> من الخشب المصبوغ بالأبيض، تمسح بعد كل درس ويكب عليها الدرس الجديد<sup>(٤)</sup> ثم يتعلمون بعد ذلك الكتابة بالمداد، ومما يذكر أن معلم الخط غير معلم القرآن، علمهم بكتب الأشعار وسواها، ولا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً له، فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتب لأن معلم الخط لا يعلم غيره<sup>(٥)</sup> ويجلس جميع التلاميذ مربعي السيقان<sup>(٦)</sup>.

(١) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص ١٤ .

(٢) أحمد شلبي ، المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٣) إدوارد لين، المرجع السابق، ص ٤٥-٥٥ ؛ محمد كامل الفقى، الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة، ص ١٩ .

(٤) إدوارد لين، المرجع السابق، ص ٥٦ .

(٥) جومار، المرجع السابق ص ٢٤ .

(٦) إدوارد لين، المرجع السابق، ص ٥٥؛ دى شابرول ، المرجع السابق، ص ٦٠ ؛

وبالنسبة لسن الالتحاق فى هذه المرحلة فيتراوح ما بين الرابعة أو الخامسة ، فالذى يهمله تعليم طفله يحرص على أن يجعله فى هذا السن أحياناً يتردد على المكاتب حتى يتعود على شكل الحروف، ولكى يدركها دون مشقة كبيرة<sup>(١)</sup>. وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده، لأن السابق للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال بنى عليه<sup>(٢)</sup> فإذا بلغ الطفل الحلم صرف من المكتب ليحل محله مستحق آخر<sup>(٣)</sup>.

أما نظام التغذية فى هذه المكاتب ، فإنه كان يمنع الأطفال من إحضار الطعام معهم إلى المكتب أو إحضار النقود لشراء احتياجاتهم أثناء الدراسة لأن ذلك يؤثر بشكل ضار على نفسية وإحساس الطفل الفقير الذى يعود إلى بيته<sup>(٤)</sup>، وأحياناً يسمح للأمهات أن ترسل وجبات لأطفالهن، ويقتسم هؤلاء الأطفال طعامهم مع زميلاتهم المعوزين ، وهذه العادة تتبع عن معتقدات ، فبهذه الطريقة يتعلم الناس منذ طفولتهم كيف يصبحون خيرين، وكيف تنمو مع نموهم هذه الميول الخيرة التى تحض عليها مبادئ الدين<sup>(٥)</sup>.

وكان هناك الإشراف الصحى على الأطفال ، فإذا اشتكى أحد أطفال المكتب من مرض أو تعب، يبلغ فوراً ولى أمره لعلاج ، وفى نفس الوقت لحماية باقي الأطفال من العدوى<sup>(٦)</sup>.

أما نظام العقاب داخل هذه المكاتب ، فقد وجدت العقوبات فيها ، وأصبحت عصا المعلم شيئاً لا يخلوا منها كتاب قط، وشاعت عنها عبارة عصا المعلم من الجنة، ومن أجل هذا كان المؤدب يستطيع أن يضرب الطفل أكثر مما يستطيع أقرب الناس إليه ، وكانت الأم تقبل أن يضرب المؤدب أبنها، ولكنها تتدخل فى حالة إن ضرب والده له ، وذلك لأن عصا المعلم من الجنة، ولكن عصوات الآخرين ليست كذلك<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٣٩ .

(٢) سعيد عاشور، العصر المالكي فى مصر والشام، ص ٣٢٦ ؛ جومار، المرجع السابق ص ٢١٣ .

(٣) عبد الغنى محمود عبد العاطى، المرجع السابق، ص ١٠٢ .

(٤) شابرول ، المرجع السابق ، ص ٦٠؛ إدوارد لين، المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٥) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، المرجع السابق، ص ١٠٣ .

(٦) المرجع السابق، ص ١٠٣ .

(٧) أحمد شلى ، المرجع السابق ، ص ٢٢٠؛ عبد الحليم منتصر، دور العرب فى تقدم العلوم، ص ٦٣ .

وأبيحت العقوبات البدنية للصبيان الذين تجاوزوا العاشرة من أعمارهم ولم يبلغوا الشباب، فلا يجوز ضرب الأطفال قبل العاشرة ، ولا ضرب الذين تقدمت أعمارهم. ولا يستطيع المؤدب أن يلجأ إلى العقوبة البدنية إلا عند الضرورة القصوى ، ويجب عليه ألا يكثّر استعمالها ، وإذا استعملها فيجب ألا يكون منشقاً قاسياً ، بل مؤدباً رحيماً، ويكون الضرب بالدرة على أن تكون رطبة مأمونة ولا يضرب على الرأس ولا على الوجه، بل يضرب على الأفخاذ وأسافل الرجلين لأن هذه المواضع لا يخشى منها مرض ولا غائلة<sup>(١)</sup>.

أما عن نظام المكافآت للطفل نظير تفوقه في مسابقة تسمى جائزة ، ومنها ما يستحقه نظير تفوقه بدون مسابقة ويسمى مكافأة ، وإن كان أغلب الكتاب يتحررون مع ملاحظة وجه الخلاف بين اللفظين فيصفون كلاً منها في موضع الآخر في كثير من الأحيان ، وكثيراً ما كان مؤسسوها يجعلون لها حصيلة خاصة في أوقافهم<sup>(٢)</sup>.

وإذا تم التلميذ المرحلة الأولى وهي حفظ القرآن الكريم، احتفل به احتفالاً كبيراً يسمى «الاصرافة» فتزين أرض المكتب وحيطانه وسقوفه بالحرير ويقوم أهل الطفل بزينة بقلائد الذهب والعنبر، ثم يركبونه على فرس أو بغلة مزينة ويحملون أمامه أطباقاً فيها ثياب من حرير وعمائم ، على حين مشى بين يديه بقية الصبيان ينشدون طوال الطريق حتى يوصلوه إلى بيته ، وعند البيت يدخل المؤدب ويعطى اللوح لأهل صاحب الأصرافة وعليهم تقديم هدية قد تكون عينية في شكل ملابس وهي عبارة عن عمامة وقفطان وزوج من الأحذية ، أو مالية وهذا على حسب مقدرة الوالد المالية<sup>(٣)</sup>.

ويجب ملاحظة أن أمر إهداء المؤدب هدية يصبح في حكم العرف سائر المواسم والأعياد شرط أن تكون هبة من أهل الصبى غير إجبارية، له بشرط ألا تؤثر على نوعية المعاملة التي يلقاها الصبية من المؤدب ، فإن من حقهم جميعاً على مؤدبهم أن يعدل بينهم في التعليم والمعاملة ، ولا يفضل أحد منهم على الآخر بغض النظر عما يقدمه البعض من الهدايا وأن يكون الصبيان عنده بمنزلة واحدة سواء من كان منهم غنياً أو فقيراً<sup>(٤)</sup>.

(١) أحمد شلبي ، المرجع السابق ، ص ٢٧٤ .

(٢) نفسه ، ص ٢٧٥ .

(٣) إدوارد لين ، المرجع السابق، ص ٢٦ ؛ سعيد عاشور ، المرجع السابق، ص ٢٣٦ ؛ Dunne, op. cit, p. 36 .

(٤) عبد الغنى محمود عبد المعطى ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .

من الأمور المعتادة أن يكون هناك مكتب فوق كل من الأسبلة التابعة للجوامع التي بناها السلاطين، بالإضافة إلى أسبلة الوزراء والوكلاء والأعيان والأثرياء، ويحفظ الصبية القرآن الكريم داخلها .

ومن الملاحظ أنه في النصف من رمضان جمع معلمو كتاتيب السلاطين والوزراء والأعيان الأطفال الذين يعلمونهم وهم من الأيتام والفقراء وعلى صدورهم ألواح مكتوب عليها آيات من كلام رب العزة وساروا معهم مارين بالأسواق يصيح بعضهم «يا حنان» وبعضهم «يا منان» وذهبوا إلى ناظر الكتاب الذي خلع على كل صبي ثوباً من النسيج المصرى، وعراقية حريرية، وأربعين أو خمسين بارة مصرية من الأوقاف الخيرية وهي رواتبهم، وإذا تم ذلك انصرفوا عائدين فرحين مسرورين متصايحين «يا حنان يا منان» وتستمر هذه الحركة من نصف رمضان حتى يوم الوقفة، فتشاهد الصبية رائحين غادين بين الكتاتيب ودور نظارها، كأنهم يتظاهرون، أنها لأوقات عظيمة حقاً<sup>(١)</sup>.

أما كتاتيب الأتراك وهي لسيت مبنية على أسبلة مزخرفة، وإنما هي فى حوانيت الخطاطين المهرة والمعلمين فى داخل الأحياء، يتعلم الصبية القراءة والكتابة والحسابات، وعلم القراءات وليس لها صبية من أبناء المصريين ومعلمو الأتراك يسكنون بتلك الأماكن<sup>(٢)</sup>.

هذه هي «الكتاتيب» إلى عصر محمد على كما كانت منذ نشأتها، أصابها ما أصاب التعليم كله فى مصر من روح الجمود. ولو أنها تابعت الزمن فى تطوره فعلت طرفاً من مبادئ العلوم الحديثة، واعتنى بأعداد مدرسيها وبوعدها بينها وبين الحفظ والاستظهار مع احتفاظها بطريقته التعليمية القائمة على الفردية، لكان لنا الآن تعليم أولى صالح يتفق وحاجة البلد ولا يخلج أن يواجه طرائق التربية الحديثة.

وجاءت حكومة محمد على، وكانت تدفعها أغراض عاجلة ملحة، رأت معها أن هذه المكاتب على حالتها تلك لا تستجيب لها فى تحقيق هذه الأغراض، ولهذا لم تأبه لتحويلها إلى مدارس تسير فى تعليمها على النظام الحديث بل أهملتها وأنشأت بجانبها مدارس على النسق الأوروبى. أما هذه المكاتب فلم تأبه إذ ذاك لهذه النزعة الحديثة فى التعليم، وآثرت كما فعل الأزهر أن تسير فى طريقها الذى درجت عليه وجمدت أمام التطور<sup>(٣)</sup>.

(١) أوليا جلى، سياحتنامة مصر، ص ٣١٦، ٣١٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٣١٧.

(٣) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص ١٥.

أما نظام الكتاتيب عند الأقباط فانه يختلف عما عند المسلمين ، فأولاً يتعلم الأطفال الدين والسلوكيات الطيبة والقراءة والكتابة باللغة القبطية ، ويتعلمونها عن طريق الأغاني ثم بعد ذلك مزامير داود<sup>(١)</sup> ، ورسائل الرسل باللغة العربية ثم الأناجيل باللغة القبطية<sup>(٢)</sup> ، ويتعلمون أيضاً الحساب وقياس الأراضى<sup>(٣)</sup> ، أو الإشراف على بعض الصناعات التى كانت منتشرة خلال هذه الفترة<sup>(٤)</sup> .

ويرسل الأقباط أولادهم إلى مدارس صغيرة، ويتمتع بهذه الميزة كل الأطفال الذكور بلا تمييز، لكن الفتيات لايستطعن الذهاب إلى المدرسة إلا بموافقة أمهاتهن اللاتى يعترضن على ذلك فى بعض الأحيان، وقد لوحظ أنه فى القاهرة لا توجد فتاة واحدة تتعلم، وعلى العكس من ذلك فى الصعيد حيث يذهبن إلى المدارس هناك مثل الأولاد ولاينقطعن عن الذهاب إلى المدرسة فى سن الثامنة أو التاسعة وهو السن الذى يبدأ فيه فى التشكيل ولايعدن أطفالاً<sup>(٥)</sup> .

وكانت هذه المكاتب محاطة بجو من السرية، فكانوا يقيمونها فى الأحياء البعيدة أو فى جوف المنازل<sup>(٦)</sup> . واكتسب مكاتبهم شهرة خاصة فى تعلمهم الحساب ويبد أن تلك الشهرة قد أقنعت بعض المسلمين بتفوق الأقباط فى علم الحساب، فأخرجوا أولادهم من مكاتب المسلمين وأرسلوهم إلى تلك الكتاتيب لكى يتعلموا الحساب ، وعرف أغنياء المسيحيين نوعاً من التعليم المنزلى لأطفالهم<sup>(٧)</sup> .

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم فى عهد محمد على، ص ٦٦٨؛ كلوت بك ، لحة عامة إلى مصر، تعريب محمود مسعود، ج ٢، ص ٢٠٦ ؛ دى شابرول ، المرجع السابق، ص ٦٢ .

(٢) ادوارد لين، المرجع السابق ، ص ٤٥٢ .

(٣) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص ٦٦٨ .

(٤) على مبارك ، المخطوطات التوفيقية، ج ٩ ، ص ٨٧ .

(٥) ج. دى، المرجع السابق، ص ٢١ .

(٦) أحمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٦٦٨ . : Dunne , op. cit ., p. 185 .

(٧) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر فى العصور الوسطى، ص ١٤٢ .

وإذا كان بعض المسلمين قد ألحقوا أبنائهم بالمكاتب القبطية ، فإن طلاب العلم من غير المسلمين قد ألحقوا في مسجد قرطبة، وكانوا يفدون من شتى بلاد أوروبا وخاصة من روما للدراسة هناك. وقد وصل أحدهم إلى كرسى البابوية ، وكذلك يقال عن الجامع الأزهر ، فالى يومنا هذا يحضر الكثيرون من غير المسلمين الدروس فيه إلى جانب الألوف من المسلمين الذين ينهلون العلم من موارده التى لاتنضب (١).

أما بالنسبة لتعليم الأطفال عند اليهود فلم يكن لهم نظام ثابت بسبب وجود اليهود فى الشتات، وكان التعليم يبدأ لديهم بشكل عام بتعليم أطفالهم فى المنازل تعليمًا خاصًا ، أو فى مدرسة أعدت لغرض التعليم الأولى (٢).

ولم يكن هناك معلومات كافية لأن اليهود كانوا يعيشون فى حى خاص بهم فى القاهرة (٣).

ولذلك كان التعليم عندهم ينصب أساسًا على تعلم أطفالهم القراءة والكتابة وبعض الأدعية والصلوات التى كانوا يتلونها فى صلوات السبت والمناسبات الدينية، ويطلب من المؤدب تعليم الأطفال القراءة فى النواحي الأربع للورقة رغبة فى الاقتصاد وبسبب ارتفاع أثمان الكتب وأجور النساخين ، وكان ذلك فى مكاتبهم الخاصة والتدريس يتم باللغة الإيطالية والعبرية والفرنسية بالإضافة إلى مبادئ الحساب والجغرافيا (٤).

أما المتقدمين فى السن من اليهود فيتعلمون التلمود مرة كل أسبوع أما عن سن الالتحاق بهذه الكتاتيب فكانت تتراوح بين ثلاث سنوات وست سنوات (٥).

أما طريقة شرح الدروس فكان المؤدب يشير إلى الحروف بعصا من الخشب فيتبعه على الأثر له رنين ونغم فى الوقت الذى يهز فيه التلاميذ رؤسهم إلى الخلف والأمام دون انقطاع (٦).

(١) حسين مؤنس ، المساجد ، ص ١٧١

(٢) قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق، ص ١٤٢ .

(٣) Dunne, op. cit, p. 91 .

(٤) محمود الشال، تاريخ مدارس الطوائف الدينية ومدارس الجاليات الأجنبية فى مدينة الاسكندرية فى القرن التاسع عشر، ص ٨٥ ، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب بالاسكندرية، جامعة الاسكندرية، ج ١، ١٩٨٤م.

(٥) إلياس الأيوبي ، تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل، ص ٢١٥ .

(٦) محمد فؤاد شكرى، بناء دولة مصر محمد على، السياسة الداخلية، ص ٢٨٧ .

## ٢- المدارس :

كانت المدارس هي المرحلة التالية للتعليم الأولى، ولذلك كانت المدرسة في مصر القديمة تتألف من قاعة ذات أفنية وبهو وأعمدة ويستقر فيها تمال رب الآداب والعلوم ومقاعد للأساتذة وصناديق للكتب تتكون منها مكتبة وهي تشهد بفخامة الدور الحكومية التي كثيراً ما منى المدرسون تلاميذهم الصغار بالالتحاق بها<sup>(١)</sup>.

أما في العصر الإسلامي، فيعتبر عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م حداً فاصلاً فيما يختص بإمكانة التعليم عند المسلمين ففي هذا العام افتتحت في بغداد أول مدرسة من مجموعة المدارس الكثيرة المنظمة التي أنشأها الوزير السلجوقي نظام الملك، وقد انتشرت هذه المدارس في العالم الإسلامي حتى شملت البلدان والقرى الصغيرة، بالإضافة إلى المدارس الكبرى في عواصم الأقاليم، ثم اقتدى بنظام الملك كثير من الملوك والعظماء<sup>(٢)</sup>.

ولم تكن في مصر مدارس في عهد الطولونيين والإخشيديين، فكانت الدروس تلقى في قصور الأمراء والوزراء وفي منازل العلماء<sup>(٣)</sup>.

أما في الدولة الفاطمية فسارت على أن يعقدوا مجالس علمية صاخبة من حين إلى آخر، وقوام هذه المجالس أساتذة دار الحكمة الذين كانوا ينقسمون إلى جماعات تبعاً لمواد دراستهم وتخصصهم، فكان يجتمع هنا أساتذة المنطق والجدل، وهناك الفقهاء، والمحدثون، وفي مكان ثالث علماء الرياضة، ويشغل الأطباء مكاناً رابعاً وهكذا<sup>(٤)</sup>.

وفي الدولة الأيوبية أنشئت الكثير من المدارس مثل المدرسة الناصرية<sup>(٥)</sup> لتدريس الفقه الشافعي، والصلاحية التي بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب وكانت المدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الإمام الشافعي<sup>(٦)</sup> ولعبت هذه المدرسة دوراً هاماً في خدمة الفكر

(١) أحمد شلبي، تاريخ التربية في الإسلام، ص ٤٣.

(٢) نفسه، ص ٩٣؛ عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ص ٥٤.

(٣) أحمد شلبي، المرجع السابق، ص ٥٤.

(٤) نفسه، ص ٩٤.

(٥) تقي الدين المقرئ، الخطط المقرئية، ج ٢، ص ٣٦٢.

(٦) إبراهيم بن محمد بن أيدير العلالي الشهير بابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج ٤،

الإسلامي<sup>(١)</sup> والقمحية<sup>(٢)</sup> لتدريس الفقه الملكى وسميت بهذا الاسم، لأنها كانت توزع على مدرسيها ومعبيها وطلبتها قمحاً ، والمدرسة السيوفية<sup>(٣)</sup>، لتدريس الفقه الحنفى، أما نظام التخصص الدقيق، فقد أختصت كل مجموعة معينة بتدريس مذهب معين من المذاهب<sup>(٤)</sup>.

وكان المماليك يكثرون من إنشاء المدارس، ويرجع ذلك إلى حرصهم على الظهور فى صورة حماة العقيدة الإسلامية السنية؛ العاملين على نشرها وذلك لينسى لهم رعاياهم ماضيهم الذى ارتبط بالرق، فضلاً عن اغتصابهم الحكم من بنى أيوب وأرادوا أيضاً أن يظهروا بمظهر المتصلين والمشجعين للثقافة الإسلامية واللغة العربية ولاسيما بعد انتهاء الأخطار الكبرى الخارجية والتي تمثلت فى الصليبيين والمغول . ولتتخذوا من المدرسة أداة تضمن بقاء الحكم فى أيديهم وتساعدهم على تدعيم مركزهم فى أعين الشعب . بالإضافة إلى ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس من إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة ؛ مما أكسب المماليك مركز الزعامة الروحية فضلاً عن زعامتها السياسية فى العالم الإسلامى<sup>(٥)</sup>.

وكانت نتيجة تحكم مصر فى مسارات تجارة العصور الوسطى، وحصولها على أرباح هذه التجارة؛ ووجود فائض لديها من هذه الأرباح مكنها من إقامة المؤسسات التعليمية والدينية والاجتماعية<sup>(٦)</sup>.

وليس ذلك بالسبب الوحيد الذى دفع إلى الاستكثار من بناء المدارس وترتيب الأوقاف للصرف من ريعها على المدرسين والطلبة؛ فثمة سبب آخر يتعلق بالحياة السياسية الداخلية فى عصر المماليك؛ وما اتسمت به من عدم استقرار . إذ أن الأمراء، بل والسلاطين أنفسهم كانوا يتعرضون لحوادث المصادرة والسجن مما جعلهم يرون فى الأوقاف وسيلة وملجأ يلجأون إليه عند الضرورة ؛ وضماناً لذريتهم من بعدهم<sup>(٧)</sup>.

(١) أحمد شلبى ، مصر مركزا للدراسات الإسلامية فى عصر الجبرتي؛ ضمن أبحاث ندوة الجبرتي؛ ص ٤٢٨ .

(٢) المقرئى ، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٦٥ .

(٣) المقرئى ، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٦٥ ؛ وابن دقماق، المرجع السابق، ج ٤، ص ٩٤ .

(٤) عبد العزيز الشناوى، الأزهر جامعاً وجامعة؛ ج ١ ص ١٠٥ .

(٥) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص ١٥٥-١٥٦ .

(٦) نعيم زكى فهمى، طرق التجارة الدولية ومواصلاتها فى العصور الوسطى، ص ٢٧٨ .

(٧) عبد الغنى محمود عبد العاطى، المرجع السابق، ص ١٥٤ .











































































































































































































































































































































































































































































